الوسطية في القرآن

من أبحاث

سماحة المرجع الديني

السيد كمال الحيدري

بقلم الدكتور طلال الحسن

الوسطيّة في القرآن

من أبحاث المرجع الديني

السيّد كمال الحيدري دام ظله

بقلم

الدكتور طلال الحسن

مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام

للفكر والثقافة

الكاظمية المقدّسة - باب الدروازة

١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

يطلب من

• مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة؛ بغداد

٠٠٩٦٤ـ٧٧٠٧٩٠٠٨٤٢

٠٠٩٦٤ـ٧٨٠٠٢٣٠٠٢٩

• مؤسسة الثقلين للثقافة والإعلام؛ كربلاء

٠٠٩٦٤ـ٧٨٠١٤٢١١٩٤

• معرض الكتاب الدائم؛ النجف الأشرف

٠٠٩٦٤ـ٧٧١١٦٤١٦٦٩

• مكتبة زين العابدين؛ البصرة ـ الطويسة

٠٠٩٦٤ـ٧٧٠٦٠٧٢٢٧١

• مكتبة دار الأمير؛ الناصرية ـ الحبوبي

٠٠٩٦٤ـ٧٨٠٣٠٩٨٤٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

موضوعية القرآن والإسلام

قال الله تبارکت آلاؤه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «**إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست علي شيء حتى ينتهي إلى العاشر، فلا تُسقط من هو دونك فيُسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره**»[(١)].

«**إنّ الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيانَ كلِّ شيء، حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا أُنزل في القرآن؟ إلّا وقد أنزله الله فيه**»[(٢)].

---

(١) الأُصول من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، قم، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م: ج٢ ص٤٤ ح٢؛ الخصال، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جامعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة: ص٤٤٧ ح٤٨؛ ص٤٤٨ ح٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٥٩ ح١.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على النبي محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...**﴾ (الإسراء: ٩)، كلمة تمسّ صميم هذه البحوث الفكرية والقرآنية والتربوية، المراد عرضها في هذا الكتاب، والتي نراها بحوثاً مترابطة ومتكاملة في بناء المحتوى الداخلي للإنسان والأسرة والمجتمع، ولكن بنسب مختلفة، وهي:

- دور القرآن في حياة الإنسان
- الوسطية في القرآن الكريم
- الوسطية في التشيّع
- مراتب الإيمان في القرآن
- نظم علاقات الإنسان

فالقرآن الكريم يتعاطى مع الإنسان وفق طبيعته القائمة على أصل: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (التين: ٤)، ولذلك فهو ليس مجرّد هادٍ يقع في عرضه أو في طوله هداة كثيرون، وإنّما هو كما عبّر عن نفسه: ﴿**يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾، وهنا تكمن الصلة الوثيقة والعلاقة العميقة بين طبيعة الإنسان وبين المعطى القرآني، فإذا ما أعدنا اكتشاف أنفسنا، ولو على المستوى الصوري، واستجلينا منطق أحسنية التقويم، فإنّنا سنجد أنفسنا أمام ذلك المقصد الذي لابدّ من سبر غوره، وهو المقصد الذي نستجلي به أحسنية التقويم الكامنة فينا، ولكن على المستوى الواقعي وليس على المستوى الصوري، وهو القرآن الكريم، الذي لا غنى لنا عنه، وهو على حدّ تعبير أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة**

في هدى، أو نقصان في عمى. واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال. فاسألوا الله به»[١]، أي: تزوّدوا منه؛ لأنّه بعبارة أخرى ـ عنه عليه السلام ـ: فيه «**نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم**»[٢]، وعن عبد الأعلى مولى آل سام قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره، كأنّه في كفّي، فيه خبر السماء، وخبر الأرض، وخبر ما كان، وخبر ما هو كائن**»[٣]، ثمّ استشهد عليه السلام لذلك بقوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ (النحل: ٨٩).

وما دام القرآن كذلك فإنّه المادّة الغنيّة الثريّة التي يمكن من خلالها التعرّف على المواقف السليمة تجاه قضايانا الفكرية، وما نلاحظه من حالات التخبّط في استجداء الحلول لأهمّ قضايانا الثقافية والفكرية والتربوية، ومختلف المسائل الدينية، من منظومات فكرية لا تعي أهمّية النصوص السماوية، ودور النبوّات في انفتاح العقول، ورُقيّ الإنسان والأمّة، فالنبوّات ـ وخطّها الرسالي ـ وحدها الكفيلة بتنقيب الحقائق الكونية ـ التي يعجز الإنسان بقدراته الإمكانية من بلوغها ـ وتجلية دفائن العقول والفطرة الإنسانية السويّة: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ (الروم: ٣٠)، وقد ورد في كلمة لأمير المؤمنين علي عليه السلام وصف موجز ودقيق لدور الأنبياء عليهم السلام، يقول فيها: «**فبعث فيهم**

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، جمع الشريف الرضي، تحقيق: الشيخ محمد عبده، نشر: دار المعرفة، بيروت: ج٢ ص٩١ خطبة ١٧١. (اللأواء): الشدّة.

(٢) المصدر نفسه: ج٤ ص٧٤ كلمة: (٣١٣).

(٣) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٢٢٩ ح٤.

رسله، وواتر إليهم أنبياءه؛ ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويـذكّروهم منـسيّ نعمتـه، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»(١)، واستئداء ميثـاق الفطـرة بمعنى أداء رسوم ذلك الميثاق الذي صُيّر في جبلّة الإنـسان، فالإنـسان مفطـور عليه، وهو ميثاق التوحيد والعبودية لله تعالى وحده، والمشار له في قولـه تعـالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُـسِهِمْ أَلَـسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَـلَى شَـهِدْنَا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّـا كُنَّـا عَـنْ هَـذَا غَافِلِـينَ﴾** (الأعراف: ١٧٢)(٢)، وفي الوفاء بالميثاق وتأدية رسومه عـلى وجههـا المطلـوب

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص٢٣ خطبة (١).

(٢) يقول السيد الأستاذ دام ظله: «فإنّ المراد من العلم السابق الذي غفل عنه العارف ثمّ التفت إليه هو المُشار إليه بقوله تعالى: **﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾** أي: معرفة التوحيـد، حيـث علِـم الخلـق بذلك وشهِدوا لله تعالى بالربوبية ولكنّهم بعد أن التفتوا إلى موجودات دائرة الفقر والـنقص غفلوا عمّا شهدوا به في أوّل ظهور لهم ... فهم شهدوا بذلك ولكنّهم نـسوه بعـد أن دخلـوا دائرة النقص والفقر المحض ـ أعني الحياة الدنيا ـ فغيّبت المادّة عنهم ذلك المعلوم لهم بالفطرة وبالعلم البسيط، ومن هنا يشرع الإنسان في رحلة العود إلى ذلك الوجود المطلق ليقف مـرّة أُخرى على ما شهد به على نفسه. ولا يخفى أنّ الغالب على الإنسان هو الانكفاء عـلى نفسه في هذه الحياة الدُّنيا، أعني: عدم حصول الالتفات والتذكّر، ولذا تُبيّن لنـا الآيـة المتقدّمـة أنّ بني آدم سوف يُعرض عليهم ما علموه أوّل ظهـورهم وقـد غفلـوا عنـه في العـالم الأدنـى، تقول الآية الكريمة: **﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَافِلِـينَ﴾**، وقـد بُـيّن لنـا هـذا المعنى في رواية عن ابن مسكان عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعـالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾**، قلت ـ أي ابن مسكان ـ: معاينةً كان هذا؟ قـال عليـه الـسلام: **نعم، فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه، ولولا ذلك** ـ أي: ولولا ذلك الإشهاد ـ **لم يدرِ أحدٌ مَن خالقه ورازقه**». (معرفة الله، للمرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلـم: الـدكتور طلال الحسن، نشر: دار فراقد، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤٢٨هـ: ج١ ص١٧٣).

تكمن هويّة الإنسان والكمال المطلوب تحصيله.

وأمّا دفائن العقول، فهي دفائن الفطرة الإنسانية الناطقة بلسان سرّها بالتوحيد والعبودية لله تعالى وحده، فهي مستجيبة بذاتها لولا ظلمة الجسد ومقتضياته، منفتحة على عالمها الأنفسي وعالمها الآفاقي، فهي منطوية على أسرار الكون والتكوين، وتطلب الخلاص من ظلمة الدنيا.

يقول الشيخ محمد عبده: «دفائن العقول: أنوار العرفان التي تكشف للإنسان أسرار الكائنات وترتفع به إلى الإيقان بصانع الموجودات، وقد يحجب هذه الأنوار غيوم من الأوهام، وحجب من الخيال، فيأتي النبيّون لإثارة تلك المعارف الكامنة، وإبراز تلك الأسرار الباطنة»[1]، وإنّما يتحقّق ذلك للإنسان الذي زكت نفسه، وطهرت فطرته من الذنوب ومخلّفاتها، فينال بذلك حظّه الأوفر، وكلّ واحد منّا يمكنه أن يكون ذلك الإنسان، الزكيّ القلب، السويّ الفطرة، رغم أنّه في مقتضى طبع الإنسان كان يمثّل القلّة؛ «**وما برح لله عزّت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة**»[2].

والخلاصة من ذلك: أنّنا أمام مسؤولية تاريخية تجاه معالجة قضايانا الفكرية والدينية من الناحيتين المعرفية والمعنوية، وذلك من خلال استنطاق القرآن الكريم، وما نقدّمه في هذه التجربة الموجزة يمثّل أنموذجاً لذلك.

السيد كمال الحيدري

رمضان المبارك / ١٤٣٩هجرية

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٢١١ رقم (٢٢٢).

هذا الكتاب

تنطلق هذه الأبحاث الفكرية من اعتقاد راسخ بشمولية القرآن الكـريم في تعاطيه مع القضايا الفكرية التي تحيط بالإنسان وترسم لـه مستقبله وتحـدّد مصيره، فقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩) يرسم لنا خطوطاً بعيدة وعميقة، بعيداً عـن التوجيهات الـصورية التـي تمـلي عـلى القـرآن اختناقاتهـا الفكريـة وتـصوّراتها الضيّقة، ولذلك انطلقت هذه المنظومة الفكرية التي ينهض بها الـسيد الأسـتاذ الحيدري دام ظله لبيان واقعية كون القـرآن: ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وذلـك مـن خلال منطقيّته القائمة على أصل قرآني وروائي، وهو (إسلام محوريـة القـرآن).

وحيث إنّ الإسلام هو الدين الخاتم، والدين القيّم، فلابدّ لـه أن يكـون مواكبـاً لقضايا الإنسان والمجتمع في مختلف المجـالات، وهـذه اللابدّيـة تنطلـق مـن الإمكانات القرآنية الهائلة على المستويين المعرفي والمعنوي، ولم تكـن هـذه مجـرّد دعوى، وإنّما لها إثباتاتها التاريخية التي انطلقت منذ البعثة النبويـة، مُـشكّلة كـمّاً كبيراً بحاجة إلى مراجعـات دقيقـة، واسـتقراء موضـوعي وتحقيقـي، وفي هـذا الكتاب، الذي هو باكورة دورة جديدة في الأبحاث الفكرية القرآنيـة التربويـة، يحاول فيها السيد الأستاذ دام ظله تقديم النماذج التطبيقية الأولى لتبيانية القـرآن لكلّ شيء، مع لحاظ كون هذه التبيانية هي تبيانية مفهومية بالدرجـة الأسـاس، مع الاعتماد على تطبيقات مصداقية يـسيرة لتحفيـز أهـل العلـم والمعرفـة عـلى ضرورة استنطاق القرآن الكريم، ولتحقيق الثمرة العملية للمتمسّكين بـالقرآن والمعتقدين بكونه كتاب علم ودين وحياة، وكتـاب بيـان وتوضـيح لمـا يحتاجـه الإنسان.

وقـد وقـع الاختيـار منـه دام ظلـه عـلى موضـوعات أساسـية سـتـشكّل أساسات متينة لبحوث أخرى يُفترض أنّها ستلي هذه الحلقة في حلقات أخرى متسلسلة، وهـذه الموضـوعات هـي (دور القـرآن في حيـاة الإنـسان)، وهـو التأسيس الأوّل، ثمّ الانطلاق إلى عرض بيانات (الوسطية في القرآن الكريم)، وهو من المواضيع المهمّة في حياتنا؛ لأنّه يعالج ما تعانيه الأمّة من اجتياح سافر للتطرّف لواقعها السياسي والـديني والاجتماعـي، وفي طـول هـذه الوسـطية القرآنية سيتمّ عرض بيانات خاصّة تتعلّق بالوسطية في التشيّع، والتـي تـرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوسطية القرآنية، فما لم تُحفظ الوسطية القرآنية كمنطلق ومقـوّم لجميع تطبيقات الوسطية فإنّه لا تصل النوبة للتعريف بالوسـطية في التـشيّع، فتكون الوسطية في التشيّع انعكاساً تطبيقياً للوسطية القرآنية.

ثمّ تأتي بعد ذلك بيانات في غاية الأهمّية والخطورة، وهي بيانـات (مراتـب الإيمان في القرآن) لدفع الـشبهات التاريخيـة التـي التـصقت بالنـصوص زوراً، وصُنِعت في ضوئها مبانٍ ومدارس فكرية، ومنحت لنفسها شرعيـة عـلى مـدى قرون طويلة، فصارت تمنح صكوك الإيمان والغفران لنفـسها، وتحجـب ذلـك كلّه عن خصوم فرضتهم سياسات السلطات الحاكمـة، لتُقابـل هـي الأخـرى بالتجريد الكامل عن الإسلام والإيمان، وكلّ ذلك إنّـما وقـع لغيـاب الوسـطية القرآنية التي تحفظ لكلّ مؤمن إيمانه ضمن مرتبته، فلا تجحف بحقّه ولا ترتقـي به فوق منزلته، ولذلك صارت الوسطية في القرآن ضابطاً عملياً للكـشف عـن مساحات التطرّف التي تعاني منها جلّ المنظومات الفكرية والفقهية الإسلامية.

وبعد اكتمال حلقات الوسطية ومراتبية الإيمان يستعرض الـسيد الأسـتاذ دام ظلـه بيانـات عملانيـة، وهـي بيانـات (نظـم علاقـات الإنـسان)، التـي ستشتمل على نظم علاقة الإنسان مع نفسه، ومع الله تعـالى، ومـع رسـول الله صلّى الله عليه وآله بصفته الأسوة والقدوة، ونظمها مـع أهـل البيـت علـيهم

السلام بصفتهم الأئمّة الورثة والقادة لخطّ الأنبياء، ونظمها مع أهل العلم والفضل والقيادة الدينية، ونظمها بين الآباء والأبناء، ومع سائر المؤمنين، وأخيراً نظم العلاقة مع الناس أجمعين.

وفي جميع هذه الصور النظمية للعلاقات سوف يكشف لنا أُستاذنا دام ظله عن حقيقة غابت عن كثير من الأنظار والأعمال، وهي أنّ جميع هذه العلاقات تبتني على تلك الأصول المذكورة آنفاً وهي: دور القرآن في حياة الإنسان، والوسطية في القرآن، ومراتبية الإيمان، بمعنى أنّ ضعف العلاقات في الغالب يكون منشؤه الجهل بدور القرآن في حياتنا، أو عدم تفعيل هذا الدور الريادي، والذي من تجلّياته الكبيرة: توخّي الوسطية في مجمل تلك العلاقات الصميمية التي لا يمكن لأيّ إنسان مؤمن التنصّل عنها أو عن جلّها، كما أنّها تتوافق تماماً مع الأنساق العامّة لمراتب الإيمان، وهذا ما سنجده منعكساً بوضوح في بيانات نظم العلاقات، لتتشكّل عندنا رؤية نظرية ورؤية عملية، أمّا النظرية فتكمن في ضرورة حضور معاني الوسطية في رسم علاقاتنا المختلفة، وأمّا العملية فتكمن في الكشف عن مساحات القوّة والضعف في تلك العلاقات من خلال قوّة أو ضعف انعكاس الوسطية القرآنية فيها، والتي لا تنفكّ هي الأخرى عن الأنساق العامّة لمراتب الإيمان، كما نبّهنا لذلك.

وبهذا تتأكّد فكرة الارتباط الوثيق بين أبحاث هذا الكتاب، وكأنّها فصول لموضوع واحد، وليست أبحاثاً متناثرة، وهذا الارتباط الوثيق يحكي لنا قوّة النظر الاجتهادي، وعمق الرؤية القرآنية التي كُتبت في ضوئها هذه الأبحاث الفكرية.

جدير بالذكر أنّنا في جميع هذه الأبحاث سنجد للقرآن الكريم حضوراً مكثّفاً ومميّزاً، وبالقدر الذي رُوعي فيه المستوى التنظيري فقد رُوعي فيه المستوى العملي أو التطبيقي، لاسيّما في البحوث التي تحمل طابعاً تعليمياً

وتربوياً، وكان الهدف من ذلك هو المزج بين المساحة التنظيرية والمساحة الميدانية، وهذا الأسلوب المميّز يُحاكي الأسلوب القرآني في عرض مطالبه ومقاصده، ولذلك فهي بحوث علمية مُستوحاة من القرآن الكريم في مضامينها وأسلوبها بنحوٍ انعكست فيه الشخصية العلمية القرآنية للسيد الأستاذ دام ظله، والموافق تماماً مع سياقاته العلمية والعملية التي تعتمد في أصولها وفروعها على قاعدة (إسلام محورية القرآن)[1].

---

(١) التركيز على التجذير والتأسيس القرآني للكثير من المطالب العلمية الدينية على مستوى العقيدة والفقه والأخلاق يعتبر من الركائز الأساسية في الشخصية العلمية للسيد الأستاذ دام ظله في مجموع ما صدر منه في دروسه وكتاباته ومحاضراته، فإذا كان للرواية حضور مُكثَّف في الصناعة الفقهية دون القرآن الكريم فإنّنا نجد بوضوح كثافة النصّ القرآني عنده في صناعة الفتوى العقدية، فلم يكتفِ بالفتوى فيها أو تسجيل الموقف النهائي، وهذه الرؤية القرآنية تكاد أن تكون هي الحاكمة في جميع نتاجاته العلمية، وهو ما يُطلق عليه السيد الأُستاذ دام ظله بالتطعيم بالدليل القرآني، حيث يقول في هذا المجال: «والذي نعتقد ههنا على مستوى البحث العقائدي أنّ عملية التطعيم هذه ضرورية، خاصّة وأنّ القرآن الكريم قد تعرّض لكلّ المسائل الاعتقادية، ولم يكن تعرّضه بنحو الفتوى والتعبّد وإنّما بنحو الاستدلال، ففي مسألة الاعتقاد بوحدانية الله تعالى لم يطلب القرآن منّا الاعتقاد بذلك على نحو الأمر والإملاء وإنّما عرض مسألة الوحدانية ثمّ استدلّ عليها حيث قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، وفي مكان آخر قرّب لنا هذه الحقيقة ـ حقيقة التوحيد ـ بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ (الزمر: ٢٩)، فالقرآن الكريم عرض الحقيقة واستدلّ عليها ثمّ قرّبها وبيّنها بنحو آخر، وهو المثال، من أجل أن يُدرِك الإنسان تلك الحقيقة ويعقلها: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، فطريقة بيان المسائل الاعتقادية بنحو مُستدلّ إنّما هي طريقة قرآنية

وجدير بالذكر أيضاً أنّ هذه المراجعات الفكرية القرآنية التي يقدّمها السيّد الأستاذ دام ظله تمثّل إضاءات تفصيلية لما أجمله في مشروعه الإصلاحي، وتجلّيات له، من إعادة القراءة للنصوص الدينية، وتحييد القراءات النصّية وعدم السماح بتحوّلها إلى متون نصّية كمتنيّة ونصّية القرآن والسنّة الشريفة الصحيحة، والتعاطي مع القرآن الكريم من منطلق المحورية المحرّكة لجميع قضايانا الفكرية والاجتماعية والتربوية والمعنوية، فكان المنطلق الأوّل من خلال بيان رسوم (منطق فهم القرآن)(١)، وكان المنطلق الثاني من خلال بيان دراساته في مشروعه الإصلاحي (إسلام محورية القرآن)(٢)، وكان المنطلق الثالث في عرض الأخلاق الواقعية والتعليمية، والتي تشتمل على سبع حلقات(٣)، وهذا هو المنطلق الرابع الجامع للدراسات الفكرية القرآنية التربوية، والتي يُراد لها أن تواكب مشروعه التفسيري الكبير، وجميع هذه

وينبغي للمتخصّص الاقتداء بها، فإذا ما أراد أن يكتب في مجال العقائد فإنّه ينبغي أن يكون ذلك مطعّماً بالنصوص القرآنية والروائية». (التفقّه في الدين، حوار مع سماحة المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: دار فراقد، قم المقدّسة، الطبعة الثانية: ص٩٥).

(١) دورة مطبوعة في ثلاثة أجزاء.

(٢) طُبع منها ثلاثة كتب، وهي: (الموروث الروائي بين النشأة والتصحيح)، و(ميزان تصحيح الموروث الروائي)، و(مفاصل إصلاح الفكر الشيعي)، فضلاً عن مُلخَّص المشروع الإصلاحي (إسلام القرآن وإسلام الحديث)، الذي ظهرت طبعته الأولى عام (١٤٣٤هـ).

(٣) وهي: الحلقة الأولى (أخلاقنا). الحلقة الثانية (إصلاح النفس). الحلقة الثالثة (الصدق.. رؤى في مفهومه ومجالاته ومعطياته). الحلقة الرابعة (روحانية العبادات). الحلقة الخامسة (أخلاقيات الحجّ والزيارة). الحلقة السادسة (أخلاقيات الشعائر الحسينية). الحلقة السابعة (أخلاقيات الرحلة إلى الله). وقد صدرت منها أربع حلقات.

المنطلقات الأربعة متوافقة ومنسجمة في مطالبها ومقاصدها وأهدافها؛ لأنّها بكلمة موجزة: قد وقفت على أرضية واحدة، تتّصف بالصلابة والقوّة والمنعة والثراء والإمداد الذي لا ينتهي، وهي أرضية (إسلام محورية القرآن).

وجدير بالذكر أيضاً أنّ خلفية انتخاب عنوان هذه الحلقة (الوسطية في القرآن) إنّما جاء لأنّه يمثّل الهدف الحقيقي من وراء هذه الحلقة، فيكون الموضوع الأوّل أشبه بالمقدّمات العلمية له، والموضوعان الثالث الرابع يمثّلان التطبيقات النظرية لموضوعة الوسطية في القرآن، كما أنّ الموضوع الأخير (نظم علاقات الإنسان) يمثّل التطبيق العملي المباشر لتلك الوسطية.

تنبيه

إنّ جميع ما سيطرحه السيد الأستاذ دام ظله لا ينطلق من رؤية فقهية، وإنّما من رؤية فكرية قرآنية، ولتقريب الفكرة أنّ ما سيبحثه في موضوعة مراتبيّة الإيمان لا يمثّل الرؤية الفقهية الفتوائية، فكلّ من آمن بالله تعالى إلهاً واحداً لا شريك له، فهو مؤمن وفق الرؤية القرآنية، بقطع النظر عن النظر الفقهي في ذلك، الذي قد يتّفق وقد يختلف، وهكذا في جميع المراتب الإيمانية الأخرى، فأهل الكتاب مؤمنون بنصّ القرآن الكريم، وما يُطلقه الفقهاء عليهم من تسميات أخرى فذلك راجع إلى رؤيتهم الفقهية، وما وقع من خلاف حادٍّ في طهارتهم ونجاستهم إنّما هو بحسب الرؤية الفقهية الفتوائية وليس بحسب الرؤية القرآنية، فلا يُقال بعد ذلك أنّ هذه الرؤية التي يستعرضها السيد الأستاذ مخالفة للمشهور أو المُجمع عليه، فإنّ ما عليه المشهور أو ما هو قريب من ذلك إنّما تشكّل في حدود الرؤية الفقهية، وليس في حدود الرؤية القرآنية.

ولو أردنا أن نُوجد مقايسة بين النتاج القرآني الصريح في نصوصه، والذي لا يقبل تحويراً ولا تأويلاً، وبين النتاج الفقهي المتخندق، فإنّنا سوف ننتهي إلى

نتائج خطيرة لا مجال لذكرها فضلاً عن حصرها، ولكنّ المتتبّع لأبحاث السيد الأستاذ دام ظله في بحوثه القرآنية والفكرية، لاسيّما في مشروعه الإصلاحي (إسلام محورية القرآن) سيجد الإجابات الإجمالية حاضرة وواضحة، والتي في ضوئها يسعى السيد الأستاذ دام ظله إلى تشكيل رؤيته الدينية والمرجعية.

الدكتور طلال الحسن

شوال / ١٤٣٧هـ

دور القرآن في حياة الإنسان

- مدخل
- مسؤولية إيصال الرسالة القرآنية
- حاجة الإنسان إلى الإمداد الغيبي
- شخصية المتكلّم في النصّ القرآني
- الموسوعية المعرفية والمعنوية للقرآن الكريم
- دور القرآن في بناء المحتوى الداخلي للإنسان
- القرآن وثنائية البناء الفردي والبناء الاجتماعي
- القرآن نموذج المثل الأعلى في البعدين المعرفي والمعنوي
- الطمأنينة والقرآن
- واقعية الابتلاء بين الخير والشر
- نورانية القرآن وجاهلية الإنسان
- كمال النصيب الدنيوي
- سرّ كون الدنيا لعباً ولهواً وزينة

مدخل

لم ينفتل الإنسان عن تحصيل كماله المطلوب، فهو في دأب على ذلـك، ومـا يقع منه من تخلّف في المسيرة الكمالية غالباً ما يكون ناشئاً من وقـوع الخطـأ في تشخيص المصداق، فلا أحد منّا يريـد أن يكـون سـيّئاً أو متخلّفـاً عـن كمالـه المطلوب، وإنّما هي الحياة المتشعّبة والمليئة بالمفارقات، تجعل الإنسان في الكثير من الأحايين في تيهٍ وضياعٍ، فتغيـب عنـه الحكمـة عنـدما تحـاصره العاطفـة، وتغيب عنه الحكمة والعاطفة عندما تحاصره العصبية والغيبوبة عن المعطيـات الإلهية والحاجات الإنسانية، ولذلك لابدّ من منقذٍ وموجّهٍ نركن إليه ونتـزوّد منه، وبالرغم من أنّ العقل يمكن له أن يقوم بهذا الدور ولكنّـه سـوف يبقـى عاجزاً تماماً عندما تتحكّم بالإنسان عواطف وخلفيّات جاهلية كثيراً مـا يجـد لها مبرّرات توفّر له قناعات شخصية، ولذلك لابدّ من شيء آخر لا يتقاطع في معطياته وتوجّهاته مع العقل والحكمة والعاطفة الصادقة، أو قـل: لابـدّ مـن شيء يحصّن الإنسان من ذلك الانفلات الذي تجرفه إليه العاطفة والقبليّـات، بل والتبريرات العقلية الفارغة، ونحن بحسب متابعتنا واستقرائنا لم نجد شيئاً متقدّماً على القرآن الكريم، فقد نـزل القـرآن ليكـون للإنـسان معلّـماً وقائـداً وموجّهاً ومحصّناً من التيه المحتمل، ومن الانفلات المتوقّع في كلّ حين، ومـن الزيغ المتربّص بنا، ومن جميع موارد الانحطاط والتسفّل، الفكري والسلوكي.

إنّه القرآن الكريم، فهو الهادي والمرشد، الذي يهب طلّاب الحـقّ والحقيقـة كلّ ما يقتضيه الحقّ والحقيقة، فهو ـ كما عرّف نفسه بنفسه ـ: ﴿**... يَهْـدِي لِلَّـتِي هِيَ أَقْـوَمُ وَيُبَـشِّرُ الْمُـؤْمِنِينَ الَّذِيـنَ يَعْمَلُـونَ الـصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُـمْ أَجْـراً كَبِـيراً**﴾ (الإسراء: ٩)، ولذلك علينا أن نتعاطى معه من هذا المنطلق المعـرفي والمعنـوي؛ من منطلق الحاجة الأساسية التي لا ننفكّ عنهـا. إنّهـا حاجـة العلـم والمعرفـة،

وحاجة الارتقاء في سلّم الكمالات، وحاجة التحصين من الغيبوبة والتيه، والحاجة للسموّ والرفعة بحسب الطبع الإنساني، إنّها حاجة كلّ إنسان سويّ، وحيث إنّ تلك الحاجات منها ما هو حسّي ومنها ما هو غيبيّ فلابدّ أن يكون القرآن مستجيباً لنا في تحقيق ذلك، بل لابدّ أن يكون هادياً لنا بنحوٍ لا يمكن مقارنة عطائه بشيء آخر، لأنّه بعبارة قرآنية موجزة: ﴿**وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**﴾ (الإسراء: ١٠٥)، ولأنّه كتاب الحقّ سبحانه، ولا شيء غير الحقّ؛ ﴿**فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾ (يونس: ٣٢).

مسؤولية إيصال الرسالة القرآنية

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً**﴾ (الأحزاب: ٣٩)، وتبليغ الرسالة القرآنية هي مسؤولية حملة القرآن، ولكي يتحقّق الهدف المطلوب فلابدّ لنا من مراعاة شروط وضوابط إيصال الرسالة، وفيما يلي نشير إلى الأهمّ منها، وهي:

الشرط الأوّل: ملاحظة التوقيت المناسب، فإنّ لاختيار الوقت المناسب مدخلية كبيرة في قبول الآخر، فلا نتكلّم مع مخاطبينا في وقت غير مستعدّين فيه للسماع، والإنسان غير المستعدّ لذلك سيكون التأثير عليه ضرباً من السراب، ومع التوقيت غير المناسب نكون قد وضعنا حاجزاً نفسيّاً بين المادّة الرسالية وبين المخاطبين بها، ولذلك على الرسالي أن يكون حاذقاً في تحديد الوقت المناسب، ولو راجعنا أسباب ضعف الخطاب الديني سنجد للتوقيت أثراً كبيراً في ذلك.

الشرط الثاني: أن لا يكون المخاطب منفصلاً في فكره وتوجّهه عن المتكلّم، أي: أن لا يكون في منأى عنه، كما لو كان اهتمامه في مجال يمنعه من التوجّه

لغيره، ولذلك لابدّ من التدرّج معه، بمعنى الابتداء معه بأمور يمكن من خلالها جذب اهتمامه، ثمّ التأثير عليه، فإذا لمسنا الاستجابة منه تابعناه فيما نقوله، وإلّا لزم أن نكفّ عنه والانتقال إلى مادّة تستقطبه، ولا نعني بذلك: الهبوط بالمستوى الرسالي في مادّته وأسلوبه، وإنّما المراد: هو التحوّل إلى موضوع آخر لا يقلّ أهمّية عن الأوّل، ولكنّه يُتوقّع فيه تحصيل الاستقطاب والجذب، كما لو خاطبتهم بمسألة عقلية تحتاج إلى تفكّر وتأمّل، ولم يكن المخاطبون مستعدّين لذلك، فإنّ التواصل معهم سوف يجعلهم ينفرون ويعدّون الدقائق والثواني للانفلات ممّا تقول، وهنا لابدّ من التحوّل إلى مسألة أخرى تثير انتباههم، كما لو جئت بحادثة تاريخية من سيرة النبي صلّى الله عليه وآله أو من سيرة الصالحين ولكن فيها مغزى يعود بك لأصل الموضوع، فعندئذٍ سيتحقّق الهدف.

الشرط الثالث: عدم التعاطي مع المخاطب بمنطق الفوقية، أي: عدم إشعار المخاطب بأنّه أقلّ منك، حتى إن كان مذنباً. فالتعامل معه لابدّ أن يكون منطلقاً من الرحمة به، والتواضع له. إنّ إشعار المخاطب بالفوقية عليه سوف يفقده التواصل مع المتكلّم معه، كما أنّ إشعاره بالفوقية سيجعله متنفّراً وغير معنيّ بالكلام، فإنّ التكلّم بمنطق الدونية سوف يفقد شروط توصيل الرسالة أيضاً، ونعني به شعور المتكلّم بالدونية، فهو أمر منفّر أيضاً، حيث سوف يشعر المخاطب الذكي بعدم أهلية المتكلّم، وبذلك تكون الفوقية والدونية مرفوضتين، وإنّما المقبول في إيصال الرسالة القرآنية هو الشعور بالتساوي، ولِمَ الفوقية وكلّنا من آدم، وآدم من تراب؟ ولذلك يطالعنا رسول الله صلّى الله عليه وآله في خطبة الوداع بكلمة رصينة رقيقة مؤثّرة، يقول فيها: «**أيّها الناس، إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كُلّكم لآدم وآدم من تراب، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** (الحجرات: ١٣)، **وليس لعربيّ على عجميّ فضل إلّا بالتقوى. ألا**

هل بلّغت؟ قالوا: نعم. قال: **فليبلّغ الشاهد الغائب**»[١]، والقاعدة القرآنية لا تلغي التفاضل وإنّما تقنّنه بعنصر متاح للجميع، وهو التقوى.

الشرط الرابع: التركيز على لغة الترغيب أكثر من التركيز على لغة الترهيب؛ لأنّ الإنسان بطبعه يميل إلى ما يُطمئنه لا إلى ما يجعله مضطرباً، ومن الطبيعي أن يكون الترغيب جاذباً، ويكون الترغيب طارداً، فإذا ما سلكنا طريق الترهيب فلابدّ أن يكون بحدود ضيّقة، ولا يكون هو محور البحث الرسالي.

الشرط الخامس: إشراك المخاطبين في المادّة الرسالية، بمعنى أن تخاطبهم بما يفهمون، لا أن تتحدّث بأمور يعسر فهمها وهضمها، فذلك نوع من الإحراج لهم، بل نوع من الاستخفاف بهم، فضلاً عن كونه موجباً لتضييع وقتهم.

حاجة الإنسان إلى الإمداد الغيبي

بالرغم من كون الإنسان يرسم تحرّكاته في ضوء الوجود المادّي الذي يحاصره منذ ظهوره في هذا العالم وإلى ساعة فراقه، إلّا أنّه كثيراً ما يتطلّع إلى العوالم غير المرئيّة، ليس بداعي الفضول وحسب، وإنّما بداعي الحاجة الصميمية المنبثقة من أعماقه، فالإنسان ليس جسداً وحسب، وإنّما هو بالدرجة الأساس روح وقلب وعقل، وهذه الأمور تجعله منفتحاً على عالم المجرّدات، أو العوالم غير المادّية، ابتداء من الصور الذهنية، وانتهاء بالوجودات العينية الخارجية المجرّدة، أو غير المرئية، فهو ليس لاعباً أو لاهياً في هذا التوجّه غير المادّي، وإنّما هو يمارس دوره كإنسان واقعيّ يتعاطى مع مكوّناته ومعطياتها

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول، للشيخ الثقة أبي محمد الحسن بن علي بن شعبة الحرَّاني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرّسين، قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ: ص٣٤؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار إحياء الكتب العربية، سوريا: ج١ ص١٢٨.

ومتعلّقاتها، والتي لا يمكنه التنصّل عنها، فهي الجزء الأوفر في هويّته وحقيقته، هذا أوّلاً.

وأمّا ثانياً: فإنّ الإنسان بطبعه شديد الحاجة إلى العون المستمرّ، إمّا لتفجير طاقاته، وإمّا لحلحلة مشكلاته، وإمّا لتحقيق أمنه وأمانه وطمأنينته، وإمّا لخوفه العميق من الغد الذي لم يأتِ بعد، فالإنسان بطبعه يعيش أزمة المجهول في الغد، كما أنّه يعيش أزمة الانفلات من يومه، وأزمة الانجراف إلى الماضي، فهو مثقل بأزمات الماضي والحاضر والمستقبل.

وهنا تكمن الحاجة إلى جهةٍ تلبّي له متطلباته، وحيث إنّه كثيراً ما يجد العون المتوقّع غير متحقّق ـ إمّا لارتفاع سقف توقّعاته، وإمّا لعجز الآخر عن تلبية حاجاته ـ هنا غالباً ما تقفز أمامه صور الاستمداد من الغيب، فيستجيب لها، ليس لممارسة ضربٍ من الهروب من الواقع، وإنّما لأنّه يتعاطى مع واقعه كإنسان مكوّن من جسد مادّي وروح مجرّدة، فيدرك في عمقه أنّ الغيب حقيقة واقعية تستجيب له وفق رسومها الروحية، فيكون الإنسان روحانياً، بمعنى الإصغاء إلى الثقافة الروحية والمعنوية، ليحقّق هدفه، وهو الاستمداد من الغيب في تلبية حاجاته المختلفة، ومن هنا يخطئ الإنسان كثيراً ـ نتيجة الجهل أو التسامح أو التغافل ـ في توجيه أو ربط حاجته المادّية بالسقف المعنوي، مع أنّ الحياة المادّية قد رُسمت وفقاً لمقتضيات السببية، فالمريض لابدّ له من مراجعة الطبيب الحاذق وشرب الدواء، والجائع لابدّ له من طعام يأكله، والمتعب المرهق لابدّ له من راحة، فليس من المنطق أن يتوجّه الجائع للسطح المعنوي المجرّد ويطلب طعامه وشرابه وثيابه، فذلك ـ كما عرفت ـ ضرب من الجهل أو التسامح أو التغافل قد يبلغ أحياناً مراحل خطيرة من الانحدار في التفكير والسلوك. فكثير من الناس لا زالوا صرعى لأحلام اليقظة، بعدما فشلوا في مواكبة الحياة، فتنتابهم موجات من اليأس والقنوط، وفي محاولة

تعويض فاشلة يلجأون إلى بحبوحة الأحلام التي سرعان ما تسقط عروشها بانتباهة يسيرة.

إذن، الحاجات الروحية والمعنوية لها سقف ينبغي التوجّه له والارتباط به، وهنا تكمن الحاجة الواقعية للاستمداد من الغيب، فالغيب ليس هروباً من الواقع، وإنّما هو الانطلاق من واقعية الإنسان المكوّن من جزئيه، المادّي والمجرّد، فلابدّ من منطقية في الارتباط والاستمداد، وبذلك يكون الاستمداد من الغيب طلباً واقعياً ولابدّ له من التوجّه إليه، وإلّا فالإنسان ليس حيواناً بوهيمياً[1]، مادّي الحركة والسلوك، دنيويّ الآمال والرغبات، صريع الغرائز والشهوات، كما صوّره بشكل خاطئ كلّ من تشارلز داروِن، وسيجموند فرويد وغيرهما من أصحاب الاتجاه المادّي.

إنّ الوظيفة الكبرى للإنسان في هذا العالم المترامي الأطراف هي التعرّف على خصائص العالم وتفصيلاته بالقدر الممكن، ولا ريب أنّ من جملة خصائص هذا العالم: سعته الوجودية، فهو غير مقتصر على الوجود غير المادّي، الذي نعيش شطراً منه في متطلّباتنا الروحية والمعنوية. ومن الناحية الحسّية والوجدانية لا نستطيع إنكار ما نعيشه بصورة واقعية مع الرؤى والأحلام، لاسيّما الصادقة منها، التي لا يخلو منها إنسان وإن كان كافراً، كما في رؤيا

---

(١) البُوهِيمِي (bohemian) اصطلاح يُوصف به الإنسان المتحلّل من القيم الاجتماعية والأخلاقية، وقد كان يُطلق على الغجر المهاجرين من بلدٍ لآخر، ثمّ استعمل الاصطلاح فيمن يتّخذ في حياته سلوكاً غير مألوف، يخالف فيه الطبائع الاجتماعية، سواء في المأكل أو الملبس أو الكلام، فتكون حياته شبيهة بحياة الغجر، وقد عُرف في الأدب والفنّ في أوربا عموماً وفرنسا خصوصاً هذا النمط من الحياة، وصار شعاراً لكلّ من لا يمتثل في سلوكه وأعماله إلى الأعراف الاجتماعية والأخلاقية المألوفة، فيكون متسكّعاً غير مُبالٍ بالوضع الاجتماعي والمعيشي، وغير مهتمّ بمصيره ومستقبله.

فرعون: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣)، تلك الرؤيا التي غيّرت مجرى التاريخ آنذاك، فضلاً عن رؤى الأنبياء والصالحين، حيث اقترنت الرؤيا الصادقة بسيرة الأنبياء العظام عليهم السلام، ابتداءً بشيخ الأنبياء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافّات: ١٠٢)، ومروراً بحفيده يوسف الصدّيق عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ...﴾ (يوسف: ٤ ـ ٥)، وانتهاءً برسول الله صلّى الله عليه وآله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠).

والرؤيا الصادقة تمثّل إمداداً غيبيّاً واضحاً، ولولا ذلك لما كان مبرّراً تأويلها والتأثّر بها والبناء عليها في موارد عدّة، كما في قصّة إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ويوسف عليهم السلام، ومن ثمّ نحن لا نستطيع إنكار ذلك السقف الغيبي الذي نستمدّ منه ما تفرضه علينا واقعيتنا المكوّنة من الوجود المادّي والوجود المجرّد.

ثمّ إنّ الحاجة إلى الإمداد الغيبي حيث إنّها غير منقطعة، لابدّ لها من مستجيب غير منقطع، ونحن لا نجد أفضل من القرآن الكريم، فهو ـ كما تقدّم ـ الهادي للتي هي أقوم، الذي يهب طلّاب الحقّ والحقيقة كلّ ما يقتضيه الحقّ والحقيقة، وهو كما عبّر أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان في عمى،**

واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى»[١]، وهذا يحكي إطلاقيّته العلمية والمعنوية، فهو التجلّي الأعظم لعلم الله الإطلاقي، بل التجلّي الأعظم لأسمائه وصفاته، وقد ورد في ذلك عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام أنّه قال: «**لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون**»[٢]، وهذا التجلّي إطلاقيّ كماليّ جماليّ جلاليّ لله سبحانه، فيكون النصّ المقروء ـ ظاهراً وباطناً، تفسيراً وتأويلاً ـ مجلى لتلك الكمالات المطلقة، وكلّ قارئ للنصّ يأخذ بقدره لا بقدر الكمال المُفاض.

شخصية المتكلّم في النصّ القرآني

إنّ شخصية المتكلِّم في القرآن الكريم هو الله سبحانه، فهو صاحب النصّ القرآني، سواء كان متكلّماً في نصّه بشكل مباشر، أو كان يحكي في كلامه كلمات الآخرين، وحيث إنّ للمتكلّم تأثيراً مباشراً على شكل النصّ ومضمونه ـ أي: إنّ صفاته وكمالاته العلمية والمعنوية تنعكس بالضرورة على النصّ المنسوب له، فإنّ صفات الله تعالى ومزاياه المنحصرة به هي الأخرى

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص٩١ خطبة: ١٧١.

(٢) عوالي اللآلئ، لابن أبي جمهور الأحسائي، تحقيق: البحّاثة الشيخ مجتبى العراقي، الناشر: مطبعة سيد الشهداء، قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٣هـ: ج٤ ص١١٦ ح١٨١؛ ينابيع المودّة لذوي القربى، للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، تحقيق: السيد علي جمال أشرف الحسيني، الناشر: دار الأُسوة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٦هـ: ج٣ ص٢١٦؛ مفتاح الفلاح، للشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين العاملي (الشيخ البهائي)، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، لبنان: ص٢٩٢؛ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت: ٧٩٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ: ج١ ص٤٥٢.

تكون قد انعكست أو تجلّت في القرآن، ولعلَّ من أهمّها وأجلاها صفة إطلاقيّته في الوجود والعلم، ولا ريب أنّ لهذه الإطلاقية الوجودية والعلمية انعكاساتٍ عظيمةً على النصّ القرآني، ومن ثمّ ستكون لها انعكاسات على كلّ من يقرأ ذلك النصّ قاصداً فهمه، كما أنّه سيفترض لقراءته وفهمه أدوات خاصّة، ينبغي أن ترتقي لمستواه العلمي والمعنوي؛ فإنّ الإطلاقية في الوجود والعلم لله تعالى، أو لصاحب النصّ القرآني، تجعل من النصّ مادّة منفتحة على طبيعة المتكلِّم وكمالاته، أو قل: تجعل منه مادّةً متأثّرة بتلك الحقيقة الإطلاقية؛ للعلاقة الوثيقة بين المتكلّم ونصّه.

وعليه فإنَّ لهذا الانعكاس الإطلاقي (الوجودي والعلمي والمعنوي) معطيات عظيمة سوف تتجلَّى في شكل النصّ ومضامينه العلمية والمعنوية؛ لأنّ النصّ المقروء ـ وبشكل واضح ـ هو تعبير آخر عن شخصية المتكلِّم، وبالتالي فإنّ قراءة وفهم النصّ المقروء هي الأخرى ـ بشكل وآخر ـ قراءةٌ وفهم لشخصية المتكلِّم من خلال نصِّه، فإذا ما ثبت أنّ شخصية المتكلِّم إطلاقية في الوجود والعلم والكمال، وأنَّ هذه الحقيقة الإطلاقية منعكسة في النصّ المنتهي إليه[1]، فإنَّ هذا الأمر الخطير سوف يضعنا أمام حقيقة تفرضها

(١) يرى السيد الأستاذ الحيدري دام ظله أنّ القرآن الكريم بسوره وآياته وكلماته عبارة عن نصّ واحد، فهو بقوّة الجملة الواحدة، وقد اعتمد على هذه الحقيقة كأصل معرفيّ في بحوثه القرآنية والتفسيرية المنعكسة في جميع مجالاته الفكرية.
يقول دام ظله: «فلو لم يكن النصّ القرآني واحداً لتعسَّر كلّياً الوصول إلى أيّ موقف قرآني، كبيراً كان أم صغيراً، وعظيماً كان أم ضئيلاً، وبذلك يثبت لدينا بأنّ وحدة النصّ هي الأرضية الخصبة والوحيدة لتحصيل الموقف الواحد». (منطق فهم القرآن...الأُسس المنهجية للتفسير والتأويل في ضوء آية الكرسي، من أبحاث المرجع الديني السيد كمال

الإطلاقية العلمية والكمالية لله تعالى ولنصّه القرآني المقروء، ولعلّ أولى مظاهر هذه الحقيقة هي: أنَّ غاية ما نصل إليه من فهمٍ، لا يعدو عن كونه مرتبة من مراتب الفهم في ذلك السلّم الطولي المراتب، الذي قد تُلحظ له نقطة انطلاق ما، ولكنّها لا تنتهي عند حدّ؛ تبعاً لمقتضيات الحقيقة الإطلاقية، التي مهما بلغ السائر ـ معرفياً ومعنوياً ـ في عوالمها الأسمائية، ونهل منها ما نهل، فإنّه لا يتجاوز حدّ نفسه المقيّدة بذلك الإطلاق الذاتي للذّات الإلهية المقدّسة، وبالتالي فإنّ طبيعة العلاقة بين الحقيقة الإطلاقية العلمية والكمالية لشخصية المتكلّم، وكونها منعكسة في نصِّه المقروء، سوف تفرض علينا واقعية مراتبية فهم القرآن، وليس لأحد أن يدّعي امتلاك ناصية القراءة التامّة للنصّ القرآني، إلّا إذا ادّعى لنفسه الإطلاقية في العلم والكمال، وهذا ما لا يقول به عاقل؛ نظراً لاستحالة إحاطة المقيَّد وجوداً وعلماً وكمالاً بالمطلق وجوداً وعلماً وكمالاً، والاستحالة عقلية لا مخرج منها، فكلّ موجود إمكانيّ هو مقيّد ومأسور بذلك الإطلاق الذي لا مفرّ من مكنونه الإطلاقي وفيضه[1]، فهو المحيط بكلّ شيء،

الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: دار فراقد، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤٣٣هـ: ج١ ص٤٤٠).

(١) قد يُقال بأنّ الذات الإلهية المقدّسة، المطلقة في الوجود والكمال، هي الأخرى مقيّدة بإطلاقها، فالصفة الإطلاقية صفة تقييدية، فيعود المطلق مقيّداً، ولكنّ هذا مجرّد توهّم بين القيد الحقيقي، كما هو الحال في الوجود المقيّد بالمطلق، وهو كلّ موجود ممكن، وبين القيد الصوري الذي يفرضه ضيق الخناق في التعبير، كما هو الحال في توصيف الذات المقدّسة بالقيد الإطلاقي، فهو ليس قيداً حقيقياً ليقال في حقّه بعودة المطلق مقيّداً، ثمّ إنّ واقعية الصفة الإطلاقية هي بنفسها تنفي جميع أصناف التقييد، وإلّا لا يبقى معنى للإطلاق، وهذه الإطلاقية في الوجود والكمال هي المُعبّر عنها قرآنياً بالإحاطية؛ قال

وهو المنظور في كلّ شيء؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥).

نعم، سوف تكون قراءة المقيّد مرتبة من مراتب ذلك المطلق، وعيّنة من عيّناته، أو قل: إنَّ الفهم الصحيح للقارئ ليس إلّا قبساً ومرتبة من تلك الحقيقة الإطلاقية التي تمثّل حقيقة واحدة جامعة بسيطة مجرّدة، تحكي التجلّي الأعظم لله تعالى، ومنه يتّضح لنا أفق جديد في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥)، وسوف يصبح من الضروري بمكان واقع حالنا المحدود متطلّباً للزيادة والتحصيل، وهو المشار له في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه: ١١٤)، ومع البحث والسعي والتحصيل يكون الارتقاء المراتبي، العلمي والمعنوي معاً، هو واقع حالٍ، كما يسجّله لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦).

الموسوعية المعرفية والمعنوية للقرآن الكريم

مرّ أنّه ليس لأحد قبل القرآن من غنى، ولا من بعده من فاقه، ولذلك فهو غضّ لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضة، وقد سُئل الإمامُ الصادق عليه السلام عن ذلك، فأجاب: «**لأنَّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد، وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة**»[1]، وهنا يُمكن الانتباه إلى نكتتين، هما:

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ (النساء: ١٢٦). (منه دام ظله).

(١) الخبر مرويّ عن الإمام جعفر الصادق وعن الإمام علي الرضا وعن الإمام علي الهادي عليهم السلام. انظر: عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق أبي جعفر

النكتة الأولى: «إنّ القرآن من عظيم فضله وتقدّمه على سائر كلام الخلـق: أنّه لم يقصد مُخاطباً بعينه، وإنّما كان مُخاطبه كلّ حيٍّ عاقل في كلّ زمان ومكان، وهذا ما يؤكّد تجدّده وتعدّد معانيه بنحو من الطولية بحيث لا يلزم منها وقوع التنافي بين معنى سابق وآخر لاحق»[1].

النكتة الثانية: «إنَّ الخطاب القرآني قد لاحظ أعلى مستويات الكمال التـي يُمكن أن يصل إليها الإنسان، وإنّه في كلّ ذلك سوف يبقى غـضّاً، ممـا يعنـي بالضرورة وقوع التجدّد في معانيه، فنحن المتأخّرون قـد اطّلعنـا عـلى تفاسـير المُتقدّمين وهي تحكي لنا معانيه الظاهرة لهم آنذاك، ولكن غـضاضة مـا قـالوه تآكلت فعاد التكرار سَمـتها وسِمـَتها، فلم يبقَ من جديد ومن غضاضة غـير أصل الكلام المُنبئ بخفاء معانيه، وفي ذلـك إشـارة خفيّـة لطيفـة إلى ضرورة التجدّد في المعطيات التفسيرية، بل لابدّ من إيجاد منظومة جديـدة في التفـسير تُؤكّد لنا أنّ القرآن هو في كلّ زمان جديد، أي في كلّ زمان لـه معـانٍ جديـدة تنبثق عن الأصل، وتلتقي مع الفروع في جذرها المُتأصّل في عالم القرآن الأوّل المسمّى بعالم الخزائن»[2]، ولذلك فهو جديد في تلاوته والاستماع إليـه، بـل في فهمه أيضاً، حيث لا يمكن الإحاطة به، فهو موسـوعيّ في علمـه ومعلوماتـه

محمد بن علي بن الحسين بـن بابويـه القمّـي، تحقيـق: حـسين الأعلمـي، نـشر: مؤسـسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعـة الأُولى، ١٤١٤هــ: ج١ ص٩٣ ح٣٢؛ الأمـالي، لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، تحقيـق: قـسم الدراسـات الإسـلامية، مؤسـسة البعثة، نشر: دار الثقافة، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى: ص٥٨٠ ح٨؛ تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: مـصطفى عبـد القـادر عطـا، نـشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ: ج٦ ص١١٥.

(١) منطق فهم القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٧.

(٢) المصدر نفسه.

ومعنوياته، حتى قيل فيه بأنّه يأتي يوم القيامة بكراً[١]، بمعنى عدم إمكان الإحاطة به، لا أنّه لم يُفهم منه شيء، فإطلاقيّته المعرفية والمعنوية تجعله جديداً وبكراً، بمعنى عدم الإحاطة به.

ويمكن القول بأنّ العالم الآفاقي يُمثّل الوجودَ التفصيلي، أو قل: كلمة الله المفصّلة، والعالمَ الأنفسي يمثّل الوجودَ الإجمالي، أو قل: كلمة الله المجملة، وأمّا القرآن الكريم فهو صورة ما في هذين العالمين إجمالاً وتفصيلاً، نظرياً وتطبيقياً[٢].

وبعبارة القنوي: «القرآن: صورة حكم العلم المحيط بالأشياء على اختلاف طبقات الموجودات ولوازمها من الأحوال والأفعال والنسب والإضافات في كلّ عالم، فافهم»[٣]، وهذا هو معنى كون القرآن الكريم التجلّي الأعظم لعلم الله سبحانه، والذي ينسجم تماماً مع تبيانية القرآن لكلّ شيء، كما هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩).

وعليه فالقرآن هو الحقيقة الجامعة للإجمال الأنفسي والتفصيل الآفاقي،

---

(١) نقل هذا المعنى الشيخ حسن حسن زاده آملي عن محيي الدين بن عربي من كتابه: (الدرّ المكنون في علم الحروف). انظر: شرح دفتر دل (شرح كتاب القلب)، لآية الله الشيخ حسن حسن زاده آملي: الجلد الأوّل، النكتة: (٨١٩)، بقلم: الشيخ داوود صمدي آملي (منشور في المكتبة الشاملة)؛ هزار ويك كلمة (١٠٠١ كلمة)، لآية الله الشيخ حسن حسن زاده آملي: ج٣ ص٣٨٨، مطبوع في (مجموعة آثار العلّامة حسن زاده آملي).

(٢) انظر: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، للحكيم محمد صدر الدين الشيرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٩م: ج٦ ص٢٩٠.

(٣) النفحات الإلهية، لصدر الدين محمد بن إسحاق القونوي، صحّحه وقدّم له: محمد خواجوي، الناشر: انتشارات مولى، طهران، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ: ص١٢ رقم: (١١/ ٣)، في ذيل: (نفحة ربّانية كلّية وردت في ضمن مشهد أشهدته في واقعة ربّانية).

وإنَّ مرتبته الحقائقية الجامعة للكمالات الوجودية تنتهي إلى حقيقة واحدة جامعة بسيطة مجرّدة، تعكس التجلِّي الأعظم لله تعالى، كما تقدّمت الإشارة لذلك في قول الإمام الصادق عليه السلام: «**لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون**»[1]، وأيضاً في قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**تجلّى الله سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه**»[2]، وقد عرفنا بأنّ هذا التجلِّي الإلهي إطلاقيّ في كماله وجماله وجلاله سبحانه وتعالى.

وقد وردت توصيات منقطعة النظير بالرجوع إلى القرآن الكريم والأخذ منه؛ لأنّه منجم العلم والهدى والفضيلة، والكنز الذي لا ينفد، والعين التي لم تُلوَّث، ولأنّه تبيان لكلّ شيء؛ فعن عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن علي بن حديد، عن مُرازِم[3]، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيانَ كلِّ شيءٍ، حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا أُنزل في القرآن؟ إلّا وقد أنزله الله فيه**»[4].

ولذلك ورد النهي عن مفارقة القرآن، والحثّ على الالتزام بما جاء به؛ فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنّه قال: «**لا تتّخذوا من دون الله وليجة فلا تكونوا مؤمنين، فإنّ كلّ سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة**

---

(١) تقدّم تخريج الحديث.

(٢) الفروع من الكافي، للشيخ المحدّث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ: ج٨ ص٢٨٦ ح٥٨٦؛ نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص٣٠، خطبة: ١٤٧.

(٣) هو أبو محمد مُرازِم بن حكيم الأزدي المدائني، ثقة، من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، وروى عنهما، مات في أيام الإمام الرضا عليه السلام.

(٤) الأُصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٥٩ ح١.

منقطع مضمحلّ كما يضمحلّ الغبار الذي يكون على الحجر الصلد إذا أصابه المطر الجود إلّا ما أثبته القرآن»[1]، وإنّما الكلام في حَمَلَة كتاب الله، فيما يجب عليهم من ملازمة القرآن الكريم والعمل على استنباط ما نحتاجه منه في حياتنا العلمية والعملية، فإنّ هؤلاء هم حُماة الدين ورعاته.

من هنا تتّضح مكانة حَمَلة القرآن الكريم وأهله، فهم في أعلى درجة من الآدميين يوم القيامة، كما روي ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، حيث يقول: «**إنَّ أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين ما خلا النبيّين والمرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم فإنّ لهم من الله العزيز الجبّار لمكاناً عليّاً**»[2].

ولا ريب أنّهم لجديرون بذلك؛ لأنّهم وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم، فعزّ وجودهم، وكانوا كالكبريت الأحمر، على حدّ تعبير الإمام محمد الباقر عليه

---

(١) الروضة من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ: ج٨ ص٢٤٢ ح٣٣٥. وفي الأصول: «**لا تتّخذوا من دون الله وليجة، فلا تكونوا مؤمنين، فإن كان سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة منقطعٌ إلّا ما أثبته القرآن**». الأُصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٥٩ ح٢٢. وقوله: (كان) تامّة بمعنى وُجد، وقوله: (منقطع) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو)، أي: فإن وجد سبب ... فهو منقطع إلّا ما أثبته القرآن.

والوليجة: بطانة الشيء، و(وليجة الرجل: بطانته ودخلاؤه وخاصّته وكلّ من يعتمد عليه في أمر من الأمور، يعني: لا تتّخذوا من دون الله معتمداً ومتّكلاً تعتمدون وتتّكلون عليه في أمر الدنيا والدين وتقرير أحكام الشرع، فإن أخذتم ذلك لا تكونوا مؤمنين بالله ولا باليوم الآخر، إذ المؤمن لا يعتمد في شيء من ذلك على غير الله تعالى). شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، تعليق: الميرزا أبي الحسن الشعراني، نشر: مؤسسة التأريخ العربي، الطبعة الثانية المصحَّحة، بيروت، ١٤٢٩هـ: ج٢ ص٢٧٣.

(٢) الأُصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٦٠٣ ح١، باب (فضل القرآن).

السلام، حيث يقول: «**ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه، فأسهر به ليله، وأظمأ به نهاره، وقام به في مساجده، وتجافى بـه عـن فراشـه، فبأولئـك يدفع الله العزيز الجبّار البـلاء، وبأولئـك يـديل الله عـزّ وجـلّ مـن الأعـداء، وبأولئك ينزل الله عزّ وجلّ الغيث من السماء، فو الله لهـؤلاء في قُـرّاء القـرآن أعزّ من الكبريت الأحمر**»[1].

وفي ذيل هذا الحديث تتّضح قيمـة حَمَلـة الكتـاب في التـصنيف الاجتماعـي للمسلمين، فهم (أعزّ من الكبريت الأحمر)، وقوله «**بأولئك يديل الله عـزّ وجـلّ من الأعداء**»، من: أدال الله منه، أي: أخذ الدولة منه وأعطاهـا غـيره، والمـراد منه في المقام: أنّ الله تعالى بحَملة الكتاب ينتصر على أعدائه.

والخلاصة: إنّ القرآن الكريم هو المنظومة الوجوديـة الجامعـة للكـمالات الوجودية المنبسطة في عالم الإمكان، فهو ليس مجرّد ألفاظ ومعانٍ ذهنية، وإنّـما هو الحبل الممدود بـين الـسماء والأرض، كـما جـاء ذلـك صريحـاً في حـديث الثقلين؛ فعن عطية العوفي أنّه سمع أبا سعيد الخدري يـروي عـن رسـول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**أيّها الناس إنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا من بعدي: الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله عزّ وجـلّ، حبـل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنّهما لن يفترقا حـتى يـردا عليّ الحوض**»[2].

---

(١) الأُصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٦٢٧ ح١.

(٢) هذا الخبر مستفيض في مصادر الفريقين، ولا يكاد يوجد كتاب حديثيّ إلّا ونقلـه، ولمراجعـة تحقيق الحديث، سنداً ومتناً، يراجع كتاب: حديث الثقلين سنداً ودلالة ... قراءة في أبحـاث سماحة المرجع الديني السيد كمال الحيدري، وهو رسالة ماجستير للطالب أسـعد حـسين علي الشمري، الناشر، مؤسسة الهدى للطباعة والنشر، العراق، الطبعة الأُولى، ١٤٣٥هـ.

دور القرآن في بناء المحتوى الداخلي للإنسان

إنّ التعايش مع القرآن يعني التزوّد بمعطياته المعرفية والمعنوية، وهذه المعطيات سوف تمارس دوراً كبيراً في بناء المحتوى الداخلي للإنسان، لأنّ طبيعة المحتوى الداخلي للإنسان هي الاستمداد والتواصل مع الخارج، لأنّها بحاجة مستمرّة إلى طاقة وباعثية، فإذا ما كان: «المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ»(١)، فمن باب أَولى أن يكون موجّهاً لحركة الإنسان، لأنّ الإنسان بشكل عامّ هو عبارة عن مزيج من الفكر والإرادة، «وهذان الأمران (الفكر والإرادة) هما في الحقيقة المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان، إنّ المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان يتمثّل في هذين الركنين الأساسيين، وهما الفكر والإرادة، إذن المحتوى الداخلي للإنسان هو الذي يصنع الغايات، ويجسّد هذه الأهداف من خلال مزجه بين فكرة وإرادة، وبهذا صحّ القول بأنّ المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ»(٢).

وهنا يأتي دور القرآن الكريم في تأصيل وتدعيم بناء هذا المحتوى الداخلي، الذي عماده العلم والمعرفة والرقيّ المعنوي، وليس حطام الدنيا الزائف وركامها، فهذا الركام ـ رغم حاجتنا له ـ ليس عماداً حقيقياً في تشكيل المحتوى الداخلي للإنسان. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ (يونس: ٥٧ ـ ٥٨)، وشفاء الصدر

---

(١) المدرسة القرآنية، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدّس سرّه، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، نشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر، قم المقدّسة، الطبعة الثانية المحقّقة، ١٤٢٤هـ: ص١١٥.

(٢) المصدر نفسه: ص١١٦.

صفة مشيرة إلى دور القرآن في بناء المحتوى الداخلي للإنسان، وأنّ هذا المعطى القرآني هو الذي يمثّل واقعية البناء المطلوب تحقيقها، وليس ما يجمعه الإنسان من حطام الدنيا.

وإذا ما تنبّه الإنسان إلى عماد محتواه الداخلي فإنّه سوف يحصل منه التوجّه إلى حقائق الأمور، وعندئذٍ سوف يتنبّه إلى المساحات المعنوية الهائلة التي يشتمل عليها القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ...**﴾ (الزمر: ٢٣)، وهدى الله هو أن تنبسط المعرفة القرآنية على المحتوى الداخلي للإنسان، فيتشكّل الدافع الإلهي الموجّه للإنسان نحو تحقيق أهدافه الكبرى، بصفته خليفة لله تعالى في أرضه.

ومن المحال أن يلتفت الإنسان إلى مقام خلافته الإلهية والتعرّف على كمالاتها وهو خلو من المحتوى الداخلي، الإلهيّ الصنعة، البشريّ التوظيف، وبعبارة أخرى: القرآنيّ الصنعة، والبشريّ التطبيق، حيث لم نجد غير القرآن نموذجاً أمثل في تشكيل هذا البناء الداخلي.

وأمّا ما اختصّ به رسول الله صلّى الله عليه وآله وعترته الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام فإنّه بكلّ تفصيلاته يدور مدار القرآن الكريم، فالوظيفة الأساسية للرسول صلّى الله عليه وآله هي تبيين القرآن؛ قال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٤٤).

وأمّا أهل البيت عليهم السلام فهم كما جاء الخبر عن سدير، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: **نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله ...**»[(١)]، بمعنى: أنّ بياناتهم وتفصيلاتهم

---

(١) الأصول من الكافي، للشيخ الكليني: ج١ ص١٩٢ ح٣.

وتطبيقاتهم عليهم السلام تنطلق من متن القرآن الكريم.

وهذا ما كان يؤكّده الإمام محمد الباقر عليه السلام، بدعوته للتجذّر القرآني والتأكيد على متنيّته لمعالم الدين، حيث كان يقول لأصحابه: «**إذا حدّثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله** ـ ثمّ قال في بعض حديثه ـ **إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال،** فقيل له: يا ابن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟ قال: **إنَّ الله عزَّ وجلّ يقول:** ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ (النساء: ١١٤)، وقال: ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً**﴾ (النساء: ٥)، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ (المائدة: ١٠١)»[١]، وهذه من أبلغ وسائل التعليم التي نهض بها الإمام الباقر، حيث يُعلِّمنا عليه السلام كيف نستمدّ معارفنا من القرآن الكريم.

وليس في ذلك شيء ممّا يتوهّمه البعض من إقصاء السنّة الشريفة، فإنّ التزامنا بالرؤية القرآنية وبوصيّة الإمام الباقر عليه السلام بالرجوع للقرآن هو عين العمل بالكتاب والسنّة الشريفة، فالقرآن يؤسّس، والسنّة تشرح وتبيّن، بل وتجذّر بياناتها قرآنياً، وما تقدّم من النموذج الباقري شاهد على التجذير القرآني، بل: «هذا هو قمَّة التجذير، وهو ما ينبغي تحصيل قواعده والعمل في تطبيقاته، بل هنالك إمكان للقول بأنَّ هنالك مساحات واسعة من السنّة الشريفة لم تُستلّ بعد من القرآن. وهذا من أهمّ أدوار بقيّة الله الإمام الحجّة بن الحسن عليه السلام، فما يُقال في هذا المجال من أنّه يأتي بدين جديد ـ بحسب بعض الأخبار، ونحن نعتقد كثيراً بصحّة مضمونها ـ هو أنّه عليه السلام

---

(١) الأُصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٦٠ ح٥.

سوف يقوم بأمرين مهمّين؛ الأوّل: أنّه سوف يكشف عن الزيف التاريخي الذي أخذ صبغة الشرعية من خلال التأطّر بأُطر الحديث، وهو معنى إحقاق الحقّ المُغيَّب، وإزهاق الباطل الحاكم في الأمّة منذ قرون طويلة. الثاني: أنّه سوف يستلّ من القرآن بقدر ما تحتاجه الإنسانية إلى يوم القيامة. وإن قُدِّر للحياة أن تطول كثيراً بعد الإمام المهدي عليه السلام ولم تكن السنّة المُغيَّبة ولا السنّة المستلّة قادرة على استيعاب الأحداث التالية فلابدّ أن يكون هنالك طريق واضح من قِبل الإمام نفسه عليه السلام لكيفيّة استلال السنّة المتبقيّة أو المطلوبة من القرآن الكريم»[1]؛ لما لذلك من مدخلية كبيرة في تشكيل المحتوى الداخلي للإنسان وللمجتمع، وتحقيقاً للوظيفة الإلهية الملقاة على عاتقه عليه السلام في تبيين القرآن الكريم، انطلاقاً من وظيفته وإمامته التي هي تمثّل الامتداد الطبيعي لإمامة الرسول صلّى الله عليه وآله في الأمّة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

القرآن وثنائية البناء الفردي والبناء الاجتماعي

لم تأخذ المعطيات القرآنية اتجاهاً فرديّاً خالصاً، كما أنّها لم تأخذ اتجاهاً اجتماعيّاً خالصاً، وإنّما مازجت بين الفردية والاجتماعية معاً، ولعلّ الأحكام الشرعية أوضح وأفضل شاهد على ذلك، ففي الوقت الذي شُرّعت فيه فرائض الصلاة والصوم نجد أنّها اتّخذت الطابع الفردي في شطر منها، كما هو

(١) ميزان تصحيح الموروث الروائي (معالم نظرية عرض الروايات على القرآن الكريم)، من أبحاث المرجع الديني السيد كمال الحيدري ، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، العراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ: ص١٧٥. وهذا الكتاب هو الحلقة الثانية من سلسلة (إسلام محورية القرآن).

الحال في الفرائض الخمس، كما اتّخذت طابعاً جماعيّاً واجتماعيّـاً في شـطر آخـر منها، كما في صلاة الجماعة وصلاة الجمعة، ولو لاحظنا فريضة الحجّ فإنّها وإن تبدو لأوّل وهلة فريضة فردية يؤدّي مناسكها الحـاجّ إلّا أنّهـا أخـذت طابعـاً جماعيّـاً واجتماعيّـاً في كـلّ مناسـكها، فـالطواف جمـاعيّ، والـسعي جمـاعيّ، والوقوفان في عرفة ومزدلفة جماعيّان، والمبيت في منى جماعيّ، وهكذا الحال في الزكاة وسائر الحقوق الشرعية، وأمّا في العقائد فالأمر لا يخلو من ذلك المـزج بين الفردية والجماعية، فالتوحيد وهو أصل العقائد ومحورهـا كلّهـا وإن يبـدو فرديّاً من كلّ مكلّف، إلّا أنّه في حقيقتـه ذو طـابع جمعـيّ، بمعنـى أنّـه يُوحّـد القلوب على عقيدة واحـدة جامعـة، فيتحـوّل الجميـع مـن الـشتات القلبـي والتمزّق الفكـري إلى الوجهـة الواحـدة والقبلـة الواحـدة، بـل وإلى الـروح الواحدة، كما عبّر الحديث النبوي الشريف عن ذلك: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالـسهر والحمّى**»[1].

---

(١) روي الحديث بألفاظ متقاربة. انظر: مصنّف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار، للحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، ضبطه وعلّق عليه: الأسـتاذ سعيد محمد اللحام، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩هـ: ج٨ ص١٤١ ح١١٤؛ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القـشيري النيـسابوري، نشر: دار الفكر، بيروت: ج٨ ص٢٠؛ مسند أحمد، الإمـام أحمـد بـن حنبـل، دار الفكـر، بـيروت: ج٤ ص٢٦٨؛ ج٤ ص٢٧٠؛ ج٤ ص٢٧٦؛ فـتح البـاري في شرح صـحيح البخاري، للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بـيروت، الطبعـة الثانيـة: ج١٠ ص٣٦٧؛ مـستدرك سفينة البحار، للشيخ العلّامة علي النمازي الشاهرودي، تحقيق وتصحيح: الشيخ حـسن بن علي النمازي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قـم المقدّسـة،

إنّ هذا الهدف المشترك في بناء الشخصية المسلمة على المستوى الفردي والاجتماعي يمثّل الأطروحة المتكاملة والنموذج الأمثل لحياة الإنسان، فالإنسان بذاتيّته لا يستطيع أن يتخلّى عن فرديّته وخصوصيّته، وبطبيعته ومدنيّته لا يستطيع التخلّي عن اجتماعياته، وكيف يتسنّى له وهو ابن أسرة تمثّل مجتمعاً صغيراً، وهو ربّ أسرة يتحمّل مسؤوليات تفوق كثيراً مسؤولياته الفردية، فكان لابدّ من أطروحة تلبّي له معطيات هذه الثنائية، فكان البناء القرآني لطرفي الثنائية الإنسانية ملبّياً لتلك الحاجات الأساسية، وهنا تتجلّى أمامنا المساحة الكبرى للمعطى القرآني والدور الأساسي في جميع بنوده، فالقرآن هو أطروحة السماء المحقّقة للنموذج الأمثل للإنسان والمجتمع، والمحقّقة للسعادة والكمال.

القرآن نموذج المثل الأعلى في البعدين المعرفي والمعنوي

لمّا كان القرآن الكريم مستجيباً لواقعية الإنسان في بعديه المادّي والمعنوي، والثنائية التي يعيشها الإنسان في بعده الفردي والاجتماعي، فإنّه لابدّ أن يكون قد جاء مستوعباً للنموذج الأمثل في البعدين المعرفي والمعنوي، فالقرآن ليس مجرّد نصّ دينيّ صرف ملاكه التعبّد ولزوم المتابعة، وإنّما هو المنظومة التي لُوحظ فيها ما يحتاجه الإنسان في بعديه الأنفسي والآفاقي، فضلاً عن حاجته الماسّة له في بناء محتواه الداخلي ـ كما تقدّم ـ.

فالقرآن الكريم في الآن الذي دعا فيه إلى التحرّر من الظلم والظلمات المختلفة، ومن الجهل والتخلّف والمرض والضعف والخنوع والذيلية؛ قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ

طبعة ١٤١٩هـ: ج١ ص٦٧.

إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد: ٩) ودعا فيه إلى العدل والإحسان والتراحم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، دعا أيضاً إلى الانفتاح على الآفاق الإنسانية المختلفة، كالتفكّر في أصل الخلق ونشأته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ٢٠)، والسير الفكري والميداني في الأرض وما جرى عليها خلال مسيرة الإنسان، والتذكير بالدار الباقية؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ١٠٩)، ووضع القاعدة العامّة في التعاطي الإنساني بأرقى صوره وأنبل مقاصده؛ قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢).

ثمّ بيّن أهمّية الحوار وتبادل الخبرات من خلال التعارف، الأمر الذي سيفضي إلى وقوع التنافس بشكل تلقائيّ، فوضع القاعدة الأمثل في التفاضل، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، ليأتي التركيز على الأصل الذي تقوم عليه قاعدة التفاضل بين أمّة الإنسان، وهو التقوى، ليكون هو الزاد الواقعي للقلوب الزكية، بل قل للإنسان السويّ؛ قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧)، والتقوى أصلٌ قوامه العلم

والمعرفة والطاعة، فلا العلم وحده ينتج تقوى ـ فضلاً عن استحالة إنتاج الجهل لذلك ـ ولا الطاعة والتنسّك وحدهما ينتجان تقوى، ومنه يتّضح معنى الخبر: «**قصم ظهري: عالم متهتّك، وجاهل متنسّك. فالجاهل يغشّ الناس بتنسّكه، والعالم ينفّرهم بتهتّكه**»[١]، فكلاهما بلا تقوى قرآنية.

وعليه فلابدّ من اجتماع العلم والطاعة لينتجا تقوى حقيقية، لا صورية، فالإفراط في العبادة والتفريط بالعلم قد يُوهم بالتقوى، ولكنّها تقوى مزيّفة، ولذلك ورد التنديد بالرهبانية المفرطة، التي تلغي أو تحجّم الأنشطة الأخرى التي ينبغي أن يقوم بها الإنسان؛ قال تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾ (الحديد: ٢٧)، بمعنى: أنّ الرهبنة التقوائية القائمة على العلم والطاعة، وممارسة الأنشطة الإنسانية التي تفرزها ثنائية العلم والطاعة، وهذه هي الجامعية المطلوبة، وهي التي حثّ عليها القرآن؛ قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ**﴾ (الروم: ٥٦)، أي: الذين أوتوا التقوى، فذلك هو قوامها، فالإيمان موجب للطاعة، والطاعة بمعيّة العلم تحقّق أرقى صور التقوى، وهي التقوى القرآنية، التي لا

---

(١) الخبر مرويّ عن الإمام علي عليه السلام، وهو المشهور. انظر: شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢٠ ص٢٨٤ رقم: (٢٤٨)؛ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، نشر: دار الحديث، قم، الطبعة الأُولى، ١٩٩٧م: ص٤٧٩؛ منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، للشهيد الثاني الشيخ زين الدين بن علي العاملي (ت: ١٠١١هـ)، تحقيق: رضا المُختاري، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩هـ: ص١٨١؛ وغير ذلك. كما روي هذا الخبر بألفاظ متقاربة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. انظر: عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج٤ ص٧٧ ح٦٤.

تأتي بالأمنيات الفارغة من العمل والتحصيل، وإنّما تأتي بالترويض والمثابرة.

ولنعم ما أشار له أمير المؤمنين علي عليه السلام من تحصيل التقوى والآثار المرجوّة فيها، حيث يقول في رسالة لأحد عُمّاله: «**وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانّها في غدٍ جدث؟! تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسدّ فرجها التراب المتراكم، وإنّما هي نفسي أروضها بالتقوى؛ لتأتي آمنةً يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق**»[1].

الطمأنينة والقرآن

الطمأنينة تمثّل رغبة إنسانية عميقة، وهي مطلب الجميع، بسبب القلق المتواصل الذي يعيشه الإنسان جرّاء المتغيّرات الكثيرة والسريعة في الحياة الدنيا، فكان لابدّ من وجود ضمانات مستمرّة وحاضرة للوصول إلى الطمأنينة المطلوبة، وهذا ما يُقرّبنا منه القرآن الكريم، وهو ذكر الله العظيم؛ قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد: ٢٨).

وذكره سبحانه بمعنى استذكار حاكميّته على الوجود وقدرته المطلقة، وأنّه سبحانه ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سبأ: ٣)، وهذا ما يُوفّر للإنسان المؤمن أرضية الطمأنينة؛ حيث إنّ القرآن الكريم بنفسه قال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر: ٩)، وإنّما سُمّي القرآن بالذكر لأنّ فيه ذكر الله وذكر الآخرة، وذكر الإنسان وبيان سبيل شرفه وعزّته؛ قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَنْزَلْنَا**

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٧١ رقم (٤٥)، من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف (عامله على البصرة) وقد بلغه أنّه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها.

إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠)، أي: لقد أنزلنا إليكم هذا القرآن، فيه عزُّكم وشرفكم في الدنيا والآخرة إن تذكّرتم به، وأيضاً لأنّه جاء بالموعظة والتذكرة: ﴿...**فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (هود: ١٢٠)، ودعوته إنسانية وموجّهة للجميع؛ قال تعالى: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (آل عمران: ١٣٨)، وغير ذلك من الحيثيّات الموجبة لكون القرآن ذِكراً، ولكون القرآن موفّراً لأرضية الطمأنينة المطلوبة.

إنّ عملية التذكّر ليست هي ملاك ذِكرية القرآن، وليست هي ملاك توفيره لأرضية الطمأنينة، وإنّما هنالك مناطات أخرى جعلت من القرآن ذِكراً وطمأنينة للإنسان المؤمن. فالإنسان ـ كما عرفنا ـ بوجوده النوعي في صراع مستمرّ في الحياة، ولا ينقضي ابتلاؤه، وهو بين كرّ وفرّ، وتقدُّم وتراجع، فإذا ما أصابه خيرٌ اعتدّ بنفسه وتنكّر للواهب، وإذا ما واجهته انتكاسة أصابه اليأس والخمول؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً**﴾ (الإسراء: ٨٣).

ولأنّ هذه الابتلاءات بين الخير والشرّ ـ بحسب فهم الإنسان ـ غير منتهية، وهذه هي طبيعة الحياة، بل هذه واقعية الحياة، كما ورد في وصفها البليغ لأمير المؤمنين علي عليه السلام: «**دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا تسلم نزّالها، أحوال مختلفة، وتارات متصرّفة، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم، وإنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها**»[1]، لذلك دوام الحال فيها من المحال، وما دامت هي كذلك فلابدّ من طمأنة يعيشها الإنسان وهو يخوض هذه المواجهات

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٩ خطبة (٢٢٦).

العنيفة، وهنا يأتي دور القرآن في مواكبة الإنسان وهو يواجه ابتلاءاته، ومن الواضح أنّه كثيراً ما يُواجه ما يكرهه، من عجزٍ وفقرٍ ومرضٍ وفقدٍ، وغير ذلك من الابتلاءات الكثيرة والخطيرة، فيأتي القرآن ليُذكّره بأهمّية التوازن والاستقرار، وذلك من خلال إعادة النظر فيما هو فيه؛ قال تعالى: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٢١٦)، فالانكسار المؤقّت قد يكون هو السبب الحقيقي وراء الانتصار والتقدّم، كما أنّ الألم غالباً ما يكون سبباً في العمل على تحصيل اللذّة والراحة.

بعبارة أخرى: إنّ القرآن الكريم يحقّق التوازن والاستقرار للإنسان المضطرب الذي تعصف به الابتلاءات المتكرّرة، ومن دونه ستلتهمه صرعة البأساء، ويكون طعمة لسطوات البلاء[1].

إنّ هذا العرض النموذجي للقرآن في مواجهة الابتلاء وما نكرهه، يجعلنا نعيد النظر في كلّ ما يصيبنا، وهو فضلاً عن كونه معيناً على التخلّص من سوء الظنّ بالله تعالى، فإنّه يفتح أبواب التأمّل في كيفية التعاطي مع الابتلاء، ووضع الحلول الصحيحة، بمعنى جعل الابتلاء وما نكرهه محطّة للتوقّف وإعادة النظر في مجريات حياتنا؛ لأنّ الإنسان في الغالب لا يعيد النظر في طريقة حياته عندما يحقّق انتصاراً، بل قد يجعله ذلك يغضّ النظر عن أخطائه المنظورة فضلاً عن غير المنظورة، فتكون المراجعات العلمية والعملية لما سبق

---

(١) روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله هذه المناجاة في الاستعاذة: «**اللّهُمَّ إنّي أعوذ بك من مُلمّات نوازل البلاء، وأهوال ـ عظائم ـ الضرّاء، فأعذني ربِّ من صرعة البأساء، واحجبني عن سطوات البلاء ...**». الدعوات، قطب الدين الراوندي (ت: ٥٧٢هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عجّل الله فرجه، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، مطبعة أمير: ص٨٢ ح٢٠٧.

منّا وأوقعنا في المكروه هي محطّة المعالجة الحقيقية للانكسار الواقع، وهذا هو الخير كلّه، ولذا كان قوله: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾، في حين أنّ ما يصيبنا من الخير قد يصيبنا بالكبر والغرور، أو يجعلنا نغضّ الطرف عن الأخطاء، ولذا قال: ﴿**وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**﴾.

ولكنّ الإنسان في الغالب لا يفقه هذا العرض القرآني أو الفلسفة القرآنية في الكشف عن واقعية الأشياء، ولذا قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾، وهذا ما يجعل القرآن الكريم متبوّئاً موقع الصدارة في الكشف عن واقعية الأشياء، والحثّ على التأمّل فيها، والسعي إلى وضع الحلول الصحيحة، والقرآن الكريم هو النصّ الإلهي الوحيد المصان من التحريف، فلا يُحتمل فيه الخطأ أو الباطل، فهو الكتاب الذي ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (فصّلت: ٤٢).

واقعية الابتلاء بين الخير والشر

قلنا إنّ الابتلاءات بين الخير والشرّ ـ بحسب فهم الإنسان ـ غير منتهية، وأنّ هذه هي طبيعة الحياة، بل هذه واقعية الحياة، وما نحتاج الوقوف عنده هو هذا الفهم الصوري لطبيعة الابتلاءات، حيث تصنيفها إلى خير وشرّ، فالإنسان النوعي لا يمتلك صورة واقعية عن طبيعة الابتلاءات، ولا يدرك واقعية الخير والشرّ، بل هو كثير الخلط في ذلك، وقد ورد التعريض به في قوله تعالى: ﴿**وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً**﴾ (الإسراء: ١١)، حيث يبلغ به الحال أن يدعو الإنسان على نفسه وماله وأهله بالشرّ، عندما يغضب، كما لو كان يدعو لها بالخير، بسبب جهله وعجلته، بل قد يدعو الإنسان لنفسه بشيء يظنّه خيراً وهو شرّ له، كما لو دعا الإنسان لنفسه بالبقاء على ما هو عليه، وهو لا يعلم أنّه ضلال أو جهل أو غفلة، فلا يكاد يبصر

الحدّ الفاصل بين الخير والشرّ، وما جاء في قصّة قتل الغلام على يد العبد الصالح، واعتراض النبي موسى عليه السلام على ذلك الفعل ـ قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ (الكهف: ٧٤) ـ يكشف أنّ ظواهر الأمور ليست مقياساً حقيقياً للكشف عن الخير والشرّ، ولذلك فالإنسان النوعي لا يُبصر في الغالب غير ظواهر الأمور؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧)، وهنا نريد التوقّف قليلاً عند فلسفة الكمالات الإلهية في دائرة الابتلاءات، وذلك من خلال مثال يسير يتعلّق بحياتنا العبادية والعملية.

وهنا ينبغي أن نعرف ابتداءً أنّ في فلسفة الكمالات الإلهية أنّ الابتلاءات التي تُصيب الإنسان كلّها خير، وليس فيها من الشرّ شيء. فما يراه الإنسان خيراً أو شرّاً إنّما منظور فيه جهة الارتقاء، فالخير الظاهر مطلوب معه الشكر، والشرّ الظاهر مطلوب معه الصبر، والشكر والصبر جناحان معنويان للارتقاء، ومن هنا ورد في الحديث النبوي الشريف: «**الصبر نصف الإيمان**»[1].

ولو أردنا تصوير واقع الإنسان في عملية الارتقاء فهو أشبه بسجّادة الصلاة التي ترمز إلى ذلك البساط المعنوي الطائر، الذي يرتقي بالإنسان إلى

---

(١) مسكّن الفؤاد عند فقد الأحبّة والأولاد، الشهيد الثاني الشيخ زين الدين علي بن أحمد الجبعي العاملي (ت: ٩٦٥هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ: ص٤٧؛ فتح الباري، مصدر سابق: ج١٠ ص٤٢٦؛ شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص٣١٩؛ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠١هـ: ج٢ ص١١٣ ح٥١٣٠.

عالم المعنى، والخروج به من عالم الألفاظ والقوالب المادّية، وهذه السجّادة المعنوية لا يمكن لها أن ترتقي بالإنسان وهي مُثبّتة في الأرض، فيكون كلّ ارتباط مادّي للإنسان في الدنيا أشبه بالمسمار المثبّت في تلك السجادة، وكلّما كثرت التعلّقات المادّية، ازدادت المسامير المثبّتة للسجّادة في الأرض، فمن أين يحصل الخشوع؟ ومن أين يحصل التوجّه لعالم المعنى؟

وإذا ما فكّرنا في ذلك وتأمّلنا مليّاً في هذه النكتة سنجد أنّ الابتلاءات التي يراها الإنسان شرّاً ما هي إلّا خير باطن؛ لأنّها المنشار المعنوي الذي يقضم رؤوس المسامير المثبّتة للسجّادة المعنوية في الأرض، كما سنجد أنّ الخير الظاهر الذي يصيبنا هو الابتلاء الحقيقي، لأنّه المنفذ الحقيقي لتغييب السجّادة في بطون الأرض وتخومها، إلّا إذا وقع الشكر على النعمة، والشكر ليس مجرّد ألفاظ واهية، وإنّما هو توظيف للخيرات في مواضع الخير، فذلك هو الشكر بعينه، أو قل: هو أجلى مصاديقه. وعليه فإنّ كلّ استعمال للخير في غير مورد الخير والصلاح سيكون جحوداً للنعمة.

بعبارة أخرى: الخير ما بقي خيراً للإنسان في الدنيا والآخرة، لا كلّ ما تنتفع في الظاهر منه، والشرّ ما بقي شرّاً له في الدنيا والآخرة، لا كلّ ما تتضرّر في الظاهر منه، وبهذا المنطق القرآني تتشكّل عندنا رؤية جديدة حول الخير والشرّ. فالإنسان محكوم بغريزة التملّك، فيحبّ كثيراً الهيمنة والنفوذ وامتلاك الأشياء، وبعبارة قرآنية: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً**﴾ (الفجر: ٢٠)، ولذلك فالإنسان النوعي مائل للدنيا، بل هو عاشق لها: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**﴾ (القيامة: ٢٠)، فتكون مقاييسه للخير والشرّ مقاييس دنيوية، فإذا ما انتقل إلى تلك الرؤية القرآنية حول الخير والشرّ فإنّه سوف تتغيّر تغيّراً جذريّاً طريقة تفكيره التي تصنع سلوكه، وسوف يتحوّل من السلب إلى الإيجاب، ومن

الانزواء إلى التفاعل، ومن الآخذ إلى العاطي، فإنّ المؤمن الذي انعكست فيه الرؤية القرآنية للخير والشرّ حياته عطاء.

نورانية القرآن وجاهلية الإنسان

وفي ضوء ما تقدّم فإنّه ليس أمام الإنسان إلّا التمسّك بنورانية القرآن، بغية الخروج من جاهليته الموروثة، وقد كان دور النبي القرآني كما يُقرِّره قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾ (الجمعة: ٢)، هو أنّه: (يتلو علينا آيات القرآن)، ويقوم بـ(تزكيتنا)، و(تعليمنا الكتاب والحكمة).

وهذه من أهمّ مميّزات النبوّة الخاتمة، ولو لاحظنا تلك الوظائف الثلاث سنجد أنّ محورها هو القرآن الكريم، فالآيات المتلوّة آياته، والتزكية تكون بواسطته، والتعليم لعلومه، والحكمة ما انبثق منه، ولذلك فإنّ كلّ إنسان لا يتزوَّد من نورانية القرآن التي تبدأ بتلاوته وتنتهي بالوقوف على حكمته، فإنّه إنسان مُتشرنق في جاهلية بائدة، وعلى حدِّ تعبير القرآن الكريم: هو في ضلال مبين، ولو أمعنّا النظر في آية الأُمّيّين نجدها تعبّر عن المجتمع العربي الموصوف بالأُمّية، فجاء القرآن بالنظام الأبدي، القائم على التوحيد الصمدي، لتنتهي كلّ أشكال الكفر والشرك والجهل، ولتنتهي كلّ السلوكيّات الخاطئة والمخالفات الشرعية والإنسانية.

ولذلك فإنّ الكمال الحقيقي من وجهة نظر قرآنية، يكمن في تحقيق الطاعة لله تعالى والخروج من دائرة المعصية، ففي ذلك تحصيل للطريق الأمثل للكمال والارتقاء حتى الوصول إلى مقام الإنسان الكامل، أو الوصول إلى أقرب المراتب منه، ودرجة كمالنا إنّما تُقاس بقدر قربنا من الله تعالى، كما أنّ نقصنا يُقاس بدرجة بُعدنا عن الله تعالى، وهذا القرب وذاك البعد ليس لهما استقرار

وثبات؛ فالإنسان مطلقاً إمّا في ارتفاع أو في انحدار، فالُمقيم للصلاة في حالة ارتقاء دائمة، والتارك لها في حالة انحدار دائمة، وإن كان معذوراً في الترك، فمن تساوى يوماه فهو مغبون، كما جاء في الخبر[١].

فإذا اتّضح هذا فاعلم أنَّه لا قُرب من دون القرآن الكريم، ولا بُعد إلّا بهجره، والهجر واقع في أمّة الإنسان؛ قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً**﴾ (الفرقان: ٣٠)، ولكنّه على مراتب، وفي ضوء مراتب الهجر تتحدّد مسافة القرب والبعد من الله تعالى، فكلّما عظم الهجر عظم البُعد، والعكس بالعكس؛ وبالتالي فإنَّ ما يُعانيه الإنسان من الارتفاع والانخفاض في سلّم القرب والبُعد، ومن اطمئنان واضطراب، وتناقضات في تركيبته الباطنية فإنّ جزءاً عظيماً منه يعود إلى ما يعانيه الإنسان من الآثار الوضعية لهجره للقرآن؛ ولذلك فإنّ الإنسان المؤمن قد يرتقي فوق منزلة الملائكة، إذا ما أغلق دائرة الهجر بجميع مراتبه، وقد يتسفَّل إلى ما دون مرتبة الأنعام، إذا ما انفتحت عليه دوائر الهجر؛ فهو في ارتقاء مستمرّ، أو في تسفّل

(١) عن الإمام الحسين عليه السلام قال: «بينا أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم جالس .. إذا أتاه شيخ عليه شحبة السفر، فقال: أين أمير المؤمنين؟ فقيل: هو ذا، فسلّم عليه، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين إنّي أتيتك من ناحية الشام وأنا شيخ كبير قد سمعت فيك من الفضل ما لا أحصي، وإنّي أظنّك ستُغتال فعلّمني ممّا علّمك الله، قال: **نعم يا شيخ! من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كانت الدنيا همّته اشتدّت حسرته عند فراقها، ومن كان غده شرّ يوميه فهو محروم، ومن لم يبالِ بما رزئ من آخرته إذا سلمت له دنياه فهو هالك، ومن لم يتعاهد النقص من نفسه غلب عليه الهوى، ومن كان في نقص فالموت خير له**». (من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جامعة المدرّسين، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ: ج٤ ص٣٨١ ح٥٨٣٣؛ أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٤٣٤ ح٣١).

مُستمرّ، بحسب طبيعة القرب أو البعد من هجر القرآن[1]، ولذلك فإنّه لا يُمكن تصوّر لحظة توقّف، فإمّا إلى الهجرات والبعد عن الكمال، أو إلى نبذ الهجرات المرتّب عليه التزوّد بالكمال؛ وهذا هو منطق الحياة ومنطق العلم والمعرفة، بل ومنطق الجهل أيضاً فيما يقتضيه.

كمال النصيب الدنيوي

بالرغم من أنَّ النصيب الدنيوي المُشار له قرآنياً في قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ**﴾ (القصص ٧٧)، مقرون باللذّة الحسيّة الدنيوية، من مأكل ومشرب وزواج، أي: مُختلف المستلذّات من الرزق الحلال، إلّا أنّه في العادة إنّما يُطلب فيه الكمال، ولكنَّ كماله الأوّل يكمن في حفظ الإنسان من التلف واستمرار نوعه، فإذا ما أدَّت بنفسها ـ عند الاستغراق فيها ـ للتلف فإنّها ستخرج عن مطلوبيتها العرضية إلى رفضها والنفرة منها، ولكن بالنحو الذي لا تنقطع

---

(١) يُهجَر القرآن الكريم في موارد عديدة، ويكمن تصوير أهمّها فيما يلي:

الأوّل: ترك القرآن جملةً وتفصيلاً، وهي الهجرة الأعظم، المتمثّلة بترك القرآن تلاوةً وفهماً وعملاً، وهي أعلى وأخطر درجات الهجر.

الثاني: ترك القرآن تفصيلاً لا جملة، وهي الهجرة العظمى، المتمثّلة بالاكتفاء بتلاوة القرآن دون فهمه، فضلاً عن عدم العمل به، وهي الدرجة المتوسّطة من درجات الهجر.

الثالث: ترك القرآن جملةً لا تفصيلاً، وهي الهجرة العظيمة، المتمثّلة بالاكتفاء بتلاوة القرآن والعمل على فهمه دون العمل به، وهي أدنى درجات الهجر.

فهذه ثلاث هجرات، وفي الثالثة يكون مثل الإنسان مثل العالم المتهتّك، وفي الثانية يكون مثله مثل الجاهل المتنسّك، أو كمثل الأنعام: ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ**﴾ (الفرقان: ٤٤)، وفي الأولى يكون مثله مثل الأضلّ سبيلاً من الأنعام: ﴿**بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ (الفرقان: ٤٤).

معها الحياة، وبالتالي فإنّ النصيب الدنيوي نصيب كماليّ وليس نصيباً انتقاصياً، بخلاف المتصوّر عند جملة من الأخلاقيين. فصحيح أنّ طلب الأكل والشرب والراحة وبقيّة ضروريّات الحياة تعبّر عن فقرٍ مسبق وحاجة لازمة، إلّا أنّ الإنسان السوي يطلب بذلك كماله، وهو كمال مطلوب عقلاً وشرعاً، ولذلك نهى الشارع المقدّس عن العزلة والرهبنة، فلا ينبغي الاغترار بكلمات تفيد الانقطاع عن الدنيا، فإنّ في ذلك هدم الحياة وهدم قوام الإنسان، ولذلك يأمره القرآن بعدم نسيان نصيبه، ولكنّه النصيب الحلال والمقبول، الذي لا يتمدّد فيه على الآخرين، فإنّه: «**ما جاع فقير إلّا بما مُتّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك**»[1]، وبذلك تكون الرؤية حافظة للإنسان من كلّ تلف، فكرياً كان أو معنوياً أو مادّياً؛ تحقيقاً للسعادة الحقيقية للإنسان.

من هنا يتّضح: أنَّ القرآن الكريم قد أعطى للسعادة مساحات أغفلتها الاتجاهات الأخرى، فإنّ بعضها قد اقتصر على السعادة العقلية والروحية، في حين نجد القرآن الكريم قد اهتمَّ بالسعادة الحسيّة الدنيوية، وحثّ على تحصيلها بما يحفظ النوع الإنساني وبما يمنح الإنسان قوتاً وطاقة للوصول إلى الكمال الحقيقي المطلوب، بل اعتبر القرآن الكريم تلك اللذّة الحسيّة كمالاً واقعياً، بدليل مطلوبيته، حتى وصفه بالطيّبات، ولكنّه ليس كمالاً ذاتياً، وإنّما هو كمال توصّلي للكمال الحقيقي المتمثّل بالرقيّ الروحي، وهذا يعني بالضرورة أنَّ القرآن الكريم قد لاحظ فطرة الإنسان وقدَّر لها احتياجاتها، فرفض انسياقها إلى رهبانية كنسية تتقاطع مع الواقع الإنساني؛ قال تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ**

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٧٨ رقم الكلمة (٣٢٨).

رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٧)، وجعل للرهبانية معنى عظيماً يتعلَّق بالجهاد في سبيل الله، كما جاء في حديث رواه أبو ذر الغفاري من أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد أوصاه: «**عليك بالجهاد، فإنّه رهبانية أمّتي**»[1]، وفي الجهاد في سبيل الله يتخلّص الإنسان من حبّ الدنيا ومن حاكمية الأنا؛ لأنّه يضع أعزّ ما عنده على محراب التضحية والفداء، وهي نفسه.

وهكذا يُسجِّل لنا القرآن الكريم رؤيته الواضحة الجليّة، التي تنطلق من حاجات الإنسان الضرورية، فلا تسمح بالقفز على واقعيته ومتطلّباته الضرورية من الملذّات الحسّية، ولكن دون الانحصار بذلك، ليُسجِّل بذلك مُفترق طرق حقيقيّ بينه وبين الرؤية المادّية التي أغفلت المجال الرحب للسعادة، والمتمثّل بالسعادة الروحية؛ كما أنَّ هذا المُفترق لم يقتصر على إبعاد الرؤية المادّية، وإنّما لُوحظ فيه جميع الرؤى التي أغفلت جانباً على آخر، من قبيل بعض الاتجاهات الصوفية، التي طالما اتّهمت المتع الحسيّة وأقصتها من مسمّيات السعادة.

وبذلك يبقى القرآن الكريم مُترفّعاً في نظرته الثاقبة للحاجات الضرورية للإنسان، التي اعتبرها سُلَّماً في وجهها الإيجابي لا مُعوِّقاً باتجاه الكمال الحقيقي، بل الغنى في الحياة الدنيا معونة على تحصيل التقوى، فقد روي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عن آبائه عليهم السلام، أنّه قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **نِعم العون على تقوى الله الغنى**»[2]. وعن ذريح المحاربي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**نِعم العون على الآخرة الدنيا**»[3]، وغير ذلك

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٥٣٩ ح٢.

(٢) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٥ ص٧١ ح١.

(٣) المصدر نفسه: ج٥ ص٧٢ ح٩.

من الأخبار الدالّة على إيجابية الدنيا لو اتّخذت وسيلة للكمال والبناء الأخروي، ومنه يتّضح أنّ طلب الدنيا للآخرة ليس طلباً دنيوياً، بل هو طلب أخروي، بمعنى: أنّ طلب النصيب في الدنيا هو الآخر طلب أخروي، نتكامل فيه، ونؤجَر عليه، وقد روي عن عبد الله بن أبي يعفور أنّه قال: «قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: والله إنّا لنطلب الدنيا، ونُحبّ أن نؤتاها، فقال: **تُحبّ أن تصنع بها ماذا؟** قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصل بها، وأتصدّق بها، وأحجّ وأعتمر، فقال عليه السلام: **ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة**»[1].

سرّ كون الدنيا لعباً ولهواً وزينة

ومع الأمر القرآني بتحصيل نصيبنا من الدنيا إلّا أنّه ألفت نظرنا إلى حقيقة الدنيا، وضرورة التوقّي من الوقوع في حبائلها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾ (الحديد: ٢٠)، حيث تكشف الآية الكريمة عن أمر قد يغفل أو يتغافل عنه الكثير، وهو أنّ الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في ذلك، وهل كلّ الحياة الدنيا كذلك؟ وماذا عن بعثة الأنبياء والجهاد في سبيله والحثّ على العمل والإعمار فيها، وغير ذلك من ملامح الدنيا؟

من الواضح أنَّ هذه الآية الكريمة لا تصف الحياة مطلقاً، وإنّما تصف الحياة الدنيا تحديداً بأنّها: ﴿**لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ**﴾، ولا يعني ذلك أنَّ الحياة خُلقت لذلك؛ فإنَّ الحياة إنّما قد خُلقت للعمل الصالح فيها، ولكي تكون لنا مزرعة للآخرة، وعوناً عليها، وتكون عوناً على التزوّد بالتقوى، وإنّما وُصفت

---

(١) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٥ ص٧٢ ح١٠.

باللهو واللعب والزينة للإشارة إلى تـصرّمها وسرعـة زوالهـا، فكـما أنَّ وقـت اللعب واللهو قصير فكذلك هي الحياة الدنيا، وكلّ ساعة زمنية من الحياة هي صورة مصغّرة عن الحياة نفسها، سرعان ما تمضي وتتلاشى، ولا خير فيهـا إلّا ما اشتملت فيه على كمال أو انتفع به الناس؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّـا الزَّبَـدُ فَيَـذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

قال الشيخ الطوسي في سبب وصف الحياة الدنيا بأنّها لعب ولهْو: «لأنّه لا بقاء لذلك ولا دوام، وأنّه يزول عن وشيك، كـما يـزول اللعـب واللهـو»[١]، فالحياة في هذه الدار الدنيا بمنزلة اللهو واللعب، إذ لا بقاء لها ولا دوام، وقيل بأنّها قد عُبِّر عنها بذلك لأنَّ اللعـب مـا رغَّـبَ في الـدنيا، واللهـو مـا ألهـى عـن الآخرة، وأمّا الزينة فإنّها تتحلَّى في أعين أهلها ثمّ تتلاشى[٢]، فكان وصـفها بكـلّ ذلك لتحذير الإنسان من الانسياق إليها وترك هدفه الأعظم في لوحة الوجود.

وهنالك نُكتة عميقة تُبيِّن لنا سرَّ اتصاف الدنيا بذلك، وهي أنَّ هذه الحياة الدنيا تشتمل على كلّ المُغريات التي تحجب الإنـسان عـن سـعادته الحقيقيـة، وبسبب اشتمالها على ذلك فهي لعب ولهو وزينة، وهذه الأُمور التي لا توصلنا إلى السعادة هي أمور وهمية عديمة النفع سريعـة الـزوال، والنـاس عـادة مـا يُتعِبون أنفسهم فيها؛ ظنّاً منهم بـأنّهم سيقبـضون منهـا شـيئاً، كـما هـو حـال الصبيان حيث يُتعِبون أنفسهم في الملاهي واللعب، فـلا يعـودون بـشيء غـير

---

(١) التبيان في تفسير القرآن، لـشيخ الطائفـة أبي جعفـر محمـد بـن الحـسن الطـوسي، تحقيـق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، الناشر: مكتب الإعلام الإسـلامي، قـم المقدّسـة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ: ج٩ ص٥٣٠.

(٢) انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، لأمين الإسلام أبي الفضل بن الحسن الطبرسي، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ: ج٩ ص٣٩٦.

ضياع الوقت والجهد والطاقة، وأمّا ما يحصلون عليه من الشعور بالمتعة والترفيه فإنّه سرعان ما يزول حال الانتهاء من اللعب، لاسيّما إذا كان اللعب لمجرّد التلهّي وليس لاستقامة الجسم، وهكذا الناس في طلب الدنيا، فهم يُلهون بها أنفسهم عمَّا ينفعهم في الدارين، ويصلحهم ويهمّهم، ولكن سرعان ما يزول التلهِّي، ولا يخلِّف وراءه سوى الحسرة والندامة[1]، ولذلك فإنّ اللعب واللهو كلاهما يشغلان الإنسان ويصدّانه عمَّا يهمّه.

وما نراه في المقام هو أنَّ الحياة الدنيا إنّما اتصفت بذلك لأنَّ الغالب على الناس الاغترار بما هو زائف فيها؛ فالحياة الدنيا ليست كلُّها لهواً ولعباً، ففيها العمل الصالح، وفيها الجهاد في سبيل الله، وهي ساحة عمل الأنبياء والأئمّة والأولياء والصالحين والمصلحين، وهي ساحة العمل والتقوى، فأُريد من اللعب واللهو وصف تلك الأمور الدنيوية الخالصة، التي تبدأ وتنتهي في الدنيا، بخلاف العمل الصالح والجهاد في سبيله؛ فإنّ الله تعالى يزكّيه ويرفعه إليه. قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠)؛ فالوصف خاصّ بالأعمال التي تحجب الإنسان عن السعي عن تحصيل كماله الحقيقي، وتُمضي عمرَه بالمُلهيات التي لا جدوى حقيقي منها، وحيث إنَّ هذه المُلهيات غالبية الحضور في سلوك الإنسان فقد وُصفت الحياة الدنيا بها، فكانت مجرّد لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، وهذه الأُمور الخمسة ليست باقية للإنسان، ولا يأخذ منها شيئاً؛ فهي إمّا أن تزول في حياته أو يزول عنها، وهذا أمر حتميّ ولا ريب، بخلاف العمل فإنّه قرين الإنسان، صالحاً كان أو طالحاً، إلّا أنَّ الصالح منه يرفعه ويجعله في مقام

---

(١) انظر: التفسير الصافي، للشيخ المولى محسن الفيض الكاشاني، الناشر: مكتبة الصدر، طهران، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ: ج٥ ص١٣٧.

الأحسنية، والعمل الطالح يخفضه ويرديه إلى مقام أسفل سافلين، أو قل: إنّ ما ينتمي للدنيا خافض لمقام الإنسان، وما ينتمي للآخرة رافع له؛ قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١).

ونكتة أُخرى أيضاً، وهي: أنَّ الحياة الدنيا إنّما وصفت بذلك لأنّها زائفة زائلة كما هو حال اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، فلا ينبغي الاغترار بأمر زائل والتقاتل عليه، والخلاصة: أنَّ كلَّ ما يُقرِّب لله تعالى فإنَّ صفته البقاء، وأنّه ليس من هذه الأُمور الخمسة بشيء، وكلّ ما يُبعِّد عن الله تعالى فإنّه زائل، وهو مُنتمٍ لهذا الأُمور الخمسة، أعني: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر.

وأمّا السرّ في هذا الترتّب الخماسي بين (اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد) فقد تعرَّض لبيانه الشيخ البهائي، حيث يقول: «إنَّ الخصال الخمس المذكورة في الآية مترتّبة بحسب سِنيّ عمر الإنسان ومراحل حياته، فيتولّع أوّلاً باللعب وهو طفل أو مراهق، ثمّ إذا بلغ واشتدّ عظمه تعلّق باللهو والملاهي، ثمّ إذا بلغ أشدّه اشتغل بالزينة من الملابس الفاخرة والمراكب البهيّة والمنازل العالية وتولّه للحُسْنِ والجمال، ثمّ إذا اكتهل أخذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب، ثمّ إذا شاب سعى في تكثير المال والولد»[١]، وإنّما الحياة الدنيا لهو ولعب لأنّها دار نقص وقصور وفناء، وكلّ شيء قابل للفناء فهو مجرّد لهو ولعب، سرعان ما تختفي عينه، ويزول أثره.

بعبارة أُخرى: إنَّ ساعات اللهو واللعب في حياة العقلاء قليلة، وساعات

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، للسيد العلاّمة محمد حسين الطباطبائي، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدَّسة: ج١٩ ص١٦٤.

العمل عندهم كثيرة، وهكذا الحياة الدنيا فساعاتها قليلة وأيّامها قصيرة، وممّا يزيد في قصرها شدَّة الغفلة فيها، ومعنى الغفلة فيها هو الاشتغال بها والغفلة عمّا سواها، وذلك هو الغرور والاغترار بها، بل وذلك هو العمى، كما جاء في الخبر، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «**ما أصف من دار أوّلها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، مَن استغنى فيها فتن، ومَن افتقر فيها حزن، ومَن ساعاها فاتته، ومَن قعد عنها واتته، ومَن أبصر بها بصّرته، ومَن أبصر إليها أعمته**»[1]، وما أُنسنا بها إلّا صورة تحكي عظيم غفلتنا، وهي غفلة تُشابه إلى حدٍّ كبيرٍ السبات العميق الذي تكاد أن تغيب فيه الهوية والملامح، ولا يبقى إلّا أثر أو شبح لا يرسم ظلًّا، ولا يدفع ضرراً.

وأخيراً: إنّ هذه الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة لأنّها الدار الوحيدة التي يُعصى فيها الله تعالى، وما دامت المعصية واقعة فهي ليست دار جدٍّ، وإنّما هي دار لهو ولعب.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص١٣٠ خطبة: (٨٢)، في بيان صفة الدنيا.

قال السيد الشريف الرضي: «إذا تأمّل المتأمّل قوله عليه السلام: (**من أبصر بها بصّرته**)، وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا تُبلغ غايته، ولا يُدرك غوره، ولاسيّما إذا قرن إليه قوله: (**ومن أبصر إليها أعمته**)، فإنّه يجد الفرق بين (**أبصر بها**)، و (**أبصر إليها**)، واضحاً نيّراً وعجيباً باهراً». (المصدر نفسه).

الوسطية في القرآن والسنّة

- توطئة
- معنى الوسطية
- العلاقة بين الوسطية والاعتدال
- لطائف حول آية الوسطية
- الاستعمال القرآني لمفهوم الوسطية
- الاستعمالات القرآنية للوسطية بألفاظ أخرى
- الوسطية في السنّة الشريفة
- وسطية الصراط المستقيم
- الوسطية الفردية والاجتماعية
- الوسطية في العلم والعمل
- الوسطية بين الصراع والحوار
- إجمال ثمرات الوسطية
- علاقة الوسطية بالإيمان
- تذييل

توطئة

أدعياء الوسطية كثيرون، والذين يجهلون معناها منهم كثيرون أيضاً، وبين الادّعاء للوسطية والجهل بها تفاقمت في أوساطنا المشكلات الفكرية والعقائدية، ولو فتّشنا في كلمات الكثيرين من أدعياء الوسطية نجدهم من أصحاب الفتن في الأرض، طائفيين وتكفيريين وإقصائيّين، لأنّهم ـ وببساطة ـ يرون أنفسهم على الحقّ، وحيث إنّهم فيما بينهم مختلفون ومتنافرون، فإنّ واقع الحال سيكون هو ما نحن عليه، من تمزّق وتشرذم. ومن أين تأتي الوسطية وكلّ فرقة ترى نفسها على الحقّ والباقي على الباطل؟ ومعنى كونها على الحقّ هو تزييف الآخر، والعمل على إقصائه والقضاء عليه، فالسلفية التكفيرية تتبجّح بالحقّ وتدّعي الوسطية، يكفرّون كلّ ما عداهم وهم وسطيون!! وأهل الشيعة يرون أنفسهم وحدهم على الحقّ والآخرين على الباطل، فيرون الآخر مخطئاً أو ضالًّا أو ناصبياً، ومع ذلك يرون أنفسهم وسطيين، وهكذا الأشعرية من أهل السنّة والجماعة يرون لأنفسهم ذلك، وهم مع ذلك وسطيون!

كيف نكون وسطيين ونحن لا نرى للآخر فرصة سانحة أن يكون فيها على الحقّ، ولو في بعض ما هو عليه؟ فما هي الوسطية؟ وما هو موقف القرآن الكريم منها؟ وهل نحن قرآنيون في وسطيتنا المدّعاة؟ فالقرآن ـ على سبيل المثال ـ يُسمّي كلّ من يصدّق بوجود الله تعالى ووحدانيته واليوم الآخر مؤمناً، فهل نحن نراه كذلك؟ والقرآن ـ على سبيل المثال ـ يرى أهل الكتاب مؤمنين، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ**

عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢)، فهل نحن قرآنيون، فنرى ما يراه القرآن في ذلك؟ والقرآن يرى كلّ من آمن بالله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله مسلماً مؤمناً؛ قال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** (النور: ٦٢)، فهل نحن نرى ما يراه القرآن لنا، أم كلّ فرقة تختصر الإيمان بها، وتحبسه عن الآخرين، ثمّ نقول نحن قرآنيون، ونحن وسطيون!!

وحيث إنّنا نرى لأنفسنا ما لا نراه للآخر، فلا نحن قرآنيون، ولا نحن وسطيون، وهذا يجعلنا ملزمين بالبحث والتحقيق في هذه الوسطية القرآنية التي أرادها الله تعالى لنا، وليست وسطية الأديان والمذاهب، وليست وسطية الاجتهاد مقابل النصّ، وليست وسطية الأدعياء لها من غير تطبيق.

إنّها الوسطية التي تجعل صاحبها ينظر إلى الآخر على أنّه ليس أدنى منه، ووسطية تحتمل الحقّ في الآخر، ووسطية تنظر للحقّ من غير إسقاطات مسبقة، إنّها الوسطية القرآنية التي تنطلق من مبدأ تكريم الإنسان: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾** (الإسراء: ٧٠)، ومبدأ الاحترام والتقدير وحسن الظنّ بالآخر: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾** (الحجرات: ١١).

ووسطية النبوّة الخاتمة التي تنطلق من مبدأ: أن تحسن الظنّ بالآخر، وأن ترى الخير فيه ما تراه في نفسك، فعن الرسول صلّى الله عليه وآله: «**لم يُعبد الله عزّ وجلّ بشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشرّ منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثير الخير من نفسه ... والعاشرة: وما العاشرة! لا يرى أحداً إلّا قال: هو خير منّي وأتقى. إنّما الناس رجلان، فرجل هو خير منه وأتقى، وآخر هو**

شرّ منه وأدنى، فإذا رأى من هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا لقي الذي هو شرّ منه وأدنى قال: عسى خير هذا باطن وشرّه ظاهر، وعسى أن يُختم له بخير»[1].

كما أنّ وسطية العترة الطاهرة عليهم السلام تنطلق من مبدأ أخلاقي وعقلائي وإنساني، وهو مداراة الناس في القول والعمل، ففي ذلك استواء العيش، وراحة للنفس والبال، وكسب للمودّة، وخلاص من الكراهية والعداوة؛ لأنّ المداراة هي مسايرة ومجاراة وملاطفة الناس، وحسن معاشرتهم مع اتّقاء من شرّهم[2]، أو هي: «قريب من الرفق معنى، لأنّها

---

(١) الخصال، مصدر سابق: ص٤٣٣ ح١٧؛ أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص١٥٣ ح٥؛ تحف العقول، مصدر سابق: ص٤٤٣.

وقد روى ابن عساكر وغيره ما هو قريب من هذا الخبر، وفيه: «**العاشرة ما العاشرة! هي التي شاد بها مجده، وارتفع بها ذكره، ورقي بها في معالي الدرجات من الدارين جميعاً، يرى أنّ جميع الناس خير منه، وأنّه شرّهم، وإنّما الناس فريقان ورجلان، ففريق هو خير منه وأفضل، وفرقة هي أشرّ منه وأدنى، فهو يتواضع للفريقين جميعاً، إن هو رأى من هو خير منه كسر ذلك في درعه وتمنّى أن يلحق به، وإن هو رأى من هو أشرّ منه وأدنى قال: فلعلّ هذا ينجو وأهلك أنا، ولعلّ برّ هذا باطن لا يظهر وهو خير له، وبرّي ظاهر وهو شرّ لي**». كتاب الإيمان، محمد بن يحيى العدني (ت: ٢٤٣هـ)، تحقيق: حمد بن حمدي الجابري الحربي، الناشر: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ: ص١٢٠؛ شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٨ ص٢٤٩؛ تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي، دراسة وتحقيق: علي شيري، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ: ج٤٩ ص٢٢١.

(٢) انظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ: ص٥٢٢ رقم (٢١٠٣)؛

ملاءمة الناس، وحسن صحبتهم، واحتمال أذاهم، وربما فرّق بينهما باعتبار تحمّل الأذى في المداراة دون الرفق»[1]، ولا ريب أنّ المداراة في القول والعمل ـ والتي يُعبّر عنها بأنّها رأس العقل ونصف الإيمان[2] ـ هي الملاك العقلائي في التعاطي مع الناس وتحقيق معنى الوسطية في ذلك، ولذلك شكّلت منطلقاً عملياً عند أهل البيت عليهم السلام؛ فعن مدرك بن الهزهاز قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**يا مدرك رحم الله عبداً اجترّ مودّة الناس إلى نفسه، فحدّثهم بما يعرفون، وترك ما ينكرون**»[3]، وفي خبر آخر عن عبد الأعلى قال:

معجم لغة الفقهاء، تصنيف: الدكتور محمد قلعجي والدكتور حامد صادق قنيبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م: ص٤١٧.

(١) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر، تقديم: الشيخ محمد رضا المظفّر، منشورات مطبعة النعمان، النجف الأشرف: ج١ ص٢٧٠.

(٢) عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**مداراة الناس نصف الإيمان**». الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١١٧ ح٥؛ تحف العقول، مصدر سابق: ص٤٢. وعنه صلّى الله عليه وآله: «**رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس في غير ترك حقّ**». مصنّف ابن أبي شيبة، مصدر سابق: ج٦ ص١٠٢ ح٣؛ العلل ومعرفة الرجال، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتخريج: الدكتور وصي الله بن محمد عباس، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ودار الخاني للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ: ج٢ ص٢٨٤؛ تحف العقول، مصدر سابق: ص٤٢؛ الكامل، للحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، ويحيى مختار غزاوي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ: ج٣ ص٢٤٩؛ كتاب العقل وفضله، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا البغدادي (ت: ٢٨١هـ)، تحقيق: لطفي محمد الصغير، الناشر: دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ: ص٤٥.

(٣) الخصال، مصدر سابق: ص٢٥ ح٨٩؛ الأمالي، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي

سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنّه ليس من احتمال أمرنا التصديق له والقبول فقط، من احتمال أمرنا ستره وصيانته من غير أهله فأقرئهم السلام وقل لهم: رحم الله عبداً اجترّ مودّة الناس إلى نفسه، حدّثوهم بما يعرفون واستروا عنهم ما ينكرون،** ثمّ قال: **والله ما الناصب لنا حرباً بأشدّ علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره ...**»[1].

وهنا تكمن المداراة القولية والعملية، فلا يجلب لنفسه عداوات تستنزف جهده وطاقته، ولا يقحم نفسه في إثارة نعراتٍ يكون له رأي مخالف فيها، فليس في ذلك النصفة لنفسه ولا هو من النصفة لغيره.

معنى الوسطية

لكلمة (وسط) في اللغة عدّة معانٍ مُتقاربة، ففي المقاييس: حروف (و، س، ط) بناء صحيح يدلّ على العدل والنّصف، فأعدل الشيء: أوسطه، ووسطه، كما هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ (البقرة: ١٤٣)، والعرب تسمّي الرفيع الحسب النسب بالأوسط حسباً ونسباً، فيقولون: أوسطنا حسباً ونسباً، أي: أرفعهم وأفضلهم محلاً[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا**

بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ: ص١٥٩ ح٧؛ أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٨٦ ح٤٠.

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٢٢ ح٥.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، ١٤٠٤هـ، الناشر: اتحاد الكتّاب العرب، سوريا، الطبعة: ٢٠٠٢م: ج٦ ص١٠٨، مادّة: (وسط).

تُسَبِّحُونَ﴾ (القلم: ٢٨)، أي: قال أفضلهم وأعدلهم وخيرهم وأمثلهم وأعقلهم(١)، وأمّا ما قيل: بأنّ المراد أوسطهم سنّاً فليس بشيء(٢)، وهو ما فهمه حبر الأمّة عبد الله بن عباس، فقد قيل له: «يا ابن عباس كان أوسطهم في السنّ؟ فقال: لا بل كان أصغرهم سنّاً، وأكبرهم عقلاً، وأوسط القوم خير القوم، والدليل عليه في القرآن إنّكم يا أمّة محمد أصغر الأمم وخير الأمم، قال الله: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾** (البقرة: ١٤٣)»(٣).

وفي كتاب العين: «الوسط من الناس وكلّ شيء: أعدله، وأفضله، ليس بالغالي ولا المقصّر»(٤)، وقيل بوجود فرق بين (وسَط) بفتح السين، وبين (وسْط) بسكونها، ولكنّ الصحيح أنّ كلاًّ منهما يأتي في موضع الآخر، كما

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦ ـ ٢١١هـ)، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ: ج٣ ص٣١٠؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، نشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة ١٤١٥هـ: ج٢٩ ص٤٢ ح٢٦٨٦٢، ح٢٦٨٦٣؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٠ ص٩٣؛ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، نشر: مؤسسة التأريخ العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ: ج٢ ص١٥٣؛ ج١٨ ص٢٤٤.

(٢) انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٩ ص٣٧٤.

(٣) تفسير القمّي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمّي، تصحيح: السيد طيّب الجزائري، نشر: مؤسسة دار الكتاب، قم، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ: ج٢ ص٣٨١؛ التفسير الصافي، مصدر سابق: ج٥ ص٢١٢؛ مستدرك الوسائل، للميرزا حسين النوري الطبرسي، الناشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ: ج٧ ص٩٧.

(٤) كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، انتشارات هجرت، قم المقدّسة، ١٤١٠هـ، الطبعة الثانية: ج٧ ص٢٧٩.

يرى ذلك ابن الأثير، حيث يقول: «قيل: كلّ ما يصلح فيه (بين) فهو بالسكون، وما لا يصلح فيه (بين) فهو بالفتح، وقيل: كلّ منهما يقع موقع الآخر، وكأنّه الأشبه»[1].

ولو تأمّلنا في وسطية هذه الأمّة بين الأمم الأخرى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ (البقرة: ١٤٣)، سنجد أنّ الملاحَظ أوّلاً وبالذات هو الامتياز في العقيدة والشريعة والأخلاق على سائر الأمم، بالنحو الذي يقيها من الانفراط في إحدى دائرتي الإفراط والتفريط، بمعنى اشتمال الإسلام على أفضل الصفات وأجلّها وأنبلها، وإلّا لم يكن وسطاً وضابطاً ومعياراً للكشف عن الإفراطيين والتفريطيين، فلا نبلغ درجة التقتيل والتكذيب للأنبياء والأئمّة والصالحين، كما فعل ذلك شطر كبير من اليهود، ولا نكون من الذين رفعوا الأنبياء والأئمّة والصالحين إلى مقامات بلغت بهم مقام الألوهية، كما فعل ذلك شطر كبير من النصارى، وإنّما يكون من المسلمين ـ كممثّلين عن أمّة الإسلام ـ شهداء على الأمم في الدار الآخرة؛ نتيجة اتصافهم والتزامهم بالقيم المميّزة لهم، والتي في ضوئها جُعلوا شهداء على غيرهم، فليس كلّ المسلمين سيكونون شهداء على الأمم الأخرى، وكيف يكون ذلك وفي الأمّة طغاة وفسقة وضالّون؟ وإنّما هو مقام خاصّ بالصالحين من هذه الأمّة، ممّن بلغوا بأعمالهم الخيّرةِ الجنةَ والرضوان، فهؤلاء سيكونون أهلاً لتولّي مقام الشهادة، وإلّا لا معنى أن يشهد فاسق أو ضالّ أو قاتل أو طاغٍ من هذه الأمّة على الأمم الأخرى، فالشهادة في الدنيا تقتضي الوثاقة

---

(١) النهاية في غريب الحديث، للإمام مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت:٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناجي، نشر: مؤسسة إسماعليان، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٣٦٤ ش: ج٥ ص١٨٣.

والعدالة، فكيف بها في الدار الآخرة؟

من هنا يمكن القول بأنّ المعنى الاصطلاحي للوسطية، والذي يترشّح ممّا تقدّم هو: (أنّ الوسطية هي الطريقة الأمثل في العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك، فلا إفراط متطرّف، ولا تفريط مُضلّل)، وما وقع من الأمّة في الأمّة وفي غيرها من الأمم ما هو إلّا نتاج طبيعيّ للخروج من حيّز الوسطية القرآنية ودخول في إحدى دائرتي الإفراط أو التفريط.

العلاقة بين الوسطية والاعتدال

مفهوم الاعتدال في اللغة، من العدل، وهو ما قام في النفوس أنّه مستقيم، كالعدالة، وهو ضدّ الجور[١]، والاعتدال توسّط حال بين حالين، في كمٍّ أو كيفٍ، وكلّ ما تناسب فقد اعتدل، وكلّ ما أقمته فقد عدّلته، والعدول: هم الخيار[٢]، فيكون مقارباً لمعنى الوسطية والتوسّط.

أمّا اصطلاحاً، فالاعتدال هو المنهج الوسطي بين الإفراط والتفريط، سواء كان في النظر أو في السلوك، فيكون مقارباً إلى حدّ كبير من معنى الوسطية؛ فكلاهما يمثّلان الطريقة المثلى فيما نتبنّاه وفيما نتّخذه من مواقف عملية.

وقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**الوسط: العدل**»[٣].

---

(١) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، الناشر: دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، الطبعة الثالثة: ج١١ ص٤٣٠.

(٢) انظر: القاموس المحيط، مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي، الناشر: دار المعرفة، بيروت: ج٤ ص١٣.

(٣) صحيح البخاري، الناشر: دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ: ج٤ ص١٠٥؛ سنن الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر: دار الفكر، ١٤٠٣هـ: ج٤ ص٢٧٥ ح٤٠٤٠.

مصاديق الوسطية القرآنية

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣)، وهنا يُمكن أن نتصوّر عدّة مصاديق للوسطية، منها:

١. الوسطية في التعاطي مع مقتضيات تركيبة الإنسان

إنّ الإنسان مكوّن من جزء مادّي وهو البدن، وآخر مجرّد وهو الروح، وكلّ جزء له متطلّباته، ولا يصحّ الإفراط في تلبية حاجات جزء والتفريط في تلبية حاجات الجزء الآخر، فلابدّ من مراعاة الأمرين معاً، ولو راجعنا الشرائع السماوية السابقة على الإسلام ـ اليهودية والمسيحية ـ نجدهما قد وقعتا في دائرتي الإفراط والتفريط. فاليهودية اهتمّت بالجزء المادّي وأفرطت في ذلك، وأهملت الجزء الروحي وفرّطت فيه، ولذلك نجد اليهود هم أشدّ الخلق حبّاً للدنيا، معتبرين العامل الاقتصادي هو عصب الحياة، غير ملتفتين إلى أهمّية القيم الروحية والمعنوية، حتى بلغ حرصهم على الحياة الدنيا أن ارتضوا منها حياة الذلّ والهوان، فقبعوا تحت نير الفراعنة دون انتفاضة منهم من أجل الحفاظ على حياتهم. فهم ـ بعبارة قرآنية وصفت أحوالهم في حبّهم للحياة الدنيا ـ ﴿...أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ...﴾ (البقرة: ٩٦)، فمع أنّ المشركين لا يؤمنون بالمعاد، إلّا أنّ اليهود قد فاقوهم حرصاً وتعلّقاً بالحياة، فهم: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أشدّ حرصاً على حياة؛ لأنّ بني إسرائيل ـ كما هو المعروف عنهم ـ لديهم اعتقاد ما بالآخرة، ولكنّهم يُدركون ما ستفضي إليه مخالفاتهم وعصيانهم لأنبيائهم ومحاربتهم للنبي الخاتم صلّى الله عليه وآله من حساب وعقوبة، لاسيّما الكثير من علمائهم الذين كانوا يعرفون الحقّ

ويدركون لزوم متابعته، ولكنّهم غلبتهم شقوتهم وخشيتهم على ما كانوا يتنعّمون به في الدنيا من مواقع ومناصب وجاه ومالٍ، ولذلك كان عزاؤهم هو التمسّك بأيّ حياة، فهي على ذلّها وهوانها تُنسيهم ما ينتظرهم من حساب وعقاب، بخلاف المشركين فهم وإن كانوا من أبناء الدنيا وعشّاقها إلّا أنّهم لم يكونوا أشدّ حرصاً من اليهود على الحياة؛ لأنّهم لا يعتقدون بالآخرة فلا يخشون عذاباً، وحيث إنّ اليهود لم يعرفوا غير التمسّك بالحياة، بل أيّ حياة، كما وصفتهم الآية: ﴿**أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ**﴾، فقد كانوا يتمنوّن الخلود في الدنيا، أو بحسب التعبير القرآني: ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾.

وأمّا المسيحية فقد اهتمّت بالروح وأفرطت في ذلك، وأهملت البدن وفرّطت فيه، حتى انتشرت عندهم ظاهرة الرهبنة والانقطاع عن تفاصيل الحياة؛ قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾ (الحديد: ٢٧)، حيث أهملوا مقتضيات البدن، وانجرفوا لمقتضيات الروح، فلم يُحصّلوا الفضيلة الكاملة، فالتنكّر لمقتضيات البدن يولّد انفجاراً وضغوطاً نفسية خطيرة، وهذا ما حصل لكثير منهم، حتى اضطرّ بعضهم إلى سنّ الزواج للراهب خشية السقوط في مستنقع الرذيلة، فكان الانقطاع عن الحياة ومقتضيات الفطرة سبباً في تفاقم الصراعات النفسية.

ولمّا جاء الإسلام بنى على أصل الوسطية في التعاطي مع البدن والروح، فلا إفراط ولا تفريط، وهذه هي الموازنة المطلوبة، والتي منها الموازنة بين الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (القصص: ٧٧)، ولذلك نجد الإسلام في الوقت

الذي حثّ فيه على الصلاة الخاشعة: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٢)، فإنّه قد جعل الزواج سنّة مطلوب تحقيقها، ولّما علِم رسول الله صلّى الله عليه وآله بانقطاع بعض الصحابة إلى العبادة وترك ما أحلّه الله تعالى لهم من طعام وشراب وزينة ونكاح نهض صلّى الله عليه وآله خطيباً ومندّداً بذلك بقوله: «**ما بال أقوام من أصحابي لا يأكلون اللحم، ولا يشمّون الطيب، ولا يأتون النساء، أما إنّي آكل اللحم، وأشمّ الطيب، وآتي النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**»[1].

وهذا ما فهمه الصحابي سلمان الفارسي، ونصح به أحد الصحابة، عندما أراد الأخير أن يتعبّد ويعتزل الحياة والنساء، فعرّفه بما هو الصحيح في ذلك، وهو الالتزام بدين الوسطية التي نزل بها القرآن الكريم، وجاء بها رسول الله صلّى الله عليه وآله[2].

---

(١) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٥ ص٤٩٦ ح٥؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج٣ ص٢٨٥؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٤ ص١٢٩؛ السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي الشافعي (ت: ٣٠٣)، تحقيق: د. عبد الغفّار سليمان البنداري وسيّد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ: ج٣ ص٢٦٤ ح٥٣٢٤.

(٢) روى عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: «آخى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أمَّ الدرداء متبذّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع (سلمان) له طعاماً، فقال: كل، قال: فإنّي صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلمّا كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال ـ سلمان ـ: نم، فنام، ثمّ ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن. فصلّيا، فقال له سلمان: إنّ لربّك عليك حقّاً، ولنفسك عليك حقّاً، ولأهلك عليك حقّاً، فأعط كلّ ذي حقّ حقّه، فأتى ـ أبو الدرداء ـ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فذكر ذلك له، فقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: **صدق سلمان**». صحيح

فالوسطية في الإسلام هي الجمع بين الصلة بالله تعالى والصلة بالناس، وعدم الدخول في الإفراط والتفريط، فلا يهودية مادّية، ولا نصرانية روحية، وإنّما هي شجرة مثمرة جامعة بين الأمرين، وبتعبير إشاريّ قرآنيّ: ﴿**شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ**﴾ (النور: ٣٥)، أي: شجرة مثمرة، لا شرقية نصرانية، ولا غربية يهودية، أو هي شجرة وسطية لا إفراطية ولا تفريطية[1].

٢. الوسطية بين الشدّة المفرطة والضعف المفرط

لقد جمع الإسلام ـ وضمن محوريّته القرآنية ـ بين الحزم والسماحة في بنائه وثقافته التربوية والسلوكية، في حين لو راجعنا التربية التلمودية والتزمُّت الكنائسي[2]، حيث القسوة في التربية وفي نشر تعاليمها، في حين نجد التساهل

البخاري، مصدر سابق: ج٢ ص٢٤٣؛ ج٧ ص١٠٤؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٤ ص٣٣ ح٢٥٢٦؛ المجموع (شرح المهذّب)، للإمام أبي زكريا محيى الدين بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، نشر: دار الفكر، بيروت: ج٦ ص٣٩٥؛ المحلّى، للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ)، تحقيق: الأستاذ أحمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت: ج٦ ص٢٩٦؛ الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ: ج٢ ص٣٠٩.

(١) ربما يستفاد من اصطلاح الشرقية الإشارة إلى الروح، ولذلك يُعبّر عن بلاد المشرق ببلاد الروح والروحانيات، كما يستفاد من اصطلاح الغربية الإشارة إلى البدن، ولذلك يُعبّر عن بلاد الغرب بالمادّة والمادّيات، وإذا ما اعتبرنا السيد المسيح عليه السلام رمزاً للروحانية فقد جاءت الإشارة لذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً**﴾ (مريم: ١٦)، وإذا ما اعتبرنا النبي موسى عليه السلام رمزاً للقوّة: ﴿**فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ**﴾ (القصص: ١٥)، فقد جاءت الإشارة لذلك في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ (القصص: ٤٤).

(٢) يحتلّ التلمود مكانةً هامّة داخل الديانة اليهودية، ويعتبر الركن الأساسي فيها، وما يعرف

المفرط في التربية المسيحية، مستغلّين فكرة الافتداء الخاطئة، وأنّ السيد المسيح عليه السلام قد تحمّل خطايا أتباعه، فيكون كلّ ما يصدر منهم معفوّاً عنه ومغفوراً لهم، ويكفي للمذنب منهم أن يقف في جلسة شبه سرّية أمام نافذة مغطّاة ومطلّة على غرفة ضيّقة، يقطنها قسيس، ليعترف المذنب بذنبه، فيتلقّى البشارة بالعفو والنصيحة بعدم العود لذلك! وهكذا كلّما تكرّر الذنب منه يعود مسرعاً لتلك الغرفة السرّية، غرفة الغفران، فيتوب ويُبشّر المغفرة، فلا عقوبة ولا كفّارة عمّا وقع، في حين نجد الإسلام قد فتح أبواب التوبة ولكنّه لم يغضّ الطرف عن العقوبة، فالتوبة أثرها أخروي، والعقوبة أثرها دنيوي، وهذه هي الحياة الوسطية، فلا معنى للحياة العادلة بلا قصاص: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٧٩)، ولا معنى للحياة الكريمة بلا عفو: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾ (البقرة: ٢١٩)، فالتوبة محفوفة بالعفو: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ**﴾ (الشورى: ٢٥)، ولذلك أمر بالعفو: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (النور: ٢٢)، إنّها وسطية الإسلام في التربية وفي السير والسلوك: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصّلت: ٣٤)،

باليهودية الربّانية ليست سوى تلك اليهودية التلمودية التي تدين إلى الربّاني يهوذا بن سيميون بن جامليل (١٣٥-٢١٧م). والتلمود هو مجموعة قواعد ووصايا وشرائع دينية وأدبية ومدنية وشروح وتفاسير وتعاليم وروايات تتناقلها الألسن، وعليه فالتربية التلمودية هي التعاليم التي يُدّعى انتسابها إلى نصوص التوراة، وتمثّل شريعة بني إسرائيل التي اجتمعت فيها الشدّة والعنف والخرافات والتجاوزات على مقام الله تعالى والأنبياء بشكل منقطع النظير، من قبيل نسبة الخطأ إلى الله تعالى وأنّه مصدر الشرّ أيضاً.

وبهذه الوسطية التربوية، والارتقاء السلوكي، حيث الحزم عند اللزوم، والسماحة عند اللزوم تكون العدالة.

٣. الوسطية بين الشيوع في الملكية وبين التفرّد في كلّ شيء

فلا نفي للملكية العامّة ولا نفي للملكية الخاصّة، فالدولة تملك، والرعيّة تملك، وملكية الدولة لا تبلغ حدّ الشيوع، وملكية الفرد لا تبلغ حدّ الرأسمالية، وبالتالي لا فردية تتحكّم بمصير الشعب وانتهاك حقوقه، ولا شيوعية تسلب عن الفرد خصوصيّته في التمليك، فوسطية الإسلام هي أنّها تسمح بالملكية الخاصّة ضمن حدود معيّنة، بحيث لا تمكّن أصحاب رؤوس الأموال من الاحتكار والتحكّم بمصير الأمّة، كما أنّها تسمح بملكية الدولة العامّة ضمن حدود لا تتجاوز فيها على الحقوق الشخصية للفرد.

ولو نظرنا إلى النظام الاشتراكي الإفراطي في الملكية العامّة والتفريطي في الملكية الخاصّة، وإلى النظام الرأسمالي الإفراطي في الملكية الخاصّة والتفريطي في الملكية العامّة، فإنّنا سنجد غياب الوسطية، ولذلك من الطبيعي أن يقع الظلم من دولة الشيوعية للأفراد، والظلم من دولة الرأسمالية للدولة نفسها، وما نراه من الانقسامات على مبدأي الاشتراكية والرأسمالية إنّما هي محاولات علاجية للأخطاء الواقعة منهما، وفي كلا النظامين هنالك نقطة مشتركة دائماً، وهي الظلم الشديد، إمّا للفرد أو للدولة، وإذا كانت الرأسمالية الغربية لا تُوقع ظلماً على دولها وحكوماتها[١]، فذلك لأنّها قد تصالحت مع عمّالها وكوادرها، ونقلت تناقضاتها وصراعاتها إلى مجتمعات أخرى استضعفتها واستهلكت منها قواها وطاقاتها، كما هو حال أفريقيا والكثير من دول أسيا

(١) سيأتي بيان الفرق بين الدولة والحكومة.

وأميركا اللاتينية، المستضعفة من قبل أمريكا والغرب[١].

٤. الوسطية في التعاطي مع الأنبياء عليهم السلام

فلا يُرفعون إلى مقام الألوهية كما فعل كثير من النصارى مع السيد المسيح، ولا أن يُهبَط بهم إلى مستوى الإنسان العادي، كما فعل كثير من اليهود مع موسى وهارون عليهم السلام، اللذين لم تكن لهما طاعة من الرعيّة، وكأنّهما شخصان عاديّان، في حين أقرّ الإسلام ببشرية الأنبياء عليهم السلام، ولكن ميّزهم بالوحي؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠) فهم بشر وعبيد لله تعالى قد اجتباهم وأوحى لهم وجعلهم أنبياء، وفرض على أممهم الطاعة لهم: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ (آل عمران: ١٣٢).

٥. الوسطية صفة لاحقة لأمّة الإسلام تتعلّق بالشهادة

حيث جُعلت الأمّة واسطة بين الرسول صلّى الله عليه وآله وبين عامّة الناس؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣)، ولام التعليل في قوله: ﴿لِتَكُونُواْ﴾ تشير إلى وسطية شهادة الأمّة بين الرسول والناس، فالرسول صلّى الله عليه وآله شاهد على الأمّة، والأمّة شاهدة على سائر الناس.

٦. الوسطية بمعنى العدل والفضل والرفعة

يقال: أعدل الشيء: أوسطه، وقد تقدّم أنّ العرب قد ألفوا هذا المعنى، فكانوا يسمّون الرفيع الحسب النسب بالوسط أو الأوسط[٢]، وقد فُسّر قوله

---

(١) تعرّض أستاذنا السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدّس سرّه إلى هذه المسألة الدقيقة والحساسة في بحثه التفسيري والفكري (عناصر المجتمع)، وذلك في كتابه القيّم (المدرسة القرآنية)، حيث قدّم تحليلاً دقيقاً للنظام الرأسمالي واستغلاله للشعوب. (منه دام ظله).

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق: ج٦ ص١٠٨، مادّة: (وسط).

تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ (القلم: ٢٨) بأنّ القائل كان أفضلهم وأعدلهم وأمثلهم وأعقلهم[١]، وليس أوسطهم سنّاً[٢]، وهذا ما أكّده ابن عباس عن ذلك، كما تقدّم أيضاً[٣].

عود على بدء

الآن بعد هذا التصوير للوسطية نعود للتساؤل عن الوسطية، فعلى مستوى الشرقية الروحية والغربية المادّية ـ المُشار لهما في المصداق الأوّل ـ يُمكن ملاحظة وسطية الإسلام بجامعيته لمقتضيات الروح والجسد، فنحن لسنا مادّيين إلى حدّ إحلال الربا وجعله ضرباً من التجارة المباحة، كما لسنا روحانيين إلى حدّ الرهبنة والعزلة، وكيف نكون كذلك وقد كان النبي الخاتم صلّى الله عليه وآله ـ كما تقدّم ـ يندّد بالرهبنة، ويحذّر أصحابه منها؟ حيث كان يقول: «**ما بال أقوام من أصحابي لا يأكلون اللحم، ولا يشمّون الطيب، ولا يأتون النساء؟! أما إنّي آكل اللحم، وأشمّ الطيب، وآتي النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**»[٤]، حيث يذكر جملة من ضروريات الحياة وبعض زينتها، ليكون ذلك درساً وردعاً للمنزوين عن الحياة، وللبعيدين عن الوسطية القرآنية.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (الصنعاني)، مصدر سابق: ج٣ ص٣١٠؛ جامع البيان، مصدر سابق: ج٢٩ ص٤٢ ح٢٦٨٦٢، ح٢٦٨٦٣؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٠ ص٩٣؛ الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق: ج٢ ص١٥٣؛ ج١٨ ص٢٤٤.

(٢) انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٩ ص٣٧٤.

(٣) في بحث (معنى الوسطية)، فراجع.

(٤) تقدّم تخريج الحديث.

وأمّا على المصداق السادس (العدل والفضل والرفعة)، فالمعنى يكون أكثر تطابقاً وتوجيهاً، وإنّما بلغت أمّة الإسلام هذا المقام لأنّها بحسب مبادئها القرآنية في نأي عن الإفراط والتفريط، فهي أمّة العدل والفضل والعقل والخير والرفعة، فهي أوسط الأمم، بين التطرّف والتساقط، وبعبارة أخرى: إنّ وسطية الأمّة عقائدية وشرعية وأخلاقية وتربوية، أو قل بأنّها وسطية قائمة على أسس ثابتة، وقيم سليمة، وهي: التوازن في المعطيات، والاعتدال في التبنّي والتنفيذ.

ولأنّ هذه الأمّة المسلمة قد سلكت الطريقة الوسطى، حيث التوازن والاعتدال، فإنّها قد أُنيطت بها مهمّة عظيمة، تكشف عن مقامها ودورها في مصائر الأمم: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾، والشهداء جمع (شاهد)، والشاهد اسم فاعل، أي: الذات المتّصفة بالشهادة، والشهادة بحسب الظاهر هي الشهادة على الناس بعقائدهم وأعمالهم التي خالفوا فيها الإسلام والنبوّة الخاتمة، فهم الأشهاد على الخلق؛ قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ (غافر: ٥١)، ومقتضى إشهادهم على الناس والأمم هو القبول بشهادتهم، فيكون المعنى: لتكونوا حجّةً على الناس، والحجّة ماضية شهادته فيما يشهد عليه، ليتبيّن الحقّ من الباطل، وإنّما سُمّي الشاهد شاهداً لأنّه يُبيّن، ولذلك سُمّيت الشهادة بالبيّنة، وقيل بأنّ شهادتهم على سائر الأمم إنّما يُراد بها شهادتهم للأنبياء على أممهم المكذّبين للإسلام والنبوّة الخاتمة.

ولو تأمّلنا في مقتضيات شهادة الأمّة على الناس، وكونها كاشفة عن القبول والحجّة، نجد أنّها تشير إلى جهة أضيق دائرة من دائرة المسلمين، ففي المسلمين فاسقون ومنافقون ومراءون وقتلة ومجرمون، فكيف تُقبل شهادة مثل هؤلاء لمجرّد كونهم مسلمين؟! ولذلك ينبغي أن يكون المقصود بها أئمّة الحقّ والأولياء والأتقياء والصالحون، وقد وردت بعض الإشارات القرآنية

إلى هذا الانحصار، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)، ولا معنى لرؤيتهم للأعمال من غير تحقيق معنى الشهادة، وقد وردت أخبار في تحديد دائرة الأشهاد، وبيان مصاديقهم، ولا مانع من أن يكونوا هم المصداق الأبرز، فتشمل الدائرة أتقياء الأمّة وصلحائها.

وهذه الوسطية التي مكّنت هذه الأمّة ـ أو فئة منها، كما هو الصحيح ـ من الارتقاء إلى مقام الشهادة على الأمم هي الأخرى اقتضت أن تكون منوطة بشهادة عليها، وهي شهادة رسول الله صلّى الله عليه وآله: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، فتكون المحصّلة هو أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله ستكون له شهادة خاصّة، وهي شهادته صلّى الله عليه وآله على أمّته، وشهادة عامّة، وهي شهادة أمّة الإسلام على سائر الأمم الأخرى من غير المسلمين، والجامع للشهادتين هو قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ (الزمر: ٦٩).

ولو تأمّلنا معنى الشهادة في الموردين ـ شهادة الرسول صلّى الله عليه وآله على الأمّة، وشهادة الأمّة على الناس ـ نجدها تتمحور حول القبول برسالة الإسلام، فشهادة الرسول صلّى الله عليه وآله على الأمّة إنّما هي الشهادة لهم بتحقّق القبول به والطاعة له، كما أنّ شهادة الأمّة على الأمم الأخرى إنّما بقبولها بالنبي صلّى الله عليه وآله والطاعة له، أو أن تكون الشهادة على الأمّة والأمم بإقامة الحجّة عليهم جميعاً. فالنبي صلّى الله عليه وآله أوصل صوت الإسلام للأمّة فهو شاهد عليها، والأمّة أوصلت صوت الإسلام لسائر الأمم الأخرى فهي شاهدة عليها، والشهادة واقعة في كلّ زمان ومكان، فتكون الشهادة قد بلغت حدّ البيان والحجّية.

لطائف حول آية الوسطية

يُمكن رصد عدّة لطائف في آية الوسطية، منها:

• **لطائف قوله تعالى:** ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**﴾، وهي:

اللطيفة الأولى: الإشارة إلى أنّ تأسيسات الوسطية إلهية محضة، ولولا ذلك لوقع التطرّف في كلّ شيء، ولم يبقَ ضابط واقعي.

اللطيفة الثانية: الإشارة إلى أنّ الجعل ـ في أحد معانيه ـ بمعنى الإرادة والطلب، أي: يريد الله تعالى منكم أن تكونوا وسطيين في سيركم وسيرتكم، في عباداتكم وأخلاقياتكم، فإنّ جميع الأخلاق الفاضلة تقع وسطاً بين محذورين وطرفين متقابلين، فالشجاعة وسط بين الجبن والتهوّر، والكرم وسط بين البخل والإسراف، والعفّة خلق وسط بين الشره والخمود، ومودّة أهل البيت عليهم السلام وسط بين الغلوّ والبغض، وهكذا.

• **لطائف قوله تعالى:** ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾، وهي:

اللطيفة الأولى: الإشارة إلى أنّ الإسلام ليس طريقة متّبعة تنتهي تكاليفها في عالم الدنيا، فهنالك تكاليف أخروية مربوطة به، ومنها الشهادة على الناس.

اللطيفة الثانية: الإشارة إلى ضرورة التفات المسلم المؤمن إلى موقعيّته الأخروية، فهو ليس أيّ نسمة تُحشر، وإنّما هنالك مقام رفيع يتبوّأه في الآخرة، وهو الشهادة على الأمم السالفة، فيكون ذلك المقام الرفيع داعياً لإصلاح النفس لتستقيم الشهادة، فالآية تحثّ المسلمين على تحصيل مقام الشهادة عن طريق التمسّك بالوسطية القرآنية.

• **لطائف قوله تعالى:** ﴿**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾.

الإشارة إلى علوّ مقام المسلمين ورفعتهم؛ حيث قارنوا بذلك مقام الأنبياء عليهم السلام في الإشهاد عليهم، فالنبي الأكرم صلّى الله عليه وآله له

شهادتان، الأولى على أمّته، كما في الآية، والثانية على الأنبياء والرسل عليهم السلام، كما هو المستفاد من قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ (النساء: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، وهذا هو المقام المحمود المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩)، ومن أجل ذلك تذرف الدموع[١].

ومن الواضح أنّ شهيد كلّ أمّة ينبغي أن يكون نبيّها وإمامها، فيكون النبي صلّى الله عليه وآله شاهداً عليهم، وفي ذلك ريادة واضحة وفريدة لرسول الله صلّى الله عليه وآله، وتكون الأمّة شاهدة على تلك الأمم، فهي بمصافّ الأنبياء عليهم السلام في مقام الشهادة على أُممهم، بل شهادتهم أوسع وأشمل؛ فإنّ كلّ نبيّ سيكون شاهداً على أمّته حصراً، في حين سيكون من هذه الأمّة شهداء على سائر الأمم السالفة، وفي ذلك تقدّم صريح لمقام هذه الأمّة أو لشطر منها، ممّن يشملهم عنوان الشهادة في يوم القيامة.

---

(١) روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال لعبد الله بن مسعود: «اقرأ عليّ، قال: ففتحت سورة النساء، فلما بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ (النساء: ٤١)، رأيت عينيه تذرفان من الدمع، فقال لي: حسبك الآن». مسند أحمد، مصدر سابق: ج١ ص٣٨٠؛ صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٦ ص١١٤؛ مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج٤ ص٢٣٨ ح٤. وإنّما كان ذرف الدموع إجلالاً وهيبة لذلك المقام المحمود الذي سيكون لرسول الله صلّى الله عليه وآله يوم القيامة.

الاستعمال القرآني لمفهوم الوسطية

إنّ للقرآن الكريم عدّة استعمالات لهذه الكلمة ومشتقّاتها؛ منها: في مواقع الصلاة جاء قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ (البقرة: ٢٣٨)، والتي تحتمل أكثر من معنى، منها التوسّط بين شيئين، فيكون المراد من هذه الصلاة ـ على الأرجح ـ صلاة الظهر؛ لأنّها أوّل صلاة صلّاها الرسول صلّى الله عليه وآله قد توسّطت صلاتين في النهار، بين صلاة الصبح والعصر، وقد ورد في الخبر عن زرارة بن أعين، أنّه قال: «قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: أخبرني عمّا فرض الله تعالى من الصلوات؟ قال: **خمس صلوات في الليل والنهار ... وقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾، وهي صلاة الظهر، وهي أوّل صلاة صلّاها رسول الله صلّى الله عليه وآله، وهي وسط صلاتين بالنهار، صلاة الغداة وصلاة العصر**»[1].

ومنها: الصلاة الأفضل، وهي ـ كما في الخبر ـ صلاة الجمعة[2]، فصلاة الجمعة أشرف الصلوات المفروضة.

ومنها: في ضابط إطعام المساكين جاء قوله تعالى: **﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾** (المائدة: ٨٩)، والذي يظهر منه هو الطعام المقبول، ليس طعاماً فاخراً ولا سيّئاً، وقد ورد في خبر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**ثلاث من فعلهنّ فقد طعم طعم**

---

(١) من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج١ ص١٩٥ ح٦٠٠؛ تهذيب الأحكام، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: السيد حسن الخرسان، نشر: دار الكتب الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٥م: ج٢ ص٢٤١ ح٢٣.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

الإيمان: من عبد الله وحده، وأنّه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيّبة بها نفسه رافدة عليه كلّ عام، ولا يعطي الهرمة، ولا الدرنة، ولا المريضة، ولا الشرط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإنّ الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشرّه»[(١)].

وهو الأوفق لقول الفيومي في بيان الوسط: «الوسَط ـ بالتحريك ـ المعتدل،

---

(١) سنن أبي داود، للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م: ج١ ص٣٥٥ ح ١٥٨٢؛ التاريخ الكبير، للشيخ المحدّث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، الناشر: المكتبة الإسلامية، ديار بكر، بإشراف: الدكتور محمد عبد المُعيد خان: ج٥ ص٣١ ح٥٤؛ المغني، لموفّق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت: ٦٢٠هـ)، نشر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت: ج٢ ص٤٧٦؛ سبل السلام (شرح بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني)، تأليف: السيد محمد بن إسماعيل الكحلاني (ت:١١٨٢هـ)، المراجعة والتعليق: محمد عبد العزيز الخولي، طبع ونشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٠م: ج٢ ص١٢٣؛ مسند الشاميين، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، والطبعة الأولى، مصر، ١٣٢٨هـ: ج٣ ص٩٧ ح١٨٧٠؛ أُسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزري أبي الحسن عزّ الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشافعي، انتشارات إسماعيليان، طهران: ج٣ ص٢٦٣؛ تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجّاج المزّي، تحقيق: الدكتور بشّار عوّاد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ: ج١٦ ص١٦٤؛ السنن الكبرى، للمحدّث الحافظ أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، نشر: دار الفكر، بيروت: ج٤ ص٩٦؛ الدرّ المنثور، مصدر سابق: ج١ ص٣٤٦. وقد صحّحه العلاّمة الألباني في صحيح الجامع، منشور في المكتبة الشاملة برقم (٣٠٤١).

يُقال شيء وسط، أي بين الجيّد والرديء»[1]، والإنسان السويّ في العادة ينتخب لنفسه الطعام الأفضل، بمعنى: أنّه لا يمترئ الطعام غير الجيّد مع وجود الجيّد منه، فذلك الذي تنتخبونه لأنفسكم من طعام عليكم بأن تطعموا منه المساكين.

ومنها: في توسّط الخيول صفوف الأعداء، كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً**﴾ (العاديات: ١ ـ ٥)[2]، فتوسَّطن بركبانهنّ جموع الأعداء.

ومنها: الوسطية الصريحة في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**﴾ (البقرة: ١٤٣)، التي تندرج تحتها عدّة مصاديق، تقدّم ستّة منها، إيجازها:

* الوسطية في التعاطي مع تركيبة الإنسان في جزأيه المادّي والمجرّد.

* الوسطية بين الشدّة المفرطة والضعف المفرط، حيث جمع الإسلام بين الحزم والسماحة في السلوك والتربية.

* الوسطية بين الشيوع في الملكية، النافية لخصوصية الرعيّة، وبين التفرّد في كلّ شيء، المضعفة لنفوذ الدولة، فلا نفي للملكية العامّة ولا نفي للملكية الخاصّة، فالدولة تملك، والرعيّة تملك.

* الوسطية في التعاطي مع الأنبياء عليهم السلام، فلا يُرفعون إلى مقام

---

(١) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، نشر: مؤسسة دار الهجرة، قم المقدّسة، ١٤١٤هـ: ص٢٥٢.

(٢) (العاديات): الخيل، تعدو في الغزو وتضبح (ضبحاً): صوت أجوافها إذا عدت، (الموريات): الخيل، توري النار، (قدحاً): بحوافرها إذا سارت في الأرض ذات الحجارة بالليل، (المغيرات صبحاً): الخيل، تغير على العدوّ وقت الصبح بإغارة أصحابها. انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٠ ص٤٢٣؛ تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلّي وجلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت: ص٨١٨.

الألوهية، فيكون غلوّاً صريحاً، ولا أن يُهبَطوا إلى مستوى الإنسان العادي، فيكون إجحافاً بحقّهم، وإنّما هم بشر ليسوا عاديين؛ لأنّهم يُوحى إليهم، فهم سفراء الله في الأرض وأمناؤه ومستودع سرّه، ومقامهم ـ مقام الوحيانية ـ عظيم.

* الوسطية صفة لاحقة لأمّة الإسلام تتعلّق بالشهادة، حيث جُعلت الأمّة واسطة بين الرسول صلّى الله عليه وآله وبين عامّة الناس.

* الوسطية بمعنى العدل والفضل والرفعة، فيقال: أعدل الشيء: أوسطه وأفضله وأكمله وأرفعه، وهو معنى مألوف عند العرب.

وقد لاحظنا أنّ هذا المصداق السادس (العدل والفضل والرفعة)، هو الأكثر تطابقاً وتوجيهاً، وقد بلغت الأمّة ذلك ووصفت بالوسطية بهذا المعنى بحسب مبادئها القرآنية البعيدة عن الإفراط والتفريط، فهي أمّة العدل والفضل والعقل والخير والرفعة، فهي أوسط الأمم، بين التطرّف والتساقط.

قال الطبري في تفسيره: «أمّا الوسط فإنّه في كلام العرب: الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه: أي متوسّط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، وهو وسط في قومه و واسط»[1]، ثمّ يقول: «وأنا أرى أنّ الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار ... وأرى أنّ الله ـ تعالى ذكره ـ إنّما وصفهم بأنّهم وسط لتوسّطهم في الدين، فلا هم أهل غلوّ فيه، غلوّ النصارى الذين غلوا بالترهّب وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربّهم، وكفروا به، ولكنّهم أهل توسّط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها. وأمّا

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مصدر سابق: ج٢ ص١٠.

التأويل فإنّه جاء بأنّ الوسط: العدل، وذلك معنى الخيار لأنّ الخيار من الناس عدولهم»[1]، وما ذكره من كلام العرب لهو أولى ما انتهى إليه من كون الوسطية بمعنى البينية.

وقد حاول السيد قطب التوفيق بين كلّ مصاديق الوسطية، حيث يقول: «وإنّها للأمّة الوسط بكلّ معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادّي الحسّي»، ثمّ يسترسل في تصوير هذه المعاني المختلفة، فيقول:

«﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ في التصوّر والاعتقاد، لا تغلو في التجرّد الروحي، ولا في الارتكاس المادّي. إنّما تتّبع الفطرة الممثّلة في روح متلبّس بجسد ...

﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾، في التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا تتبع كذلك كلّ ناعق وتقلّد تقليد القردة المضحك، إنّما تستمسك بما لديها من تصوّرات ومناهج وأصول ...

﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾، في التنظيم والتنسيق، لا تدع الحياة كلّها للمشاعر والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب، إنّما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب؛ وتزاوج بين هذه وتلك ...

﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾، في الارتباطات والعلاقات، لا تلغي شخصية الفرد ومقوّماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة، ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعاً لا همّ له إلّا ذاته، إنّما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدّي إلى الحركة والنماء، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقّق شخصية الفرد وكيانه ...

---

(١) المصدر السابق.

﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾، في المكان، في سرّة الأرض، وفي أوسط بقاعها. وما تزال هذه الأمّة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمّة التي تتوسّط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً، وتشهد على الناس جميعاً ...

﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾، في الزمان، تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها. وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها، وتصدّها عن الفتنة بالعقل والهوى، وتزواج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمرّ في النماء ...

وما يعوق هذه الأمّة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلّا أنّها تخلّت عن منهج الله الذي اختاره لها، واتّخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها، واصطبغت بصبغات شتّى ليست صبغة الله واحدة منها! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.

وأمّة تلك وظيفتها وذلك دورها، خليقة بأن تحتمل التبعة وتبذل التضحية، فللقيادة تكاليفها، وللقوامة تبعاتها، ولابدّ أن تفتن قبل ذلك وتبتلى، ليتأكّد خلوصها لله وتجرّدها، واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة»[1].

وفي ضوء هذه المعطيات يتّضح أنّ الوسطية باعتبارها تمثّل جهة الخير والفضيلة والتصرّف العقلائي فإنّها تقتضي عدم الدخول في الإفراط والتفريط، سواء في العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق، ففي وسطية العقيدة لا

---

(١) في ظلال القرآن، سيّد قطب بن إبراهيم الشاذلي، الناشر: دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤١٢هـ: ج١ ص١٣١ ـ ١٣٢.

غلوّ ولا نصب، وفي الشريعة لا رهبنة أو استغراق في العبادة ولا انصراف عنها ومجافاة[1]، وفي الأخلاق لا تزمّت ولا تهاون، وقد قيل بأنّ الفضيلة

---

(١) عن أنس بن مالك قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يسألون عن عبادة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، فلمّا أُخبروا كأنّهم تقالّوها، أي: وجدوها قليلة، فقالوا: وأين نحن من النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، قد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؟ قال أحدهم: أمّا أنا فإنّي أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج أبداً، فجاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: **أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أنّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**». صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٦ ص١١٦؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٤ ص١٢٩؛ سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، للمحدّث أحمد بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٣٠ م: ج٦ ص٦٠؛ الإصابة في تمييز الصحابة، للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، تقديم وتقريظ: الدكتور محمد عبد المنعم البري والدكتور عبد العتاح أبو سنة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ: ج١ ص٤١.

وفي خبر آخر: «أنّ النبي صلّى الله عليه وآله جلس للناس ووصف يوم القيامة، ولم يزدهم على التخويف، فرقّ الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل، ولا يقربوا النساء ولا الطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الأرض، ويترهّبوا، فبلغ ذلك النبي صلّى الله عليه وآله، فأتى منزل عثمان فلم يجده، فقال لامرأته: **أحقّ ما بلغني؟** فكرهت أن يُكذب رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأن تبتدئ على زوجها فقالت: يا رسول الله! إن كان أخبرك عثمان فقد صدّقك. فانصرف رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأتى عثمان منزله فأخبرته زوجته

وسطية، كالشجاعة بين التهوّر والجبن، وكالكرم بين الإسراف والبخل، وكالحرية بين الدكتاتورية والفوضى، وهذا التوسّط بين طرفين هو الذي منحها الفضيلة والخير والكمال، وفي ذلك يقول العالم الأخلاقي ابن مسكويه: «فليعلم أنّ لكلّ فضيلة طرفين محدودين يمكن الإشارة إليهما، وأوساط بينهما كثيرة لا نهاية لها، ولا يمكن الإشارة إليها. إلّا أنّ الوسط الحقيقي هو واحد الذي سمّيناه فضيلة»[1].

يقول الغزالي: «اعلم أنّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق: الوسط؛ إذ خير الأمور أوساطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم و ... من

بذلك، فأتى هو وأصحابه إلى النبي، فقال: ألم أنبأ أنّكم اتّفقتم؟ فقالوا: ما أردنا إلّا الخير. فقال صلّى الله عليه وآله: إنّي لم أؤمر بذلك، ثمّ قال: إنّ لأنفسكم عليكم حقّاً، فصوموا وافطروا وقوموا وناموا، فإنّي أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي، ثمّ جمع الناس وخطبهم، وقال: ما بال قوم حرّموا النساء والطيب والنوم وشهوات الدنيا؛ وأمّا أنا فلست آمركم أن تكونوا قسسة ورهباناً، إنّه ليس في ديني ترك النساء واللحم، واتّخاذ الصوامع، إنّ سياحة أمّتي في الصوم، ورهبانيّتها الجهاد، واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجّوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنّما هلك من قبلكم بالتشديد، شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع». عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج٢ ص١٥٠؛ مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج١٦ ص٥٤ ح٣.

ونعم ما قيل من شعر في ذلك قول الشاعر: (عليك بأوساط الأمور فإنّها ... نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا). انظر: تفسير القرطبي، مصدر سابق: ج٦ ص٢١.

وقول آخر: (لا تذهبن في الأمور فرطا ... ولا تسألن إن سألت شططا ... وكن من الناس جميعاً وسطا). انظر: المصدر السابق: ج٢ ص١٥٤.

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، تحقيق: قسطنطين زريق، نشر: الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٦م: ص٧١.

أسرار حكمة الشريعة أنّ كلّ ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه على وجه يومئ عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادّة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالم يدرك أنّ المقصود الوسط؛ لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثاً، والشرع مانعاً، فيتقاومان ويحصل الاعتدال، فإنّ من يقدر على قمع الطبع بالكلّية بعيد فيعلم أنّه لا ينتهي إلى الغاية، فإنّه إن أسرف مسرف في مضادّة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدلّ على إساءته، كما أنّ الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ثمّ لمّا علم النبي صلّى الله عليه وسلّم من حال بعضهم أنّه يصوم الدهر كلّه ويقوم الليل كلّه نهى عنه»[1].

وعندئذٍ ستكون هذه الوسطية المثلى هي الصراط المستقيم، ويكون من معاني قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (الفاتحة: ٦)، هو الهداية إلى الطريقة الوسطى والمثلى، ولذلك نجد في سيرة الأنبياء عليهم السلام حضور هذه الوسطية المثلى، فلم نجد نبياً إفراطياً ولا تفريطياً، فيكون الاقتداء والتأسّي بهم بمنطق قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ (الممتحنة: ٦) هو لزوم وسطيّتهم المثلى، ولذلك ورد في الحديث: «**إيّاكم والغلوّ في الدين، فإنّما هلك من كان قبلكم بالغلوّ في الدين**»[2]، ويكون من

---

(١) إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، صحَّحه واعتنى به: محمد بن مسعود الأحمدي، الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦هـ: ج٣ ص٩٦.

(٢) مصنّف ابن أبي شيبة، مصدر سابق: ج٤ ص٣٣١ ح٨؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج١ ص٢١٥؛ سنن ابن ماجة، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق وتعليق: الأُستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،

معاني الوعيد الشيطاني الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)، هو أنّه توعّدهم بإخراجهم من الوسطية المثلى وإدخالهم في الإفراط والتفريط.

بعبارة أخرى: «وما أمر الله بأمر إلّا وللشيطان فيه نزغتان: إمّا إلى تفريط وإضاعة، وإمّا إلى إفراط وغلوّ، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أنّ الجافي عن الأمر مضيّع له فالغالي فيه مضيّع له، هذا بتقصيره عن الحدّ، وهذا بتجاوزه الحدّ»[1]، وقد نهى الله عن الغلوّ بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (النساء: ١٧١).

بيروت: ج٢ ص١٠٠٨ ح٣٠٢٩؛ سنن النسائي الكبرى، مصدر سابق: ج٢ ص٤٣٥ ح٤٠٦٣؛ المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي: ج١ ص٤٦٦؛ منتهى المطلب، للعلّامة الحلّي: ج٢ ص٧٢٩؛ تذكرة الفقهاء (طبعة جديدة)، للعلّامة الحلّي الحسن بن يوسف بن المطهّر (ت: ٧٢٦هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ: ج٨ ص٢٠٩؛ المحلّى، مصدر سابق: ج٧ ص١٣٣؛ المجموع (شرح المهذب)، مصدر سابق: ج٨ ص١٧١؛ عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج١ ص١٨٤ ح٢٥٦؛ المستدرك على الصحيحين، مصدر سابق: ج١ ص٤٦٦؛ المعجم الأوسط، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، الناشر: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة: ١٤١٥هـ: ج٢ ص٣٤٧؛ وقد صحّحه العلّامة ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة (منشور في المكتبة الشاملة): رقم (١٢٨٣).

(١) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر الزرعي ، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م: ج٢ ص٤٩٦.

ومن معاني قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ (مريم: ٤٣): العمل على إخراجه من دائرة التفريط بالطريقة الوسطى والمثلى، وهي الإيمان بالله تعالى.

ومن معاني قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ١١٠): معنى الوسطية بين الصوت المرتفع وبين الصوت غير المسموع، وقوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ صريح في اتّخاذ الطريقة الوسطى والمثلى بين ذلك؛ وقد روي في ذلك أنّه قد سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾؟ قال: **المخافتة ما دون سمعك، والجهر أن ترفع صوتك شديداً**»[1]، وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**واجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في جميع الصلوات، واجهر بجميع القراءة في المغرب والعشاء الآخرة والغداة من غير أن تجهد نفسك، أو ترفع صوتك شديداً، وليكن ذلك وسطاً؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾**»[2].

إنّ الصراط المستقيم هو الطريقة المثلى المتوسّطة بين الإفراط والتفريط، بين المغضوب عليهم وهم الإفراطيّون، وبين الضالّين وهم التفريطيّون، وهو من أبرز وجوه قوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٦ ـ ٧).

---

(١) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٣١٥ ح٢١؛ تهذيب الأحكام، مصدر سابق: ج٢ ص٢٩٠ ح٢٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج١ ص٣٠٨. وفي تفسير القمّي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**الإجهار أن ترفع صوتك تُسمِعُه من بُعدٍ عنك، والإخفات أن لا تُسمِع من معك إلّا يسيراً**». تفسير القمّي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٠.

وقد ورد عن الشعبي عن جابر الأنصاري أنّه قال: «كنّا جلوساً عند النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فخطّ خطّاً هكذا أمامه، فقال: **هذا سبيل الله عزّ وجلّ**، وخطّين عن يمينه، وخطّين عن شماله، قال: **هذه سبيل الشيطان**، ثمّ وضع يده في الخطّ الأوسط ثمّ تلا هذه الآية: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥٣)»[١].

من هنا تتّضح العلاقة الوطيدة بين الوسطية المثلى والفضيلة والصراط المستقيم، والتي تعكس اليسر والتخفيف على العباد، فإنّ الإفراط هو العسر والضيق والحرج، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾ (الحجّ: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ**﴾ (النساء: ٢٨).

الاستعمالات القرآنية للوسطية بألفاظ أخرى

استعمل القرآن الكريم ألفاظاً أخرى غير الوسطية وأراد بها معنى الوسطية والاعتدال، وهي كثيرة، منها:

الأوّل: القصد والتوسّط في المشي ورفع الصوت؛ قال تعالى: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ (لقمان: ١٩)،

---

(١) مسند أحمد، مصدر سابق: ج١ ص٤٣٥؛ ج١ ص٤٦٥؛ ج٣ ص٣٩٧؛ سنن ابن ماجة، مصدر سابق: ج١ ص٦ ح١١؛ السنن الكبرى، مصدر سابق: ج٦ ص٣٤٣ ح١١١٧٤؛ سنن الدارمي، للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت: ٢٥٥هـ)، مطبعة الاعتدال، دمشق: ج١ ص٦٧؛ المستدرك على الصحيحين، مصدر سابق: ج٢ ص٣١٨.

فالقصد وإن أُريد به التواضع، فيكون المشي بلا خنوعٍ ولا تكبّر، إلّا أنّ من معانيه المقصودة في المقام هو التوسّط والاعتدال في المشي، بين الدبيب والإسراع، فيكون المشي كاشفاً عن السكينة والوقار؛ قال الأردبيلي في معنى القصد في المشي: «أي: اعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين، لا تدبّ دبيب المتماوتين ـ أي: الميّتين الذين لا حركة لهم أو الضعيفين لكثرة العبادة ـ ولا تثب وثب الشطّار»[1]، كما أنّ غضّ الصوت هو خفضه، فلا يخفت حدّ العجز عن سماعه، ولا يجهر حدّ الجهورية المزعجة، فالأوّل حالة مَرَضية، والثاني صوت منكر وقبيح، وهو من الأصوات المنكرة؛ لأنّ الجهورية تقتضي أن يكون الصوت أوّله زفير وآخره شهيق، كما هو الحال في صوت الحمير[2]، وفي بعض الأصوات التي تشمئزّ منها النفس[3].

الثاني: الوسطية في الطعام؛ قال تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (الأعراف: ٣١) وفي الآية إشارة لطيفة إلى خلاصة علم الطبّ، وهي: الوقاية خير من العلاج، فالوسطية في الطعام والشراب تقي الإنسان

---

(١) زبدة البيان في أحكام القرآن، العالم الربّاني الشيخ أحمد بن محمد (الشهير بالمقدّس الأردبيلي)، حقّقه وعلّق عليه: محمد الباقر البهبودي، نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران: ص٣٥٨. وهذا المعنى نسبه الأردبيلي إلى الزمخشري مع توضيح منه. انظر: تفسير الكشّاف، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، رتّبه وضبطه وصحّحه: محمد عبد السلام شاهين، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة، بيروت، ٢٠٠٦م: ج٣ ص٤٨٢.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، مصدر سابق: ص٥٤٢.

(٣) من قبيل العطاس القبيح، كما في الخبر، فقد روى الكليني بسندٍ عن علي بن أسباط، عن عمّه يعقوب بن سالم، عن أبي بكر الحضرمي قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾؟ قال: **العطسة القبيحة**». الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٦٥٦ ح٢١.

من الأمراض، بخلاف التخمة والجوع، فكلاهما إسراف، وكلاهما هادم للبدن، وقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**واعلم أنّ المعدة بيت الداء**»[1]، سواء كان ذلك بالشبع المفرط أو بالجوع المفرط، فلابدّ من التوسّط والاعتدال في الطعام، وقد كان يقول صلّى الله عليه وآله: «**ما ملأ الآدمي وعاءً شرّاً من بطنه، فإن كان ولابدّ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[2].

الثالث: الوسطية في الإنفاق على النفس والأسرة والمعارف؛ قال تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً**﴾ (الإسراء: ٢٩)، أي: لا تُمسك يدك عن الإنفاق على نفسك وأسرتك ومتعلّقيك، وفي مطلق سبيل الخير، فتضيّق عليهم مع إمكان الإنفاق عليهم، وإذا أنفقت فأنفق باعتدال ولا تسرف، فتتعدّى حدود المألوف وتتجاوز طاقتك، وعندئذٍ سوف تلوم نفسك ويلومك أهلك والآخرون.

ولذلك فالوسطية في الإنفاق هي أن لا تلحق الضرر بمن تعول أو بمن يحتاج مساعدتك، ولا تلحق الضرر بنفسك أيضاً، وهذا الاعتدال في الصرف هو الحسنة التي تقع بين سيّئتين، سيّئة الإقتار، وسيّئة بسط اليد بلا ضابط، والحسنة في المقام هي أن يسلك بين ذلك قواماً، كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا**

---

(١) الخصال، مصدر سابق: ص٥١٢؛ الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، تحقيق: محمد بن محمد حسين القائيني، الناشر: مؤسسة الإمام الرضا عليه السلام للمعارف الإسلامية، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ: ج٣ ص٢٢٠ ح٣؛ عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج٢ ص٣٠ ح٧٢.

(٢) سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٤ ص١٨ ح٢٤٨٦؛ السنن الكبرى، مصدر سابق: ج٤ ص١٧٨ ح٦٧٧٠؛ المستدرك على الصحيحين، مصدر سابق: ج٤ ص١٢١؛ مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج١٦ ص٢١٠ ح٥.

أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ (الفرقان: ٦٧)، فتنفق بقدرٍ، وتمسك بقدرٍ، وفي إنفاقك وإمساكك يكون القوام، وبعبارة أُخرى: لا يكون إنفاقك مُفقراً لك، ولا يكون إمساكك مُجحفاً بحقّ الآخرين؛ قال تعالى: **﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾** (الذاريات: ١٩).

الوسطية في السنّة الشريفة

تعرّضت السنّة الشريفة إلى موضوع الوسطية بشكل مكثّف، فلا يكاد يخلو موضوع من الإشارة لذلك، سواء في العقيدة أو الشريعة (الأحكام الشرعية) أو الأخلاق، وسنأخذ شواهد على كلّ ذلك، وهي:

الشاهد الأوّل: الوسطية في أفعال الإنسان

ركّزت السنّة الشريفة على مسألة الاختيار في الأفعال؛ فالإنسان في الأصل مخيّر في أفعاله وليس مسيّراً، ولأجل ذلك استحقّ الثواب والعقاب. فالمسيّر غير مأجور في فعل الخير، وغير معاقب على فعل الشرّ، وللموضوع صلة وثيقة بالعدل الإلهي، وقد قال تعالى: **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾** (البقرة: ١٧٣)، ولكنّ هذا الاختيار ليس مأخوذاً على إطلاقه، بمعنى أنّه مقترن بالإذن الإلهي (الإذن التكويني)، ومقترن بالتوفيق الإلهي، أي: إنّ نفي التسيير عنه ليس مطلقاً، فهنالك أمور ليس للإنسان اختيار فيها، ومن هنا جاءت السنّة الشريفة بعرض الوسطية في العقيدة فيما يتعلّق بفعل الإنسان، وهي: لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين**»، فسُئل: وما أمر بين أمرين؟ قال: «**مَثَلُ ذلك: رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته فتركته ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت**

أنت الذي أمرته بالمعصية»[١].

وعنه عليه السلام في تعليل القاعدة: «**الله أكرم من أن يكلّف الناس ما لا يطيقون، والله أعزّ من أن يكون في سلطانه ما لا يريد»**[٢].

وهذه العقيدة السويّة مستفادة من القرآن، ففي ضوء التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وفي موضوع فعل الإنسان بين التفويض والجبر، عرض القرآن نصوصاً عديدة، منها قوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ (البقرة: ٢٨٦)، أي: لها ما كسبت من الخير، وهو الثواب عليه، وعليها ما اكتسبت من الشرّ، وهو العقاب عليه، فيكون الإنسان هو فاعل الخير وهو فاعل الشرّ بشكل مطلق.

فالإنسان هو الفاعل، سواء في الخير أو في الشر، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ...**﴾ (آل عمران: ٣٠)، ولكنّ الأمر ليس مطلقاً، كما قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ**﴾ (النساء: ٧٩)، وهنا تعرّفنا الآية بأنّ فاعل الخير هو الله، وفاعل السيّئة هو الإنسان، فالله تعالى لا يصدر منه إلّا الخير، والإنسان لا يصدر منه إلّا الشرّ، ويؤكّده قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ (الشورى: ٣٠)، ثمّ يأتي القرآن بعرض الأمرين ونسبتهما إلى الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُل كُلٌّ**

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص١٦٠ ح١٣؛ التوحيد، للشيخ الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، نشر: جماعة المدرّسين، قم المقدّسة، الطبعة ١٣٨٧هـ: ص٣٦٢ ح٨.

(٢) أصول الكافي: ج١ ص١٦٠ ح١٤، التوحيد: ص٣٦٠ ح٤.

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء: ٧٨).

ومع التأمّل في هذه النتائج الجزئية أو التجزيئية نخرج بمحصّلة قرآنية، أو قل بنظرية قرآنية، وهي الأمر بين أمرين، في الحسنة والسيّئة معاً، فينتفي التفويض، وهو الاختيار المحض، وينتفي الجبر، وهو التسيير المحض، فما يفعله الإنسان من خير إنّما بتوفيق من الله تعالى له، وما يفعله الإنسان من شرّ بخذلان من الله تعالى له، والخذلان بمعنى سلب التوفيق عنه، ولو تأمّلنا كثيراً في أفعالنا ومقاصدنا، ما وقع منها وما لم يقع، نجد أنفسنا حريصين كثيراً على تحقيق أشياء معيّنة، ولكن لا يتحقّق منها شيء، خيراً كانت أو شرّاً، ممّا يدلّ على أنّ الإنسان وإن كان غير مسلوب الإرادة والاختيار، إلّا أنّه ليس بمقدوره أن يفعل كلّ ما يريد، وهذه هي فحوى عقيدة الوسطية في أفعال الإنسان، أو بحسب التعبير الروائي: لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين.

ولذلك نجد عالم آل محمد، الإمام علي الرضا عليه السلام، يوضّح هذه القاعدة توضيحاً دقيقاً؛ فعن عمير بن معاوية الشامي قال: «دخلت على علي بن موسى الرضا بمرو فقلت له: يا بن رسول الله روي لنا عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام قال: **إنّه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين**، فما معناه؟ قال: **من زعم أنّ الله يفعل أفعالنا ثمّ يعذّبنا عليها فقد قال بالجبر، ومن زعم أنّ الله عزّ وجلّ فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه عليهم السلام فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك**، فقلت له: يا بن رسول الله فما أمر بين أمرين؟ فقال: **وجود السبيل إلى إتيان ما أُمروا به، وترك ما نُهوا عنه**، فقلت له: فهل لله عزّ وجلّ مشيئة وإرادة في ذلك؟ فقال: **فأمّا الطاعات فإرادة الله ومشيّته فيها: الأمر بها والرضا لها والمعاونة عليها، وإرادته ومشيّته في المعاصي: النهى عنها والسخط لها والخذلان عليها**، قلت:

فهل لله فيها القضاء؟ قال: **نعم، ما من فعل يفعله العباد من خير أو شرّ إلّا ولله فيه قضاء**، قلت: ما معنى هذا القضاء؟ قال: **الحكم عليهم بما يستحقّونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة**»[١].

والإنسان بما صدر من خير منه، إنّما هو بتوفيق من الله تعالى، وبما صدر من شرّ منه، إنّما هو بخذلان منه تعالى، فإنّه بذلك رهين؛ قال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ (المدّثر: ٣٨)، من دون أن يُظلم نقيراً على ما صدر منه في يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ**﴾ (غافر:١٧).

الشاهد الثاني: الوسطية في العبادة والإنفاق

أمّا الوسطية والاعتدال في العبادة فقد وافقت السنّة الشريفة طريقة القرآن في نبذ العزلة والرهبنة، ومع أنّ العبادة في نفسها أمر حسن ومطلوب، ولكن ينبغي الوسطية فيها، أو بحسب تعبير المحدّثين: ينبغي (الاقتصاد في العبادة)[٢]، فإنّ الاقتصاد في العبادة من فضائل السير والسلوك، وقد روي

(١) عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام، مصدر سابق: ج٢ ص١١٤ ح١٧؛ مسند الإمام الرضا أبي الحسن علي بن موسى عليهما السلام، جمعه ورتّبه: الشيخ عزيز الله العطاردي الخبوشاني، الناشر: المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، مشهد، ١٤٠٦هـ: ج١ ص٣٦ ح٥٢؛ الاحتجاج، للشيخ أحمد بن علي الطبرسي، تحقيق: السيد محمد باقر الخرسان، نشر: دار النعمان للطباعة والنشر، طبعة ١٩٦٦م، النجف الأشرف: ج١ ص١٩٨؛ روضة الواعظين، مصدر سابق: ص٣٩.

(٢) هكذا ورد هذا التعبير في بعض الكتب الحديثية. انظر: الأُصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٦، باب (الاقتصاد في العبادة)؛ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للشيخ الفقيه المحدّث محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت: ١١٠٤هـ)، تحقيق

عن ابن أبي عمير، عن حفص بن البختري عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**اجتهدت في العبادة وأنا شابّ، فقال لي أبي: يا بني دون ما أراك تصنع، فإنّ الله عزَّ وجلَّ إذا أحبّ عبداً رضي عنه باليسير**»[١].

وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يُجهد نفسه كثيراً في عباداته الليلية، حتى روي بأنّه كان يقوم على أطراف أصابع رجليه في صلاته لعشر سنين متواصلة، فأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك قرآناً: ﴿**طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ (طه: ١ ـ ٢)[٢]، ولذلك نجد الرسول صلّى الله عليه وآله بعد ذلك يُوجّه أصحابه إلى الاقتصاد في العبادة، فقد روى في ذلك بريدة الأسلمي أنّه كان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فرأيا رجلاً في المسجد يكثر من الركوع والسجود فقال صلّى الله عليه وآله: «**عليكم هدياً قاصداً** ـ ثلاث مرات ـ **فإنّه من يشادّ الدين يغلبه**»[٣]، قال ابن منظور: «(**عليكم هدياً**

ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ: ج١ ص٨٢، باب (استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل)؛ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، للعلّامة الشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسّسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ: ج٦٨ ص٢٠٩، باب (الاقتصاد في العبادة والمداومة عليها، وفعل الخير وتعجيله)؛ شرح صحيح مسلم، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ: ج٦ ص٧٠، باب (فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره والأمر بالاقتصاد في العبادة ...)؛ وغير ذلك من الكتب الحديثية.

(١) الأُصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٧ ح٥.

(٢) انظر: الأُصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٩٥ ح٦.

(٣) مسند أحمد، مصدر سابق: ج٤ ص٤٢٢؛ ج٥ ص٣٥٠؛ المستدرك على الصحيحين، مصدر سابق: ج١ ص٣١٢؛ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، مصدر سابق: ج١ ص٨٧؛ الإصابة في تمييز الصحابة، مصدر سابق: ج٣ ص١١٢؛ المجازات النبوية،

قاصداً)، أي: طريقاً معتدلاً»[1]، فالهدي هو الطريقة والسيرة، والقاصد: هو المستقيم، والطريق المستقيم هو أقصر الطرق وأسلمها وأصلحها، فتكون المحصّلة هي: لزوم الطريق اليسير القصير في تحقيق الهدف والكمال، وقد أُشير إلى هذه اللطيفة في قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً**﴾ (التوبة: ٤٢)، أي: متاعاً قريباً، أو سفراً يسيراً وقصيراً.

جدير بالذكر: أنّ الاقتصاد في العبادة لا يعني ضرورة التقليل منها، وإنّما المراد هو عدم الإجهاد ولحوق الأذى من جرَّاء ذلك، فمن أمكنه الإكثار من النوافل من دون أن تتأثّر الفرائض بذلك، ومن دون بلوغ حدِّ الإجهاد فذلك كمال مطلوب، ولعلّ بعض الناس لا يصلح أمره إلّا بالعبادة والإكثار منها، ولكن بالنحو المقتصد؛ فإنَّ القليل من العبادة يُؤتى بقلبٍ خاشع، خيرٌ من الكثير منها يُؤتى بها بقلبٍ ساهٍ، وقد كان الإمام علي بن الحسين عليهما السلام يقول: «**إنَّ العبد لا يُقبَل من صلاته إلاَّ ما أقبل عليه منها بقلبه**»[2].

وأمّا فيما يتعلّق بالاقتصاد والاعتدال في الإنفاق، فقد روي عن الإمام

للشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ)، تحقيق وشرح: فضيلة الدكتور طه محمد الزيني، منشورات مكتبة بصيرتي، قم: ص٢٦١؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٦٨ ص٢١٨.
يقول المحقّق الدكتور طه محمد الزيني في بيان معنى (**فإنّه من يشادّ الدين يغلبه**): المشادّة مفاعلة، من الشدّ وهو الجذب، كما يشدّ شخصان حبلاً بينهما لاختبار قوّتهما، فالقويّ يجذب الضعيف ناحيته ويغلبه، فكذلك الدين يغلب من يقاويه، ويحاول فعل جميع فروعه. (انظر: المجازات النبوية، مصدر سابق: ص٢٦١).

(١) لسان العرب، مصدر سابق: ج٣ ص٣٥٣.

(٢) الخصال، مصدر سابق: ص٥١٧؛ علل الشرائع، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ: ج١ ص٢٣١ ح٨.

الصادق عليه السلام في ردّه لسياسة التقتير التي كان المتصوّفة يدعون لها، مبيّناً لهم أنّ ذلك مخالف للقرآن الكريم، بل هو ضربٌ من الإسراف، حيث ساق لهم في مجمل حديثه قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً**﴾ (الفرقان: ٦٧)، فقال: «**أفلا ترون أنّ الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثرة على أنفسهم، وسمّى من فعل ما تدعون الناس إليه مسرفاً، وفي غير آية من كتاب الله يقول: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1]، فنهاهم عن الإسراف، ونهاهم عن التقتير، ولكن أمر بين أمرين، لا يعطي جميع ما عنده، ثمّ يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له ..**»[2]، وهذه الوسطية هي التي تحقّق الاعتدال والأفضلية.

الشاهد الثالث: الوسطية في أخلاقيات الحبّ والبغض

كثيراً ما يبالغ الإنسان في حبّه فيكون مغالياً، ويبالغ في بغضه فيكون قالياً، مع أنّ الطريقة الوسطية المثلى هي سلوك الخير في كلّ ذلك، فيكون الحبّ مع عدم غضّ الطرف عن الأمر المعيب في من تحبّه، ويكون البغض مع عدم غضّ الطرف عن الأمر الحسن في من تبغضه، وقد أدّبنا أمير المؤمنين علي عليه السلام على الوسطية المثلى في مثل هذا الحبّ والبغض بقوله: «**أحبب حبيبك هوناً ما؛ عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما؛ عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**»[3]، والهون هو الرفق والسهل والسكينة، والمراد هو

---

(١) انظر: (الأنعام: ١٤١)، (الأعراف: ٣١).

(٢) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٥ ص٦٧ ح١، باب: (دخول الصوفية على أبي عبد الله عليه السلام واحتجاجهم عليه فيما ينهون الناس عنه من طلب الرزق).

(٣) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٦٤ كلمة (٢٦٨).

أن أحببه حبّاً مقتصداً، فلا إفراط في حبِّه، ولا إفراط في بغضه، فلا تبالغ في حبِّه إلى درجة لا تبقي من نفسك لنفسك شيئاً، فتكون أسيره وذليله فيما لو اختلفتما، كما لا تُبالغ في بغضه إلى درجة قطع تمام الصلة بينكما فلا تكون هنالك فرصة للرجعة، فعسى أن تحتاجه يوماً، فيمنعك من مراجعته قطعك جسور الوصل معه.

وعلى حدِّ تعبير أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**إيّاك أن تخرج صديقك إخراجاً يخرجه عن مودّتك، واستبق له من أنسك موضعاً يثق بالرجوع إليه**»[1]، وهذا الأمر ينعكس في موارد الثقة أيضاً، وقد ورد في الخبر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا تثق بأخيك كلَّ الثقة؛ فإنّ صِرْعة الاسترسال لن تُستقال**»[2].

إذن عليك بالوسطية والاعتدال في ذلك؛ «**إذا أحببت فلا تكثر**»[3]، و«**إن استنمت إلى ودودك فأحرز له من أمرك، واستبقِ له من سرِّك ما لعلّك أن تندم عليه وقتاً ما**»[4]، أي: إذا اطمأننت إلى من تودّه[1] وسكنت إليه فحدّثه

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم (كلمات الإمام علي عليه السلام)، جمع: عبد الواحد الآمدي، تحقيق: السيد جلال الدين الآرموري، الناشر: جامعة طهران، الطبعة الثالثة: رقم ٢٦٨٧.

(٢) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٦٧٢ ح٦؛ أمالي الصدوق: ص٧٦٧ ح٩.

قال المحقّق الغفاري: (الصرعة بالكسر: الطرح على الأرض. والاسترسال: الاستيناس والطمأنينة إلى الإنسان والثقة به فيما يحدّثه، وأصله: السكون والثبات. والاستقالة طلب الإقالة، أي: الفسخ في البيع، أراد: أنّ ما يترتّب على زيادة الانبساط من الخلل والشرّ لا دواء له، وفي الكلام استعارة). الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٦٧٢، الهامش الأوّل.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: رقم (٣٩٧٩).

(٤) المصدر نفسه: رقم (٣٧٢١).

بأمرك الظاهر دون سرّك، فلا تحجبه عن حالك، ولا تطلعه على كلّ ما ألمّ بك، وهذه هي أروع صور الوسطية والاعتدال في الحبّ والبغض.

جدير بالذكر: أنّ القرآن الكريم قدّم لنا قاعدتين عظيمتين، في التعاطي الاجتماعي مع من نبغضه، الأولى ممكنة للجميع، وهي ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨)، والثانية ممكنة للأخيار من الأمّة؛ قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)، أي: علينا أن ندفع السيّئة بالعفو والإحسان، فنكون بهذا الخلق قد مهّدنا إلى تحويل تلك العداوة إلى صداقة ومحبّة، وكأنّنا في تعاملنا معه كنّا نتعامل مع الصديق والحبيب، وإنّما صارت هذه المرتبة مرتبة الأخيار من الأمّة نظراً للتوصيفات الدقيقة التي تلت هذه الآية، ويُراد بها أولئك الذين تعاملوا مع عدوّهم وكأنّه وليّ حميم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصِّلت: ٣٥). فصيرورة العدوّ إلى وليّ حميم، يحتاج إلى صبر كبير وانتصار على النفس، وذلك هو الحظّ العظيم. ولو راجعنا سيرة الرسول صلّى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام في تعاطيهم مع أعدائهم، للاحظنا كيف أنّهم كانوا صبورين بنحوٍ كان يُغيظ صبرُهم أتباعَهم، حيث كان الأعداء يتفجّرون غيظاً، ولكنّهم عليهم السلام كانوا يلقونهم بالأمن والسلام، ولم

---

(١) قال السيد المرتضى: «استنمت إلى فلان أذا اطمأننت إليه». الأمالي، للسيد الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين (ت: ٤٣٦هـ)، صحّحه وضبط ألفاظه وعلّق حواشيه: الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي، منشورات: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، إيران، ١٤٠٣هـ: ج٤ ص١٢١.

يكن ذلك منهم ضعفاً أو عجزاً، وإنّما هو المنطق القرآني الحاكم فيهم، فالرسول وعترته الطاهرة صلوات الله عليهم كان خلقهم القرآن.

قصّة عن وسطية الدفع بالتي هي أحسن

من روائع القصص التاريخية ما ورد في سيرة أهل البيت عليهم السلام، وتحديداً في سيرة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، حيث روي أنّ رجلاً في المدينة كان يُناصب الإمام موسى الكاظم عليه السلام العداء، فكان إذا ما مرّ بالإمام عليه السلام يسبّه ويُمعن في ذلك، ثمّ يشتم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام! لإلحاق الأذى بالإمام الكاظم عليه السلام!

فقال بعض حاشيته يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي، وزجرهم، وسأل عن الرجل، فذكروا أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه، فوجده في مزرعة له، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به الرجل: لا توطئ زرعنا. فتواطأها عليه السلام بحماره حتى وصل إليه، ونزل، وجلس عنده، وباسطه وضاحكه، ثمّ قال له: **كم غرمت على زرعك هذا؟** قال الرجل: مائة دينار. قال: **فكم ترجو أن تصيب؟** قال: لست أعلم الغيب. قال له: إنّما قلت: **كم ترجو أن يجيئك فيه؟** قال: أرجو أن يجيء مائتا دينار. فأخرج له أبو الحسن عليه السلام صرّة فيها ثلاثمائة دينار، وقال: **هذا زرعك على حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو**، فقام الرجل فقبّل رأسه، وسأله أن يصفح عمّا فرط منه. فتبسّم إليه أبو الحسن، وانصرف.

ولمّا راح أبو الحسن عليه السلام إلى المسجد وجد ذلك الرجل جالساً، فلما نظر إليه، قال الرجل: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، فوثب أصحابه إليه، فقالوا له: ما قضيّتك قد كنت تقول غير هذا؟! فقال لهم: قد سمعتم ما قلت الآن؟ وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام فخاصموه

وخاصمهم، فلمّا رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل ذلك الرجل: **أيّما كان خيراً، ما أردتم أم ما أردت؟! إنّني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم، وكفيت به شرّه**[1]،

وهذا هو المصداق العملي لقوله تعالى: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصّلت: ٣٤)، وبهذا الخُلق القرآني تحقّق الهدف القرآني والوسطية القرآنية.

وسطية الصراط المستقيم

قال تعالى: ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ**﴾ (الفاتحة: ٦ ـ ٧)، وقد وضّحت الآية محوراً مهمّاً من واقعية الصراط المستقيم، فهو صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم بالإيمان والهدى والصلاح والاجتباء والمقامات الدينية والمعنوية الكبيرة،

---

(١) انظر: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد (سلسلة مؤلّفات الشيخ المفيد)، للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد (ت: ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، الناشر: دار المفيد للطباعة، قم المقدّسة: ج٢ ص٢٣٣؛ سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، بإشراف: شعيب الارنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ: ج٦ ص٢٧١؛ تاريخ بغداد، مصدر سابق: ج١٣ ص٣٠؛ كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت: ٦٩٣هـ)، الناشر: دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ: ج٣ ص٢١؛ إعلام الورى بأعلام الهدى، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ: ص٣١٦ ـ ٣١٧؛ وغيرها. وقد علّق الذهبي على القصة بقوله: «هذا غاية الحلم والسماحة». (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق: ج٦ ص٢٧١).

وليسوا من المغضوب عليهم وليسوا من الضالّين، وإنّما صاروا على الصراط المستقيم لأنّهم لم يخرجوا من دائرة الاعتدال، أي: لم يدخلوا في دائرة الإفراط ولا في دائرة التفريط، وقد بيّن لنا القرآن هويّة هؤلاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**﴾ (النساء: ٦٩)، فهؤلاء الأصناف الأربعة (النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) هم النموذج القرآني للذين أنعم الله عليهم[١]، أو قل: الذين هم على الصراط المستقيم. والآية تفتح الأبواب أمام كلّ من يؤمن بالله تعالى ورسوله الخاتم صلّى الله عليه وآله للالتحاق بركب الذين أنعم الله تعالى عليهم، وقد بيّنت السنّة الشريفة

---

(١) لعلّ أوّل من استدلّ بهذه الآية الكريمة على تحديد هوية الذين أنعم الله تعالى عليهم هو الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فقد روى الشيخ الصدوق بسند طويل عنه عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ**﴾، قال: «**أي قولوا: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّه وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّه عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾**». معاني الأخبار، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، صحّحه: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ: ص٣٦ ح٩؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى المحقّقة، ١٤٠٩هـ: ص٤٧ ح٢٢؛ تفسير نور الثقلين، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، تحقيق: السيد هاشم المحلاّتي، نشر: مؤسسة إسماعليان، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ: ج١ ص٢٣ ح١٠٢؛ تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، للسيد شرف الدين على الحسيني الاسترابادي النجفي، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ: ج١ ص٢٩ رقم (١٤).

مصداقاً عملياً للصدّيقين والشهداء والصالحين من أمّة الإسلام، وهم أهل البيت عليهم السلام؛ فعن حنّان بن سدير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**قول الله عزّ وجلّ في الحمد: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾، يعني: محمّداً وذرّيّته صلوات الله عليهم**»[١].

والقرآن هو الصراط المستقيم؛ قال تعالى: **﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** (الزخرف: ٤٣). وقد نسب الله تعالى الصراط المستقيم لنفسه، فصار ذلك من صفاته، فهو سبحانه الصراط المستقيم؛ قال تعالى: **﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** (هود: ٥٦)، أي: إنّ ربي عادل في قضائه وأمره ونهيه، يُجازي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته، فلا يُظلَم عنده أحد، كما قال سبحانه: **﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾** (الكهف: ٤٩).

ولكينونته سبحانه على صراط مستقيم معنىً عميقٌ؛ فله سبحانه أسماء وصفات، وهي ليست مفاهيم ذهنية، بل وجود عينيّ يمثّل عين الذات المقدّسة. وهذه الأسماء والصفات حاكمة في الخلق، وحاكميتها قد توهم بوقوع نوع من الاختلاف؛ لأنّها صفات متضادّة، فهو سبحانه المُحيي المُميت، وهو المُعزّ المُذلّ، وغير ذلك من الصفات المتضادّة، فأيّ صفة تكون عاملة وأخرى متوقّفة؟ وهل تجتمع صفتان متضادّتان في الأثر على شخص واحد؟ وهنا تظهر واقعية الوسطية في آثار الأسماء الإلهية، وهي التي عبّر عنها بالصراط المستقيم، فكونه سبحانه على صراط مستقيم هو أنّه سبحانه وسطيّ في أسمائه وصفاته، بمعنى: أنّه في «مقام الوسطية والجامعية من دون غلبة

---

(١) معاني الأخبار، مصدر سابق: ص٣٦ ح٧.

صفة على أخرى، وظهور اسم دون آخر»[١]، كما أنّ على العبد أن يكون ماثلاً على ذلك الصراط المستقيم، أي: مُستجيباً لأسماء الله تعالى وصفاته، بمعنى: «إرجاع كلّ عبادة وعبودية من كلّ عابد إلى الذات المتعالي، وحصر الإعانة في جميع مقامات القبض والبسط في ذاته جلّ جلاله بقوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، يطلب هذا المربوب قائلاً: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾، وهذا الصراط هو الصراط الذي يهيمن عليه ربّ الإنسان الكامل، على وجه الربوبية والظاهرية ـ الإظهار والخلق ـ ويكون دور الإنسان الكامل، المربوبية والمظهرية»[٢].

والكينونة على الصراط المستقيم، والصيرورة من الذين أنعم الله تعالى عليهم، هو الابتلاء الأعظم والاختبار الأكبر الذي يُكلّف به الإنسان، وليس هنالك هدف أعظم من هذا الهدف المعرفي والمعنوي، ولو راجعنا السيرة النبوية سنسمع بعض تأوّهات النبي الخاتم صلّى الله عليه وآله، وهو الإنسان الكامل، نتيجة الحثّ عليه بديمومة المكوث على الصراط المستقيم، الوارد في قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾ (هود: ١١٢)، وفي قوله تعالى: ﴿**فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ (الشورى: ١٥)، وقد كان صلّى الله عليه وآله يقول: «**شيّبتني سورة هود**»[٣]، وفي ذلك يرى أحد الأعلام: «أنّ هذا الكلام منه صلّى

---

(١) الأربعون حديثاً، للسيّد الإمام روح الله الخميني، تعريب: السيد محمد الغروي، الناشر: مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى: ص٤٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٧٢.

(٣) ورد الخبر بصيغتين «**شيّبتني هود**»، و «**شيّبتني سورة هود**»، والمعنى واحد. انظر: المصنّف، لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي، بيروت: ج٣ ص٣٦٨ ح٥٩٩٧؛ مصنّف ابن أبي شيبة، مصدر

الله عليه وآله لأنّ الله تعالى قد طلب استقامة الأمّة أيضاً منه صلّى الله عليه وآله، ولهذا لم يقل صلّى الله عليه وآله هذا الكلام بالنسبة إلى سورة الشورى، مع أنّ هذه الآية موجودة فيها أيضاً؛ لأنّها ليست مذيلة بهذا الذيل»[1].

وكلّما بلغ الإنسان في سيره وسلوكه مرتبة معرفية أو معنوية جديدة فإنّ مهمّة البقاء على الوسطية، أو قل مسؤولية البقاء على وسطيّته، ستكون أصعب وأعقد وأشدّ عليه، ومن هنا نفهم مدى صعوبة مهامّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، الذين كابدوا كثيراً وتجرّعوا الآلام للبقاء على وسطيّتهم، وفي طولهم تظهر مدى صعوبة مهامّ المصلحين في حفظ وسطيّتهم وسط هذا

سابق: ج٧ ص٢٠١؛ الخصال، مصدر سابق: ص١٩٩ ح١٠؛ أمالي الصدوق، مصدر سابق: ص٣٠٤ ح٤؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٥ ص٧٦ ح٣٣٥١؛ المستدرك على الصحيحين، مصدر سابق: ج٢ ص٣٤٣؛ شرح صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٢ ص٩؛ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، طبع دار إحياء التراث العربي، نشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية: ج٦ ص١٤٨؛ الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، محمد بن عيسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: سيد عباس الجليمي، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ: ص٥٨؛ عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج١ ص١٨٨ ح٢٦٦.

(١) الكلمة لآية الله محمد علي شاه آبادي، أستاذ السيد الإمام الخميني. انظر: سرّ الصلاة (معراج السالكين وصلاة العارفين)، للسيد روح الله الخميني، الناشر: مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، قسم الشؤون الدولية، طهران، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م: ص١٤٦. قال السيد الأستاذ دام ظله: «وهي كلمة وجيهة، ولكن لا يبعد أن يكون اختصاص سورة هود بالذكر دون سورة الشورى لأنّ سورة هود قد نزلت قبل الشورى بفترة غير قصيرة، وأنّ النبي صلّى الله عليه وآله قد قال كلمته بعد نزول سورة هود وقبل سورة الشورى».

الركام الهائل من التطرّف، ومن التقوقع في إحدى دائرتي الإفـراط والتفـريط، والانجراف نحو تغييب هويّة الإنسان السوي وتشويه حقيقته.

وعلى أيّ حال فإنّ «الاستقامة وعدم الخروج من الوسطية في جميع المقامـات من أشدّ الأمور على السالك، ولابدّ له في حال القيام بين يدي الله من الخجلة، وأن يكون ناكساً رأسه؛ لعدم القيام بالأمر كما ينبغي، ويلزم أن ينظـر إلى محـلّ السجدة، وهو تراب المذلّة، ويتذكّر مقام تذلّـله وقصوره وتقصيره»[1] ولا ينبغي أن يُفهم من نكسة الرأس هذه، ومن النظر إلى تـراب المذلّـة، أن يُـصار بـه إلى الذلّ، وإنّما المراد هو الخـروج مـن الـذلّ للـنفس الـذي هـو محـض الـنقص، والسموّ إلى الذلّ للمولى جلّ وعلا الذي هو محض الكمال.

الوسطية الفردية والاجتماعية

الوسطية الفردية هـي أن لا يهمـل الإنـسان مـصالحه الشخـصية، ولا أن تكون هي هدفه الأساسي في هذه الحيـاة. فإهمـال المـصالح الشخـصية يجعلـه متطفّلاً على غيره في قضاء حوائجه، ومستغرقاً في مصالحه الشخصية، وجعلها هدفه الأوحد سيوقعه في الظلم والتجاوز على الآخرين، وإنّـما يقـع الطغيـان بسبب هذا الحرص الشخصي والتنصّل عن تكاليفـه الاجتماعيـة؛ قـال تعـالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: ٦ ـ ٧)، حيث الاسـتغناء بمصالحه على مصالح غيره.

ومن الوسطية الفردية: أن ينهض كلّ إنسان بمسؤولياته، فيتحمّل مـا يقـع منه من الأخطاء ولا يُحمّلها لغيره، فكما كان ينعم وحده بالغنـائم فـإنّ عليـه أن يذوق مرّ الخسائر، فلا يكلّف مَن سـواه في تحمّـل أعبائـه وسـدّ خـسائره، وإلّا

---

(١) سرّ الصلاة (معراج السالكين وصلاة العارفين)، مصدر سابق: ص١٤٦.

سوف يكون إفراطيّاً بتحميل غيره مهامّـه، وتفريطيّـاً بتنـصّله عنهـا، وقـد نبّـه القرآن لذلك في قولـه تعـالى: **﴿قُـلْ أَغَـيْرَ اللَّهِ أَبْـغِي رَبّـاً وَهُـوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾** (الأنعام: ١٦٤)، ومـن حمّل أخاه خطاياه فإنّه يكون قد ظلم نفسه بذنب آخر، وظلم أخاه بتحميلـه مـا ليس عليه، فيكون قد خرج على الوسطية المثلى، وهي طريقة الخـير والاعتـدال والسويّة، وما لم يكن الإنسان متّصفاً بالوسطية الفردية فإنّ تطرّفـه سيـسري إلى اجتماعيّاته.

وأمّا الوسطية الاجتماعية فتعني أن يكون نافعاً في وسطه الاجتماعـي مـن غير أن يلحق بنفـسه الـضرر المعتـدّ، وأن لا يلحـق الـضرر بمجتمعـه، ولـو بحجب النصيحة عن أهله وأقربائه وجيرانه وأصدقائه وسائر من يلتقي بهم، وهذا هو الخير كلّه، والطريقة المثلى في التعاطي الاجتماعي. وما لم نكن كـذلك نكون قد أخطأنا في فهم المسؤولية وتحمّل أعبائها، وقد قـال رسـول الله صـلّى الله عليه وآله: «**ألا كُلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته**»[1]، ورعيّة الإنسان

---

(١) مصنّف الصنعاني، مصدر سابق: ج١١ ص٣١٩ ح٢٠٦٤٩؛ مسند أحمد، مـصدر سـابق: ج٢ ص٥؛ صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٨ ص١٠٤؛ صحيح مسلم، مـصدر سـابق: ج٦ ص٨؛ سنن أبي داود، مـصدر سـابق: ج٢ ص١٣ ح٢٩٢٨؛ سـنن الترمـذي، مـصدر سابق: ج٣ ص١٢٤ ح١٧٥٧؛ سنن النسائي، مصدر سابق: ج٥ ص٢٦٨؛ المستدرك عـلى الصحيحين ، مصدر سابق: ج١ ص٤٦٦؛ منية المريد، مـصدر سـابق: ص٣٨١؛ عـوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج١ ص١٢٩ ح٣؛ تنبيه الخواطر ونزهة النـواظر (مجموعـة ورّام)، للورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري، نشر: مكتبة الفقيه، قم: ج٢ ص١١٥.

إنَّ تحصيل التفقّه في الدين بحسب رأي السيد الأُستاذ وإن كان يبدأ فرديّاً إلّا أنّه بالنـسبة للمجتمع هو مسؤولية الجميع، فلا ندَع الناس على غفلاتهم، بـل يجـب إخـراجهم منهـا بحسب المنطق القرآني القائم على أصل جوهريّ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

نفسُه ومن يتعلّق به، وعن النبي صلّى الله عليه وآله أيضاً: «**إنّ الله سائل كلّ راعٍ عمّا استرعاه، أَحفظ ذلك أم ضيّع، حتى يسأل الرجل على أهل بيته**»[1].

ومن الوسطية الاجتماعية: عدم العزلة التامّة عنهم، وعدم الاندكاك فيهم أيضاً، فلابدّ من الطريقة المثلى في التعاطي الاجتماعي، أو قل: لابدّ من وضع حدود صحيحة تكفل للإنسان خصوصيّته وتفرّغه المطلوب لنفسه ووضعه، وتكفل له حفظ العلاقات مع مجتمعه، فإنّ العزلة والرهبنة، والانغماس غير المبرّر، كلّ ذلك ضربٌ من الإسراف في العلاقات، في سلبها وإيجابها، في إفراطها وتفريطها.

وبالتالي فإنّ علينا الجمع بين معطيات قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ (المائدة: ١٠٥)، حيث النظر الأوّل للإنسان في هداية نفسه والخير والمصالح المتعلّقة به، وبين معطيات قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**﴾ (الرعد: ١٧)، ومن الزبد: الأنانية في المصالح الفردية، وأمّا ينفع الناس فهو العمل الاجتماعي النافع فاستحقّ أن يمكث في الأرض، وبين معطيات قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء: ٩٢)، حيث النظر إلى الوحدة الجامعة بين الأفراد، فلا يكون الفرد إلّا كاللبنة في الجدار القائم، والعضو الفاعل في الجسد الحيّ.

ومحصّلة هذه المعطيات هي الوسطية المثلى في التعاطي الفردي والاجتماعي، فتنظر إلى نفسك من حيثيتين:

الأولى: أن تحفظ نفسك ومصالحك؛ فبها قوام حياتك.

---

(١) السنن الكبرى، مصدر سابق: ج٥ ص٣٧٤ ح٩١٧٤؛ فتح الباري في شرح البخاري، مصدر سابق: ١٣ ص١٠١؛ الجامع الصغير، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٧ ح١٧٤٥.

الثانيـة: أن تحفـظ حـضورك الإيجـابي في الوسـط الاجتماعـي؛ فبـه دوام حياتك.

وبين الفردية والاجتماعية تتجلّى أرقى صور الوسطية، ومن خلالها يتّضح ذلك الانفراط الهائل الذي يقع فيه الكثير، بين الإفراط والتفريط.

جدير بالذكر: أنّ الوسطية الفردية والاجتماعية تعني بالـضرورة حـصول الاتزان النفسي والداخلي للفرد وهو يمارس دوره في وسـطه الاجتماعـي، ومـن دون حصول هذا الاتزان في محتـواه الـداخلي فإنّـه سـوف يكـون نهبـاً لـدوائر الإفراط والتفريط، وبذلك سيكون الاتزان في المحتوى الداخلي هو الـضمانة في حفظ الشخصية المعتدلة والمتوازنة، وعندئذٍ سيكون قادراً عـلى مواجهـة جميـع التحدّيات التي تحيط به، والإسـهام المبـاشر في رفـع التناقـضات التـي تفرزهـا النفس الإنسانية بصفتها مشتملة على غرائز وطبائع مادّيـة، ورفـع التناقـضات الاجتماعية التي يُحدثها الصراع الطبقي بين الناس والفئات والتيّارات المختلفة.

الوسطية في العلم والعمل

وهنا الأهمّ: في التحصيل وفي التطبيق؛ فإنّ العلم إنّما يراد به العمل، والعمل لا يكون صحيحاً إذا لم يكن مسبوقاً بالعلم، وبالتالي فـالعلم الـذي لا ينتفـع منـه الناس يكون إسرافاً وهدراً للوقت والطاقة وتفريطاً في الوظيفة، كـما أنّ العـزوف عن تحصيل العلم هو الآخر إسراف، فيكون الترك تفريطاً، ويكون تحصيل العلم غير النافع إفراطاً، والوسطية هي تحصيل العلم النافع، والعلم النـافع هـو العلـم المصحوب بإنارة البصيرة وتهذيب النفس، والذي ينتفع بـه الإنـسان والمجتمـع، فذلك الذي يستحقّ منا أن نوقف أسماعنا عليه، كما قال أمير المـؤمنين عـلي عليـه السلام في بيانه لصفات المتّقين: «**ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم**»[1].

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص١٦٠ خطبة (١٩٣).

وأمّا الوسطية في العمل فهي بين الترك وبين كونه غير مسبوق بعلم، فترك العمل تفريط، والعمل بلا علم إفراط، والوسطية هي العمل المسبوق بالعلم.

ولو نظرنا إلى القرآن الكريم فكثيراً ما نجده يقرن العلم بالعمل، فالآيات التي تقرن الإيمان بالعمل الصالح كثيرة، فقوله تعالى: **﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** (البقرة: ٢٥)، وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** (البقرة: ٨٢)، وعشرات الآيات الأخرى، إنّما تعبّر عن اقتران العلم بالعمل؛ لأنّ الإيمان لا يمكن له أن يكون إلّا إذا كان مسبوقاً بالعلم، فيكون مفادها هو: الذين علموا وآمنوا وعملوا صالحاً.

الوسطية بين الصراع والحوار

قد يبدو الصراع مذموماً، وقد يبدو الحوار ممدوحاً، ولكنّ منطق الوسطية لا يرى الصراع مذموماً في كلّ موارده، ولا الحوار ممدوحاً في كلّ موارده، وإنّما هو منطق قائم على أساس الأولويّات، وكما قال المتنبّي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعِدى
مضرّ كوضع السيف في موضع الندى(١)

روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في بيانه للعلم النافع: «**العلم علمان: علم على اللسان، فذلك حجّة على ابن آدم، وعلم في القلب، فذلك العلم النافع**». مصنّف ابن أبي شيبة، مصدر سابق: ج٨ ص١٣٣ ح١٦٠؛ سنن الدارمي، مصدر سابق: ج١ ص١٠٢؛ الجامع الصغير، مصدر سابق: ج٢ ص١٩٣ ح٥٧١٧؛ منية المريد، مصدر سابق: ص١٣٦؛ عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٤ ح٩٩.

(١) شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١٦ ص١٠١. وقد ورد فيه: (ووضع الندى في موضع السيف بالعُلا ... مضرّ كوضع السيف في موضع الندى). والأصحّ: العِدى.

ولكنّ المقطوع به هو أولويّة الحوار على الصراع، وأمّا الوسطية المطلوبة بين الصراع والحوار فهي أنّ المجال المتعلّق بالحقوق المسلوبة لابدّ أن يكون الهدف استردادها بالنحو الذي لا يلزم من ذلك وقوع خسائر أكبر من الحقوق المفقودة، فذلك إسراف، كما أنّ تركها هو الآخر إسراف، فلابدّ من طريق وسطيّ في ذلك.

بعبارة أخرى: إنّ وسطية الحوار هي فيما إذا كان منتجاً، وأمّا إذا كان عقيماً فإنّ اعتماده سيكون إسرافاً، كما أنّ ترك أصل الحوار إسراف، ووسطية الصراع هي أن يقع في طول الحوار، فإن وصلت النوبة له فوسطيّته أن يُتّخذ طريقاً إذا كان منتجاً ولم تكن أضراره أكبر من منافعه، وإلّا صار إسرافاً، كما أنّ ترك أصل الصراع هو الآخر إسراف، ولو راجعنا الصراعات التاريخية بين الأمم والأديان والمذاهب والأحزاب والمدارس سنجد أنّ صوت الصراع هو الغالب فيها على صوت الحوار، وذلك لأنّهم لم يكونوا وسطيّين في الصراع والحوار، حيث كانت لغة الغالب والمغلوب هي اللغة الحاكمة في الأوساط المختلفة، وحيثما كان الصراع قائماً فإنّ مساحة الاختلاف والعداوات تتّسع شيئاً فشيئاً، ومقتضى الوسطية في المقام هو نشر ثقافة الحوار وتغليبها في كلّ الملتقيات، ويكون مساحة الصراع من باب «آخر الدواء الكيّ»، أو بقدر الملح في الطعام، ليس لعدم أهمّية الصراع وجدوائيّته، ولكن لأنّ معظم الخلافات التاريخية أخذت طابع الصراع ولم تأخذ طابع الحوار، فأنتجت إشكاليات خطيرة على مستوى الفكر والثقافة والعقيدة والشريعة والأخلاق، فاحتاج الأمر إلى إعادة قراءة جديدة في تلك الأحداث، وليس أمامنا سوى الحوار، وإن كانت ثمرة الحوار ضئيلة، فإنّها تستحقّ العمل من أجلها، وعلينا أن نوقد شمعة في ظلام الصراع الدامي بدلاً من لعن الظلام، كما علينا أن نفهم أنّ

الحوار مسؤولية ووظيفة وتكليف، وليس ترفاً اجتماعياً، وليس شيئاً كمالياً أو تكميلياً، وإنّما هو الأصل في التعاطي الإنساني، وقد قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: ١٢٥)، وكلّ من الحكمة والموعظة الحسنة ـ التي هي أحسن ـ محاور أساسية في تحقيق الوسطية القرآنية، وبتفعيل الحوار نكون قد وضعنا الأسوار الأولى التي تطوّق مساحات الخلاف والاختلاف، ثمّ العمل على معالجة الخلافات وتذويب القدر الممكن منها، ولابدّ من وضع أسس ثابتة في طريقة الحوار؛ لضبط الحوار وعدم السماح له بالتحوّل إلى حالة صراع جديدة وتوسعة الصراعات القبلية، وهذا ما ينبغي أن يتصدّى له الحكماء من الأمّة.

هنالك عدّة ملاحظات لابدّ أن تُراعى في رسوم الحوار المنتج، منها:

١. أن لا يكون الهدف الحقيقي من الحوار هو العمل على تضعيف الآخر، فذلك عمل غير مسؤول، فضلاً عن كونه عقيم النتائج، ومن العسير جداً أن يصاحبه التوفيق، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله ينظر في خصومه محاسنهم ويعمل على تنميتها، وإطفاء نائرتهم، ولذلك نجده صلّى الله عليه وآله قد حقّق نتائج باهرة، فمع أنّه كان منتصراً نفسياً وعسكرياً على قريش في فتح مكّة (عام ٨ هجرية) إلّا أنّه عندما قابل خصمه اللدود أبا سفيان أكرمه بما تطيب به نفس أبي سفيان، فقال: «**مَن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن**»[1].

وعندما دخل الجيش الإسلامي إلى مكّة، كانت الراية بيد الصحابي سعد

---

(١) الخصال، مصدر سابق: ص٢٧٦؛ تهذيب الأحكام، مصدر سابق: ج٦ ص١٣٧؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج٢ ص٢٩٢؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٥ ص١٧١؛ سنن أبي داود، مصدر سابق: ج٢ ص٣٨ ح٣٠٢٢.

بن عبادة الذي رفع شعار (اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسبى الحرمة)، فأرعب أهل مكّة بذلك، ولمّا انتهى الأمر إلى نبيّ الرحمة رسول الله صلّى الله عليه وآله أمَر مِن فوره أمير المؤمنين عليّاً بأن يأخذ الراية منه وينادي: «**اليوم يوم المرحمة، اليوم تُصان الحرمة، اليوم أعزّ الله قريشاً**»[1]، وكلّ هذا يعكس صفحات الحوار الجديدة بدلاً من صفحات الصراع، وهذا ما ينبغي أن نتعلّمه من سيرته الطاهرة.

٢. أن يقوم الحوار على حسن الظنّ بالآخر، وهو أصل قرآنيّ، وليس على سوء الظنّ به. أي: ينبغي أن نكون كما أدّبنا القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ (الحجرات: ١٢)، ومن حسن الظنّ عدم التحاكم إلى النوايا، فإنّ النوايا ضرب من الغيب، والغيب لا يعلمه إلّا الله تعالى، والاحتكام في ذلك إلى ما تكنّه الصدور ما هو إلّا رجم بالغيب، المستقبح عقلاً ونقلاً وعرفاً.

٣. أن يعتمد الحوار على أصل قرآنيّ آخر، وهو الأخوّة الإيمانية؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ (الحجرات: ١٠). فبالأخوّة الإيمانية سنتجاوز الكثير من الأمراض النفسية التي غالباً ما تصحب الحوارات العقيمة، ومنها العمل على تصيّد العثرات،

---

(١) ورد الخبر بألفاظ متقاربة، وما ذُكر مشابه لها. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٨ ص٧؛ شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١٧ ص٢٧٢؛ تاريخ مدينة دمشق، مصدر سابق: ج٢٣ ص٤٥٤؛ أُسد الغابة، مصدر سابق: ج٢ ص٢٨٤؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٢١ ص١٠٩؛ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (السيرة النبوية)، تأليف: محمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس (ت: ٧٣٤هـ)، الناشر: مؤسسة عزّ الدين، بيروت، ١٤٠٦هـ: ج٢ ص١٩٠.

والعمل على حشر الخصم في زوايا ضيّقة، وكأنّهما في حلبة صراع، فـذلك مـن ضيق الأفق، بـل ومـن الأمـراض النفـسية المستعـصية، في حـين أنّ الأخـوّة الإيمانية تمنح النفس الأمن والطمأنينة، والقوّة والمنعة، والهيبة والسُؤدد، ومتى ما ساد الأمن والطمأنينة بين المتحاورين أنتج الحوار تقارباً كبـيراً، وتـصالحاً واقعياً، وتكاتفاً عميقاً، وإنتاجاً متكاملاً، وحلولاً موضـوعية منطقيـة لجميـع المشكلات التي تعترض طريق وحدتهم وتلاحمهم.

جدير بالذكر: أنّ الآية تقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، والمؤمنون هم كـلّ من آمن بالله تعالى واليوم الآخر، كقدر متيقّن، فيُحرز عنوان الأخوّة الإيمانية، لترتقي هذه الأخوّة في سلّم المراتب الإيمانية ـ كما سـيأتي بيانـه[1] ـ ولا ينبغـي الإغفال عن ذيل الآية الآنفـة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، حيـث تـشير إلى منطـق الرحمة؛ ليكون شعاراً عملياً في رعاية الأخوّة الإيمانيـة، ولـيس منطـق التنـافر والقطيعة، ومن هنا علينا جميعاً أن نستوسع من رحمة الله تعالى، الذي وسـعت رحمته كلّ شيء، لا أن يقصر كـلٌّ منّـا رحمـةَ الله الواسـعة عـلى نفـسه، فـذلك ـ فضلاً عن كونه كاشفاً عن النفوس الضيّقة ـ لا يخرج عن كون منـشئه سـوء الظنّ بالله تعالى.

٤. بالقدر الذي يُعتمـد فيـه عـلى النـصوص الدينيـة في الحـوارات ذات الطابع الفكري والديني، لابـدّ مـن اعـتماد العقـل بالقـدر نفـسه، فالعقـل في الغالب يُعطي مساحة اشتراك واسعة، وهو قابل على تغيير القناعات المـستندة على نصوص تاريخية وقراءات خاطئة أو وليدة أزمانها، وإذا مـا غـاب العقـل عن الحوار ـ ونعني به العقل المنتج فضلاً عـن العقـل المفكّـر والمحلّـل ـ فـإنّ

(١) في البحث اللاحق (مراتب الإيمان).

الحوار سوف ينتهي إلى تصادم وقطيعة، فالنصوص في الغالب قابلة للقراءات المختلفة، لاسيّما النصوص القرآنية المنظور فيها الجهة المفهومية لا المصداقية.

وقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول لعبد الله بن العباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج قبيل وقوع معركة النهروان: «**لا تخاصمهم بالقرآن؛ فإنّ القرآن حمّال، ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنّة؛ فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً**»[١]، ومعنى كون القرآن حمّالاً ذا وجوه هو أنّه يحتمل التصريف على التأويلات، والحمل على وجوه مختلفة[٢]، ولا يفهم من ذلك: النهي عن الاحتجاج بالظواهر القرآنية مطلقاً، وإنّما كان النظر منه عليه السلام لطبيعة الخوارج الذين كانوا كما وصفهم رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**... قوماً يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم**»[٣]، والسنّة في كثير من مواردها مصداقية تطبيقية[٤]، بخلاف

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص١٣٦ ح٧٧.

(٢) انظر: المجازات النبوية، مصدر سابق: ص٢٥١.

(٣) مسند أحمد، مصدر سابق: ج١ ص١٥١؛ ص١٥٦؛ صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٤ ص١٧٩؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٣ ص١١٢؛ سنن ابن ماجة، مصدر سابق: ج١ ص٥٩ ح١٦٨؛ سنن أبي داود، مصدر سابق: ج٢ ص٤٢٨ ح٤٧٦٥؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٣ ص٣٢٦ ح٢٢٨٣؛ سنن النسائي، مصدر سابق: ج٥ ص٨٨؛ سنن الدارمي، مصدر سابق: ج١ ص٦٩. وقريب منه في: أمالي الطوسي، مصدر سابق: ص٢٠٠ ح٤٣.

(٤) يرى السيد الأستاذ دام ظله أنّ للرواية عدّة وظائف، أهمُّها: الدور التعليمي للعملية التفسيرية؛ أي إنّها تُربّي وتوجّه المفسّر إلى كيفية جريان العملية التفسيرية، والدور التطبيقي؛ فهي ناظرة عادةً إلى وجه تطبيقيّ للآية، وليست هي مفسّرة له، لأنَّ الذي يتكفّل بالدور التفسيري للقرآن هو القرآن نفسه، والدور التوكيدي لِما أسّسه الفهم

القرآن فإنّه مفهوميّ قابل للانطباق على مصاديق كثيرة، ويحتاج فهمه إلى قدرات عقلية، وهؤلاء قد عطّلوا العقل وتمسّكوا بالظواهر القرآنية، وصاروا يطبّقونها وفق ما يشتهون، أو قل: وفق قدراتهم العقلية الضعيفة[1].

٥. التعاطي الجدّي في طلب الحقيقة، بمعنى أن يحتمل كلّ طرف من طرفي الحوار أن يكون الحقّ مع خصمه، كما هو يرى في الأصل أنّ الحقّ معه، ومع عدم وجود احتمال كهذا فإنّ كلّ واحد سوف يرى الآخر على باطل، ولا يمكن القبول بقوله وإن قدّم أنصع الأدلّة وأقواها، وهذا المنطق الاحتمالي في الآخر هو المنطق القرآني الصريح، كما جاء في قوله تعالى: **﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾**

القرآني للقرآن، والدور التعميقي لفهم النصّ، فإنّها كثيراً ما تُلفت النظر إلى مراتب معرفية يعسر الوصول إليها بدونها. انظر: منطق فهم القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٥٥.

(١) هنالك طبقة من الناس لا يكفي أن تتحدّث لهم عن صفات الشمس ليتعرّفوا عليها، فلا يكفي أن تقول بأنّها كوكب كبير يمنح الأرض ضوءاً وحرارة وطاقة، وإنّما لابدّ أن ترفع وجهك للسماء وتشير بيديك إلى الشمس في وضح النار ثم تقول لهم: هذه هي الشمس. فهؤلاء يفكّرون بعيونهم لا بعقولهم، هم تجزيئيّون، لا يدركون من الكلّيات شيئاً! وكأنّهم لم يدركوا المرحلة الرابعة التي يفترق بها الإنسان عن الحيوان؛ يقول الشيخ المظفر: «ثمّ يذهب ـ الإنسان ـ في طريقه وحده متميّزاً عن الحيوان بقوّة العقل والفكر التي لا حدّ لها ولا نهاية، فيدير بها دفّة مدركاته الحسّية والخيالية والوهمية، ويميّز الصحيح منها عن الفاسد، وينتزع المعاني الكلّية من الجزئيّات التي أدركها فيتعقّلها، ويقيس بعضها على بعض، وينتقل من معلوم إلى آخر، ويستنتج ويحكم، ويتصرّف ما شاءت له قدرته العقلية الفكرية، وهذا العلم الذي يحصل عليه الإنسان بهذه القوّة هو العلم الأكمل الذي كان به الإنسان إنساناً». المنطق، للشيخ العلّامة محمّد رضا المظفر، الناشر: دار التفسير، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ: ص١٢.

(سبأ: ٢٤)، وأمّا منطق أن تكون أنت على الحقّ المطلق وأنّ الآخر على ضلال مبين فهو منطق المتشدّدين من علماء اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ (البقرة: ١١٣)، وهؤلاء لم يكونوا من السوقة منهم، وإنّما كانوا علماء ومراجع دين، وهذا ما أشارت له الآية نفسها: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ولكنّهم أشبه الناس بالأمّيين والجهلة، الذين لا يفقهون من الدين شيئاً، فللدين روح شامخة، وهؤلاء المتشدّدون لا يفقهون من روح الدين شيئاً، والدين الذي يؤمنون به هو دينهم الذي صنعوه بعقولهم وأفهامهم القاصرة، ولذلك نعتهم القرآن بالجهل، كما جاء صريحاً في الآية نفسها: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: أدعياء العلم من الأديان قاطبة، الذين يرفعون راية التشدّد في نفي الآخر وتجريده من كلّ شيء، من الدين والإيمان، مع أنّ القرآن ـ كما تقدّم ـ كان يأمر النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وهو على الحقّ جزماً بأن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، ولم يقل له: قل لهم بأنّك على الحقّ المطلق وأنّهم على الباطل المطلق.

وفي هذا المنطق القرآني إشارة صريحة إلى أنّ الاختلاف أمر طبيعي، وإنّما تزداد مساحته أو تقلّ بمدى المساحة المتاحة من الحوار والانفتاح على الآخر، وما يبقى من الاختلاف ـ وهو أمر ممكن ولا ضير فيه ـ فإنّ الله تعالى قد بيّن لنا في ذيل الآية التي جزّأناها ـ آية البقرة ـ طريقة التعاطي في ذلك، حيث تختم الآية موضوعها بهذا الضابط العظيم، والذي يرفع عن كاهل الأمّة تلك الثقافات الخاطئة والآمرة بإلغاء الآخر أو بتضليله أو بتفسيقه أو بالأمر بقتله، كما هو حال الأمّة في أبشع صور تعاطيها مع الآخر؛ قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة: ١١٣).

ومن هنا لابدّ أن ننطلق قرآنياً، وأن نحتكم وفق المنطق القرآني الذي أمرنا بتكريم الإنسان، وأمرنا بحفظ حرمته وشخصيّته وعدم ترويعه، وأن نتراحم، كما جاء صريحاً في منطق التعاطي مع الخصم: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصّلت: ٣٤)، لا أن نتحاكم وفق منطق أهل النار الدموي، القائم على حقيقتهم الظلمانية والنارية، كما جاءت الحكاية عنهم في قوله تعالى: ﴿**قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا**﴾ (الأعراف: ٣٨)، فأيّهما من العقل والعقلانية: أن نحتكم إلى المنطق القرآني، منطق الهدى والنور، أم نحتكم إلى منطق أهل النار، منطق الظلال والظلمة؟

٦. الابتعاد كلّياً عن المنفّرات التي تفيد التضليل والتفسيق والتكفير، من قبيل الحديث المخالف لروح القرآن ومقاصده، وهو حديث الفرقة الناجية، فإنّه من أكبر المعاول الهدّامة لأيّ حوار يُعقد، فهو يفيد بالضرورة لمن يعتقد به: بأنّه هو الناجي، والباقي من الفرق الدينية في النار، وحيث إنّ كلّ فرقة ترى نفسها هي الفرقة الناجية فذلك يعني النظرة السوداوية والقاتمة للآخر، فتخلق سوء الظنّ بالآخر، والنفرة التامّة، وهو حديثٌ موضوعٌ لم يُنتج في الأمّة إلّا الفرقة والانقسام، والله تعالى يقول: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وحبل الله تعالى هو القرآن، كما جاء في حديث الثقلين، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**أيّها الناس! إنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا من بعدي: الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله عزّ وجلّ حبل ممدود من السماء إلى الأرض ...**»[1].

---

(١) روي هذا الخبر المستفيض في مصادر الفريقين، ولا يكاد يوجد كتاب حديثيّ إلّا ونقل

٧. لابدّ من الإصغاء للآخر وعدم المقاطعة عند عرض وجهات النظر، فإنّ نصف الفهم هو التوجّه والإصغاء، ونصفه الآخر في إتمام الفكرة، فليس للخصم أن يقاطع في كلّ جملة وفي كلّ فكرة قبل أن تكتمل، كما ليس من الإنصاف أن يقابل الطرف الآخر ما يلقيه الأوّل عليه بالإهمال، ولعلّ الكثير من الخلافات التي تتفاقم في الحوارات منشؤها هو عدم إعطاء فرصة للآخر لإكمال فكرته أو عدم التوجّه لما يقول، فتجد الآخر في أثناء ما ينبغي الاستماع له يُفكّر في المقاطعة أو الردّ أو المشاغبة، وهذه الأمور كلّها فاقدة لمبادئ الحوار وأصوله وفنّه، ومتى ما أجدنا أصول الحوار، ومنها الإصغاء وعدم المقاطعة، نكون قد منحنا أنفسنا فرصة الفهم الجيّد وفرصة الردّ الجيّد وفرصة الاقتراب من الآخر، ليتحقّق الهدف الذي نصبو إليه جميعاً.

ولعلّ في الإصغاء الجيّد ـ فضلاً عن كونه نصف الفهم ـ فرصة سانحة لقبول الآخر؛ لأنّه يكشف عن عناية فائقة بما يقول الآخر، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يسمع من بعض الأعراب كلمات مثيرة ولكنّه يقابلها بالسماحة واللين والإصغاء والجدّية، فلذلك كانت تلين قلوب الخصوم، وقد كان البعض يُشدّد على رسول الله في المسألة ويطلب منه صلّى الله عليه وآله أن يُقسم على ما يقول! ولم يُقابله النبي صلّى الله عليه وآله إلّا بالصبر والرحمة، فيكون صلّى الله عليه وآله أوثق عند الخصم وأكثر مقبولية، كما هو الحال في قصّة ضمام بن ثعلبة[1].

حديث الثقلين، ولمراجعة تحقيق الحديث، سنداً ومتناً، يراجع كتاب: (حديث الثقلين سنداً ودلالة ... قراءة في أبحاث سماحة المرجع الديني السيد كمال الحيدري)، مصدر سابق.

(١) «دخل ضمام بن ثعلبة في المسجد النبوي على جمل، فأناخ جمله في المسجد وعقله، ثم قال للجالسين: أيّكم محمد؟ ـ والنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم متّكئ بين ظهرانيهم ـ فقال

٨. إعطاء النفس فرصة العود عمّا بنت عليه مسبقاً، فليس الحوار من أجل إرغام الآخر على القبول بما تعتقد، وإنّما هو إعطاء النفس فرصة للمراجعة

الصحابة: هذا الرجل الأبيض المتّكئ. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له صلّى الله عليه وآله وسلم: **قد أجبتك**. فقال الرجل: إنّي سائلك فمشدّد عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك. فقال: **سل عمّا بدا لك**. فقال: أسالك بربّك وربّ من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلّهم؟ فقال: **اللّهُمّ نعم**. فقال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تصلّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: **اللّهُمّ نعم**. قال: أنشدك الله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ فقال: **اللّهُمّ نعم**، قال: أنشدك الله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اللّهُمّ نعم**، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول مَن ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة». (انظر: مسند أحمد، مصدر سابق: ج٣ ص١٦٨؛ صحيح البخاري، مصدر سابق: ج١ ص٢٣؛ سنن ابن ماجة، مصدر سابق: ج١ ص٤٤٩ ح١٤٠٢؛ سنن أبي داود، مصدر سابق: ج١ ص١١٧ ح٤٨٦؛ سنن النسائي، مصدر سابق: ج٤ ص١٢٢؛ صحيح ابن حبّان، مصدر سابق: ج١ ص٣٦٧؛ السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٥هـ: ج٤ ص١٢٠؛ الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلّى الله عليه وآله (مدخل لدراسة السيرة والتاريخ)، للعلّامة المحقّق السيد جعفر مرتضي العاملي، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ: ج٢ ص٢١٣.

يقول السيد جعفر العاملي: «إنّ عدم قدرة ضمام على تمييزه صلّى الله عليه وآله عن أصحابه لخير دليل على خلق النبي العظيم، وعلى أنّ الإسلام لا يعترف بتلك الفوارق المصطنعة بين الحاكم ورعيّته، ولا يعتبر أنّ الحكم يعطي للحاكم امتيازاً، وإنّما هو مسؤولية، كما أنّ إسلام ضمام استناداً إلى شهادة النبي صلّى الله عليه وآله نفسه ليعتبر الذروة في الثقة به صلّى الله عليه وآله وسلّم، وتأثير هذه الثقة في قبول دعوته، وانتشار رسالته». المصدر نفسه.

والعود عند سماع الحقّ أو ما يقنعك، فلا تصحّ المكابرة أو الجدل الفارغ، فعدم إعطاء النفس فرصة العود والمراجعة ستقضي على هدفية الحوار وتحوّله إلى جدل عقيم، وفي القرآن إشارة لطيفة إلى كون الحوار هو بمعنى المراجعة أو الرجوع، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الانشقاق: ١٤)، أي: ظنّ أنّه لن يرجع إلى ربّه[1]. فإن لم تكن هنالك فرصة للمراجعة والعود وقع الجدال العقيم.

والفرق بين الحوار والجدل: هو أنّ الحوار بحث عن الحقيقة، وأمّا الجدل فهو بحث عن الذات، ولذلك تجد المجادل ـ البعيد عن لغة الحوار ـ سرعان ما يفضح نفسه بعلامات الجدل المقيت، وهي استعانته بالصوت العالي، ظنّاً منه أنّ بذلك تكون له الغلبة، ومقابلة الآخر بالتخطئة، فيقابله بكلمات الشجب، من قبيل: (لا، خطأ، غلط، مشتبه، بالعكس ... الخ)، وغالباً ما تجد المجادل بصدد نقض الفاعل في الحوار وليس الفعل، فعندما تذكر له حادثة تاريخية قابلة للأخذ والردّ لا يُوجّه سمعه ونظره إلى الحادثة نفسها، وهي الفعل، وإنّما تجده متوجّهاً إلى المتكلّم نفسه، وهو الفاعل، مع أنّ مادّة الحوار هي الحادثة وليس المتحدّث، أو قل الفعل وليس الفاعل، ومن علامات المجادل: المقاطعة الكثيرة؛ والمقاطعة هي آفة الحوار التي لا يبقي عليه باقية.

٩. ولابدّ من معرفة سبب الحوار، وعدم الغياب عنه، فيما إذا كان السبب

---

(١) انظر: تفسير القمّي، مصدر سابق: ج٢ ص٤١٢؛ جامع البيان، مصدر سابق: ج٣٠ ص١٤٨؛ التبيان، مصدر سابق: ج١٠ ص٣١١؛ مجمع البيان، مصدر سابق: ج١٠ ص٣٠٦؛ مفردات ألفاظ القرآن، مصدر سابق: ص١٣٤؛ تفسير غريب القرآن، لفخر الدين الطريحي، تحقيق وتعليق: محمد كاظم الطريحي، نشر: انتشارات الزاهدي، قم المقدّسة: ص٢٣٧؛ زاد المسير، مصدر سابق: ج٨ ص٢١١؛ جامع أحكام القرآن، مصدر سابق: ج١٩ ص٢٧٣.

إيجابياً، والأعمال بالنيات، فإن كان سبب الحوار عندنا هو التعريض بالآخر والطعن به فإنّه لا يبقى معنى للحوار، لأنّ الازدراء بالآخر والعمل على تصغيره وتصيّد العثرات العفوية وغير ذلك من أخلاقيات الجبابرة وضعاف النفوس، تقوّض أركان الحوار، وتحوّله إلى جدال فارغ من المحتوى، أو تحوّل الحوار من أجل الحقيقة إلى جدال من أجل إثبات الذات.

١٠. الخروج الآمن من الحوار إذا ما احتدم الحوار وشعرنا بالتوتر وعدم وجود فرصة للخروج بالنتائج المرجوّة؛ فإنّ علينا أن نعمل على الخروج الآمن من الحوار الذي يحفظ لنا خطوط العلاقة مع الآخر لا أن نقطع كلّ الجسور بالشتائم والازدراء، ولذلك علينا بالخروج الآمن، من قبيل العمل على تهدئة المقابل وذكر بعض مناقبه ومحاسن كلامه، أو الخروج إلى موضوع آخر هو محلّ وفاق بين الأطراف للخلاص من حالة التوتّر وارتفاع الأصوات.

ولا ريب أنّ هنالك فقرات أخرى يمكن مراجعتها في مجموعة الدراسات الخاصّة بالحوار وأساليبه وطرقه ووسائله[١]، لاسيّما البحوث المعتمدة على

---

(١) يمكن تسجيل بعض النقاط المهمّة لإنجاح الحوارات الفكرية والدينية، منها:

أ. تحديد مساحة مشتركة في الحوار من أجل الوصول إلى لغة مشتركة يمكن من خلالها التفاهم حين تبادل وجهات النظر، والمبادرة إلى إقناع الطرف المقابل على ضوء مبناه.

ب. ضبط الغضب، والسيطرة على كلّ انفعال من شأنه أن يسلب قدرة الإنسان على التفكير بوضوح ويدفعه إلى الخروج عن حالة التوازن والاعتدال في الكلام والتصرّفات.

ج. إدراك طرفي الحوار بأنّ الحوار ليس ساحة حرب أو معركة من أجل تأكيد الذات والتغلب على الآخرين، بل هو ساحة تعاون مشترك من أجل اكتشاف الحقيقة، فلهذا لا يشترط في الحوار أن يكون فيه غالب ومغلوب في نهاية المطاف، بل المطلوب أن يبيّن كلّ من الطرفين وجهة نظره للآخر، ليوسّع بذلك آفاق رؤيته إلى الحقائق.

د. خلق أجواء ملؤها الثقة المتبادلة بين الطرفين، وإقامة علاقة طيّبة ومتينة مع المقابل بحيث

النصوص القرآنية والروائية الصحيحة والدراسات الحديثة التي تعنى بالأبعاد النفسية والاجتماعية والتربوية.

إجمال ثمرات الوسطية

من مجموع المصاديق المتصوّرة للوسطية وملازماتها يمكن استظهار عدّة ثمرات لا يمكن الاستغناء عنها، لأنّها تمثّل أعمدة أساسية في بناء وتقويم العلاقات الاجتماعية، فضلاً عن كونها تمثّل مقاصد شرعية وعقلائية، وهي: (الخيرية والأفضلية، العدل والاعتدال، اليسر ورفع الحرج، الحكمة والعقلانية، الاستقامة، البينية، التعايش السلمي، الارتقاء والتكامل، وغير ذلك)، وسوف نستعرض بعضاً منها، وهي:

أوّلاً: الخيرية والأفضلية، أي: أصل الخير وأفضل مراتبه، فقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ (البقرة: ١٤٣)، معناه: جعلناكم الأمّة الأكثر خيراً، والأفضل حالاً، بخاتمية الدين والكتاب والنبوّة، وبشريعتها المتكاملة، وبأخلاقياتها ومثاليتها. ولأجل هذه المناطات العظيمة ناسب

يكون الطرفان قادرين على فتح المغلق في أنفسهما وأن يتكلّما بحرّية كاملة بلا تحفّظ.

هـ. الابتعاد عن استخدام المغالطة والمراوغة وجميع الأساليب غير الموضوعية، من قبيل: عدم مراعاة وحدة الموضوع، التلاعب بالألفاظ، الخلط بين المفاهيم والالتجاء إلى التأويلات الفاسدة والاستشهاد بالاقتباسات المبتورة والمشوّهة عن الواقع. (انظر: العلاقة مع الآخر في ضوء الوسطية في الإسلام، وفقاً لروايات وسيرة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وأهل بيته عليهم السلام الأطهار، بحث مقدّم إلى مؤتمر وسطية الإسلام بين الفكر والممارسة الذي عقده منتدى الوسطية للفكر والثقافة في الأردن ـ عمان/ من ٢٦ إلى ٢٨ حزيران ٢٠٠٤م، تأليف: الشيخ فارس الحسّون، منشور ضمن سلسلة الكتب العقائدية، رقم: ١٧٤، إعداد: مركز الأبحاث العقائدية، قم: ص٦ـ٨).

توصيف هذه الأمّة بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وخيرية الأمّة الإسلامية إنّما تكمن في مبانيها القرآنية والنبوية والعقلية، في العقيدة والشريعة والأخلاق، بمعنى وسطيّتها في كلّ ذلك، فهي غير متطرّفة في إيمانها، وإنّما هي كما وصفها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ثانياً: العدل والاعتدال، أي: الأمّة المقيمة للعدل، فهي أمّة حيّة عاملة، كما أُشير لذلك: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، والأمّة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر هي أمّة حيّة، تقيم حدود الله، وتحفظ حقوق الإنسان، فتجري القوانين الإلهية على جميع المسلمين بدرجة واحدة، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، فالعدل حقّ مكفول لجميع الناس، وهذه هي الوسطية الخيرية والطريقة المثلى.

ثالثاً: اليسر والعمل بالسعة مع رفع الحرج، أي: السماحة والتسامح، وليس التضييق والتشدّد، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨)، وإنّما أوكلت لهم الشهادة لمناط وسطيّتها، وأمّا العمل بالسعة فهو وإن كان مدركاً عقلياً وسيرة عقلائية إلّا أنّ ذلك يجسّد عملياً في واقع هذه الأمّة، عملاً بقوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

رابعاً: الحكمة والعقلانية والاستقامة، وهنا تكمن جذور الوسطية والاعتدال، بعيداً عن الذوقية والتفرّد والانحراف، وقد قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥٣).

تبعيّة الوسطية لظرفي الزمان والمكان

من مجموع ما تقدّم تبيّن مفهوم الوسطية، كالعدل والإنصاف والبينية والخيرية والأفضلية والأرفعية والأمثلية، وما جاء في بيان معنى قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ**﴾ (القلم: ٢٨)، أي: قال أفضلهم وأعدلهم وخيرهم وأمثلهم وأعقلهم(١)، وأنّ الوسط من الناس وكلّ شيء: أعدله، وأفضله، ليس بالغالي ولا المقصّر(٢)، وقد كان الترجيح لمعنى الخيرية والأفضلية من معاني الوسطية، فهو المعنى الذي يُوجد توازناً عملياً بين الإفراط والتفريط، في العقيدة والشريعة والأخلاق، فيكون الوسطيّ في ذلك هو المتّصف بأفضل الصفات وأجلّها وأنبلها.

بعبارة أخرى: إنّ الوسطية من الناحية المفهومية لا تتغيّر أبداً، فالوسطية تعني الطريقة المثلى، والطريقة المثلى تعني عدم الدخول في دائرتي الإفراط والتفريط، فالخيرية والأفضلية تعطيان توازناً عملياً بين الإفراط والتفريط، في العقيدة والشريعة والأخلاق، فيكون الوسطي في ذلك ـ كما عرفت ـ هو

---

(١) انظر: تفسير الصنعاني، مصدر سابق: ج٣ ص٣١٠؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مصدر سابق: ج٢٩ ص٤٢ ح٢٦٨٦٢، ح٢٦٨٦٣؛ مجمع البيان، مصدر سابق: ج١٠ ص٩٣؛ الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق: ج٢ ص١٥٣؛ ج١٨ ص٢٤٤.

(٢) انظر: كتاب العين، مصدر سابق: ج٧ ص٢٧٩.

المتّصف بأفضل الصفات وأجلّها وأنبلها.

وأمّا من الناحية المصداقية فقد يقع نوع اختلاف بحسب طبيعة تغيّر الزمان والمكان، فقد يكون كما هو الحال في الصراع والحوار، فالأمّة الضعيفة التي تفتقد إلى القوّة والمنعة سيكون من السفه بمكان أن تتشبّث بلغة الصراع، وتحصر حركتها بذلك، وإن كانت على الحقّ، كما أنّ الأمّة القوية التي تمتلك ناصية الأمر والقوّة في التأثير سيكون من السفه بمكان أن تتشبّث بالحوار في استرداد الحقوق، وتحصر حركتها بذلك، إذ لابدّ لها من إظهار عزّتها ومنعتها وهيبتها شرط أن لا تكون معتدية.

وقد اتّضح أنّ الوسطيين من المسلمين ـ كممثّلين عن أمّة الإسلام ـ إنّما جُعلوا شهداء على الأمم في الدار الآخرة نتيجة اتّصافهم والتزامهم بالقيم المميّزة لهم، وهي قيم الوسطية في العقيدة والشريعة والأخلاق، وهي وسطية الصالحين من هذه الأمّة، ممّن بلغوا بأعمالهم الخيّرة الجنّة والرضوان، إذا لا معنى لشهادة الفاسق أو الضالّ أو القاتل أو الطاغي من هذه الأمّة على الأمم الأخرى، وبذلك تبيّن أنّ الوسطية هي: الطريقة الأمثل في العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك، فلا إفراط متطرّف، ولا تفريط مُضلّل، ولذلك قلنا في تعريفنا الاصطلاحي للاعتدال الذي هو معنى مرادف أو مقارب للوسطية، بأنّه منهج وسطيّ بين الإفراط والتفريط، سواء كان في النظر أو في السلوك، فيكون الاعتدال والوسطية معاً يمثّلان الطريقة المثلى فيما نتبنّاه وفيما نتّخذه من مواقف عملية.

إذن لابدّ أن يكون واضحاً لدينا أنّ هذه الوسطية الأمثلية لكي تبقى كذلك فلابدّ من عدم اندراجها ضمن دائرة الإفراط أو التفريط، وإلّا عادت الوسطية مغالية أو مقصّرة، وهذا الحفظ لابدّ أن يُراعى فيه تأثير ظرفي الزمان والمكان، فقد تكون الوسطية الأمثلية ـ من الناحية المصداقية ـ في زمان ومكان

ما تفرض الحوار كحلّ أوحد ولا بديل له، فلكي نحفظ وسطيّتنا لابدّ لنا من عدم الخروج عن هذا التأثير الميداني، وقد تكون الوسطية الأمثلية المصداقية في زمان ومكان آخرين تفرض المواجهة والصراع كحلّ أوحد أو كحلّ أمثل، فتكون الوسطية أشبه ما تكون بعملية استئصال الأعضاء المسرطنة التي لا علاج لها سوى الاستئصال، وعندئذٍ لابدّ من الخضوع لمنطق التأثير الميداني للزمان والمكان، وقد تكون الوسطية الأمثلية في زمان ومكان آخرين تفرض البينية المستلزمة للتغاضي عن بعض الحقوق، وعندئذٍ ينبغي الانصياع لهذا المنطق الوسطي، لأنّ الهدف هو تحقيق الوسطية الأمثلية في كلّ زمان ومكان، وهذه الأمثلية هي ليست منحصرة بالحوار في كلّ زمان ومكان، رغم أهمّية الحوار وتقدّمه على كلّ الحلول الأخرى، كما أنّها ليست منحصرة بالمواجهة والصراع في كلّ زمان ومكان، وليست منحصرة بالبينية في كلّ زمان ومكان.

ولعلّ من أبرز الشواهد التاريخية على تأثير الزمان والمكان على تطبيقات الوسطية الأمثلية، وتحوّلها من حال إلى حال آخر، هو ما جاء في السيرة النبوية، التي سجّل القرآن الكريم شطراً مهمّاً منها، ونحن نعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ القرآن الكريم والسنّة النبوية الصحيحة وسطيّتان في كلّ مواردهما، وحيث إنّنا نلاحظ تغييرات كبيرة في التعاطي، فذلك يدلّ على أنّ الوسطية الأمثلية، أو قل: الأمثلية القرآنية، هي الأخرى متأثّرة بالزمان والمكان، فعندما كان الرسول صلّى الله عليه وآله في مكّة ـ وهو وسطيّ بامتياز ـ كانت وسطيّته تفرض عليه مجاراة خصمه المتغطرس، وعدم مواجهته بالقوّة، وإلّا سيذهب الإسلام أدراج الرياح، وقد كان المشركون يستدرجون المسلمين للمواجهة، ولكنّ القيادة الوسطية الحكيمة لرسول الله صلى الله عليه وآله منعت من وقوع المواجهات، فكان المسلمون منتصرين رغم قلّتهم واضطهادهم؛ لأنّهم يزدادون عدداً عاماً بعد عام، وأمّا عدوّهم فرغم غطرسته كان في نقص

وحيرة من أمره.

وهذا ما يُمكن أن يُطلق عليه اصطلاح النسخ المؤقّت أو النسخ المشروط، وهو: «ما إذا كان الحكم المنسوخ رهن ظروف وأحوال تغيّرت إلى حالة أُخرى استدعت تشريع حكم جديد، لكنّها مع ذلك صالحة للعود على حالتها الأُولى، إمّا في رقعة أُخرى من الأرض أو في فترة آتية من الزمان، فإنّ من الحكمة أن يعود الحكم المنسوخ إلى ساحة الوجود، فكلّ من الناسخ والمنسوخ، هو رهن حالة تخصّه، وقيد مصلحة تلتئم معه، فما دامت فالحكم يدوم معها، ولو زالت فالحكم يزول معها، وإذا ما رجعت فإنّ الحكم يرجع معها... وهكذا»[1]، وهذا التحوّل والتبدّل التابع لظرفي الزمان والمكان إنّما هو راجع بالأساس إلى حفظ ذلك التوازن المطلوب، والذي أسميناه بالوسطية الأمثلية أو بالوسطية القرآنية.

فالإسلام في بداياته كان يعتمد في دعمه المادّي على النفقات العامّة، والتي جاءت في التعبير القرآني بعنوان الإنفاق في سبيل الله، كقوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ (القصص ٥٤؛ السجدة: ١٦؛ الشورى: ٣٨)، وكقوله تعالى: ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ (الذاريات: ١٩)، وهي كلّها سور مكّية، ثمّ لّما فرضت الحقوق الشرعية الواجبة، كالزكاة والخمس وتمكّنت الدولة الإسلامية الفتيّة في عهدها المدني، وانتفت الحاجة لذلك الإنفاق العامّ، فقد زال التكليف عن المسلمين بالإنفاق، وانحصر بالحقوق الواجبة من الزكاة والخمس، فإذا ما جاء وقت يستدعي تقديم الدعم المالي للدولة، حيث عدم اكتفائها بالحقوق الشرعية فإنّ الحكم السابق بالإنفاق

---

(١) التمهيد في علوم القرآن، للشيخ محمد هادي معرفة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين في مدينة قم المقدّسة، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ: ج٢ ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.

العامّ سوف يعود إلى الصدارة.

وهذا هو النسخ المشروط، أو قل: هذا هو التطبيق العملي لبقاء الأوسطية الأمثلية، فتفرض الدولة الضرائب المطلوبة للنهوض بأعبائها، ما دامت الدولة عادلة وغير مستغلّة لشعبها، وإلّا سوف تكون إعانتها إعانة على إيقاع الظلم على شعبها. وعليه فالمدار هو مدار الوسطية الأمثلية، ولا يوجد شيء آخر مستمرّ، فالأحكام القابلة للنسخ والتغيير مشروطة بحفظ ملاك هذه الأوسطية، وأينما تحقّقت تنجّزت معها الأحكام الموافقة لها، وهذا ما يستدعي من الفقهاء المتصدّين للفتوى أن يلاحظوا في الكثير من الأحكام المستنبطة عنصري الزمان والمكان، أو قل ملاحظة الأوسطية الأمثلية، أو قل ملاحظة الأوسطية القرآنية؛ فإنّها ملاك أساسي في الأحكام.

ومثال آخر غير الإنفاق في سبيل الله، يدلّ على حفظ الأوسطية في تاريخ الإسلام والنبوّة الخاتمة، وهو حكم الصفح والمداراة مع الكفّار في العهد المكّي، بل والصفح والمداراة مع اليهود في المدينة، في السنوات الأولى من العهد المدني، حيث كانت القوّة والمنعة للكفار واليهود، وكان المسلمون عاجزين عن مواجهتهم، وضعفاء في كلّ شيء إلّا في إيمانهم، فاقتضت الوسطية الأمثلية أن يأمرهم القرآن الكريم بالصفح والعفو عمّن أساء لهم، بل ومداراتهم في السير والسلوك معهم، قال تعالى: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة: ١٠٩)، ولمّا تغيّرت الموازين إلى صالح المسلمين، وصاروا يمتلكون زمام الأمور فقد اقتضت الوسطية الأمثلية أن يظهروا بمظهر العزّة والقوّة والمنعة؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (التوبة: ٧٣؛ التحريم: ٩)، فإذا ما عاد المسلمون ضعفاء وعاجزين عن المواجهة

فليس مـن الأوسـطية الأمثليـة التـشبّث بمنطـق الجهـاد في سـبيل الله ومقارعـة أصحاب القوّة والمنعة، فذلك سيكون من باب الإلقاء في التهلكـة، إلّا إذا خيـف على الدين الضياع، فعندئذٍ يجب عـلى المسلمين أن يبـذلوا أمـوالهم وأنفـسهم في حفظ الدين وإعلاء كلمة التوحيد والحقّ، كما فعـل ذلـك الإمـام الحـسين عليـه السلام في ثورته العظيمة في كربلاء، حيث قدّم كلّ مـا عنـده في مواجهـة الطغـاة ونصرة الإسلام، وبهذا يمكن الموازنة في التعاطي مع الأحداث.

علاقة الوسطية بالإيمان

مرّت بنا تفصيلات مهمّة حول الوسطية ومواردهـا، وأمّـا الإيـمان فهـو الإذعان إلى الحقّ والتصديق به[1]، وقد وقع خلاف في كونه من أفعال القلوب حصراً، أو من أفعال الجوارح حصراً، أو منهما معاً[2]، ومـا نـراه هـو أنّـه مـن أفعال القلوب المؤثّرة في الجوارح والسلوك، فما نلاحظه من سلوكيات إيمانيـة إنّما هـي انعكاسـات لـذلك الفعـل القلبـي، وحيـث إنّ الإيـمان هـو إذعـان وتصديق بـالحقّ فإنّـه سـيكون لـه صـلة وثيقـة بالوسـطية؛ لأنّ الوسـطية في صورها ومواردها إنّما تدور حول الحقّ والعمل به، ولذلك نجـد أنّ الإفـراط والتفريط الخارجين عن الوسطية والاعتدال إنّما هما تعبيران آخران عن مخالفة الحقّ، وبالتالي سوف يكون الحقّ هو الملتقى الواقعي بين الوسطية والإيمان.

---

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني أبي القاسم حسين بـن محمـد بـن المُفضَّل (ت: ٥٦٥هـ)، مراجعة وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكلّيـات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأُولى، ١٣٩٣هـ: ص١٠٠.

(٢) انظر: حقائق الإيمان مع رسالتي الاقتصاد والعدالة، للشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد العـاملي (ت: ٩٦٥هــ)، إشراف: الـسيد محمـود المرعـشي، تحقيـق: الـسيد مهـدي الرجائي، الناشر: مكتبة السيد المرعشي النجفي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ: ص٥٣.

ولو راجعنا المصاديق التاريخية الكبرى للتطرّف في الإيمان، ومصاديق التطرّف في محاربته، لرأيناها جميعاً مفارقة للوسطية، وبالتالي فإنّ فقدان الوسطية سيكون طريقاً لفقدان الإيمان الحقيقي وتحويله إلى إيمان صوريّ أو إيمان وهميّ يرى أصحابه أنفسهم مؤمنين وهم ليسوا كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨)، فالإيمان أعظم من أن يكون كلمة تُقال وتجري على الألسن، وإنّما هو صدق ينطوي عليه القلب.

من هنا نكتشف طريقاً عظيماً للدخول إلى واحة الإيمان، أو لتعميق الإيمان، وهو طريق الوسطية، فالوسطية طريق أمثل لتحقيق الإيمان الحقيقي، ولذلك نجد أنّ هذه الأمّة المسلمة المؤمنة إنّما بلغت مقام الشهادة على الأمم الأخرى في الدار الآخرة بسبب صيرورتها أُمّة وسطية، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وبالتالي فإنّ المقياس والمعيار الجديد، الذي يفرض نفسه قرآنياً وعقلائياً في تشخيص واقعية الإيمان، هو الوسطية، فالكينونة الوسطية هي التي تحقّق واقعية الكينونة الإيمانية، بمعنى: أنّ كلّ مرتبة إيمانية مدّعاة وهي خلو من الوسطية، فإنّها سوف تكشف عن زيفها وانتفاء واقعيّتها، وهذا ما يتطلّب من الجميع إعادة النظر في مقاصدهم ومواقفهم، في كلماتهم وتشخيصاتهم، لأنّهم أمام مفترق طرق خطير، وأمام معيار دقيق لا يقبل القسمة على اثنين، وهو معيار الوسطية القرآنية، هذه الوسطية التي تفرض وجودها على الكلمة والموقف والمعتقد، وما دامت كذلك فإنّه سوف تفرض نفسها كمعيار معنوي في تحديد واقعية التقوى فضلاً عن كونها معياراً علمياً ومعنوياً في تحديد واقعية الإيمان، وما لم يكن الإيمان وسطياً فلا مجال للارتقاء إلى عالم التقوى، فالتقوى ـ كما نفهم ـ مقولة إيمانية، بمعنى: أنّها تمثّل أشرف وأرقى مراتب الإيمان، فيكون

طلب الارتقاء في الإيمان هو الوصول إلى مرتبة التقوى، ومرتبة التقوى من الإيمان، والوسطية هي مرتبة الارتقاء إلى التعليم الإلهي، كما قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وبهذا نكتشف سرّاً خطيراً لانعدام التقوى عند طيف من الناس، فذلك لانعدام الوسطية عندهم في الكلمة والقول والموقف، بل والمعتقد أيضاً، لأنّنا عرفنا أنّ التقوى مرتبة إيمانية، بل هي أشرف مراتب الإيمان، والإيمان الواعي وسطيّ، فتكون مرتبته الأعلى وسطية أيضاً، وبالتالي فإنّ انعدام الوسطية انعدام للإيمان، وانعدام الإيمان هو تعبير آخر عن انعدام التقوى، وانعدام التقوى هو الآخر تعبير آخر عن انعدام التعليم الإلهي، وكأنّ العلّية تدلّ على الوحدة والاندكاك بين التقوى والتعليم الإلهي، بمعنى أنّ حصول التقوى وصول للتعليم الإلهي، كما أنّ الوصول إلى التعليم الإلهي يكشف إنّاً عن حصول التقوى.

تذييل أوّل

لا شكَّ أنّ الوسطية هي طريقة تفكير قبل أن تكون سلوكاً، بمعنى: أنّ السلوك الوسطي لا يمكن أن يجد له حيّزاً في الخارج ما لم يكن هنالك تغلغل للوسطية في طريقة التفكير، بل ما لم تبلغ الوسطية حدّ الملكة في طريقة تفكير الإنسان فإنّه سوف يبقى مذبذباً ومتأرجحاً بين الإفراط والتفريط وإن صدرت منه بعض السلوكيات الوسطية؛ لأنّه لا يرتكز على أرضية ثابتة، وهي أرضية الوسطية، فنجده وسطياً بمقدار التأثير عليه، كما نجده متطرّفاً أو منتكساً بمقدار التأثير عليه، فهو لا يمتلك مرجعية وسطية في فكره وقلبه.

وهذا ما يدعونا إلى أمرين، هما:

الأوّل: وصف السلوكيات بما يعرض على الإنسان من طريقة تفكير.

الثاني: وصف المعالجة الحقيقية للخروج من دائرتي الإفراط والتفريط بأنّه لابدّ أن تنطلق من نفس طريق التفكير لا من السلوكيات الخارجية؛ فإنّ جميع المعالجات التي تطال السلوكيات دون طريقة التفكير هي أشبه ما تكون بالمسكّنات الموضعية التي سرعان ما يزول تأثيرها ويعود الألم والمعاناة، بخلاف المعالجات الصميمية التي تمسّ طريقة التفكير فإنّها سوف تجتثّ التطرّف والتخاذل من الجذور، لأنّ التطرّف ما هو إلّا انعكاس عمليّ لطريقة التفكير الإقصائي، كما أنّ التخاذل ما هو إلّا نتاج لطريقة التفكير بالتنصّل عن المسؤولية وعدم المبالاة. وفي ضوء ذلك ينبغي أن تبتني المناهج التعليمية والتربوية، حيث لابدّ لها أن تركّز على معالجات طريق التفكير؛ ليكون الطريق واضحاً وآمناً لتغيير السلوكيات نحو الأفضل.

تذييلٌ ثانٍ

لا ريب أنّ المرجعية الأُولى في التأسيس هو القرآن الكريم، كما أنّ المرجعية الأُولى في التصحيح هو القرآن نفسه، ومرجعية القرآن في التأسيس والتصحيح تجعل منه المناط الحقيقي في تشخيص الإسلام الأصيل، والذي يُمكن تسميته بالإسلام القرآني، والذي نُسمّيه أيضاً بإسلام محورية القرآن.

فإذا أخذنا هذه الضابطة (المرجعية القرآنية بمعيّة العقل البرهاني) بعيداً عن التقليد الأعمى في ذلك، فإنّها تجعلنا على تماسّ واقعيّ مع قيم الرسالة المحمدية، كما تمنحنا ضابطاً متيناً ورصيناً للخروج من إسلام محورية الحديث الذي طالما عمل على تقسيم الأمّة وتشطيرها، وحوّل الأمّة من أمّة موحَّدة متفكِّرة متدبرِّة: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد: ٢٤)، إلى أمّة مقلِّدة متّبِعة، ولا يُخرجها من ظلمة التقليد الأعمى إلّا الرجوع إلى القرآن، فهو الكتاب الذي يشتمل على منظومة تشتمل على جميع المعارف

الدينية، فكراً وعقيدةً وفقهاً وسيرةً وأخلاقاً وسلوكاً؛ وقد أشار القرآن الكريم لذلك بشكل واضح وصريح في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، فهو يشتمل على تأسيسات كلّ المعارف الدينية كقدر مُتيقَّن، لتأتي السنّة الشريفة فتقيم بنيانها على تلك التأسيسات القرآنية، وهذا هو الإسلام القرآني، أو إسلام محورية القرآن، والذي به نحفظ وسطية الإسلام ووسطية القرآن، فإنّ السبب الواقعي في الأعمّ الأغلب وراء ظهور حالات التطرّف على مرّ القرون السالفة والعقود المعاصرة إنّما هو الأخبار، فإنّها تشكّل خلفية شرعية عند المسلمين كافّة ، وهي باب مفتوح ـ إلى زمن قريب ـ للدسّ والكذب والتزوير، فلدينا في تراثنا الروائي مئات ـ إن لم تكن ألوفاً ـ من الروايات التي لا يتجاوز عمرها أربعة قرون، وهي ـ بلا ريب ـ لا تنتمي إلى عصر النصّ، حيث لا تجد لها أصلاً ولا جذراً في الروايات المدوّنة في الكتب غير المعتبرة فضلاً عن المعتبرة عند الفريقين معاً.

وهذه الروايات يغلب عليها الحسّ الطائفي، وكأنّها قد عُدّت لذلك، فجاءت لتصبّ الزيت في نار فرقة الأمّة وتمزيقها، فلم تزدنا إلّا فرقة وعزلة، ولذلك فإنّ الوسطية القرآنية تدعونا ـ في القول والعمل ـ إلى تحجيم دور تلك الأخبار الموتورة، وإلى تخليص عقولنا وقلوبنا من صناعاتها وزيفها، وبقدر مساحات الخلاص من تأثيرها العميق نكون قد اقتربنا من الإسلام القرآني ومن الوسطية القرآنية، والعكس بالعكس.

الوسطية في التشيّع

- مدخل
- هويّة التشيّع
- وسطية التشيّع في الفكر والعقيدة
- وسطية التشيّع في الفقه والأحكام
- وسطية التشيّع في الأخلاق والسلوك
- وسطية التشيّع في الحكم والإدارة
- وسطية التشيّع في الإنسان والحياة

مدخل

البحث في وسطية التشيّع هو من البحوث المتفرّعة على بحث الوسطية في القرآن، بمعنى أنّه يمثّل التطبيق الأوّل في مجموعة ما نبحثه في المقام، فكلّ ما سنبحثه بعد بحث (الوسطية في القرآن) إنّما يمثّل المساحات التطبيقية، سواء على المستوى النظري الفكري أو المستوى العملي التطبيقي، وبذلك تكون الوسطية في القرآن هي النافذة الواقعية التي نطلّ من خلالها على وسطية التشيّع، وكذلك على مراتبية الإيمان وعلى نظم علاقات الإنسان.

هويّة التشيّع

التشيّع في الاصطلاح يُطلق على أتباع مدرسة أهل البيت، فهم شيعة لأمير المؤمنين علي وأهل بيته عليهم السلام، حيث يعتقدون زعامتهم الدينية والسياسية على الأمّة، وأهل البيت عند الشيعة يُطلق كاصطلاح على المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، وهم:

رسول الله محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله.

أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليهما السلام.

الإمام الحسن المجتبى بن علي بن أبي طالب عليهما السلام.

الإمام الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب عليهما السلام.

الإمام علي السجاد بن الحسين بن علي عليهم السلام.

الإمام محمد الباقر بن علي السجاد عليهما السلام.

الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر عليهما السلام.

الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليهما السلام.

الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم عليهما السلام.

الإمام محمد الجواد بن علي الرضا عليهما السلام.

الإمام علي الهادي بن محمد الجواد عليهما السلام.

الإمام الحسن العسكري بن علي الهادي عليهما السلام.

الإمام الحجّة المهدي المنتظر بن الحسن العسكري عليهما السلام.

كما يُطلق اصطلاح (العترة الطاهرة) على المعصومين الثلاثة عشر بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، ويُطلق اصطلاح (الأئمّة) على الأئمّة الاثني عشر الذين وصَّى فيهم الرسول صلّى الله عليه وآله وسمّاهم بالأئمّة الاثني عشر من قريش، كما يُطلق عنوان التشيّع على جميع فرق مدرسة أهل البيت، وأشهرها: الإمامية الاثنا عشرية، والزيدية، والإسماعيلية[١]، ولكن في الغالب يُطلق عنوان الشيعة أو مدرسة أهل البيت على خصوص الإمامية الاثني عشرية، ولذلك فإنّنا لا نقصد غير هذا المعنى والمصداق من مدرسة أهل البيت[٢]، وهم المعنيّون لدينا بعنوان التشيّع في المقام، والذين نبحث في

---

(١) قال الشهيدان الأوّل والثاني: «والشيعة: مَن شايع علياً عليه السلام، أي: اتّبعه، وقدّمه على غيره في الإمامة، وإن لم يوافق على إمامة باقي الأئمّة بعده، فيدخل فيهم الإمامية، والجارودية من الزيدية، والإسماعيلية غير الملاحدة منهم، والواقفية، والفطحية، وغيرهم». الروضة البهية (للشهيد الثاني) في شرح اللمعة الدمشقية (للشهيد الأوّل) ، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر، منشورات جامعة النجف الدينية، النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ: ج٣ ص١٨٢.

(٢) ولعلّ هذا ما فهمه محمد فريد وجدي في تعريفه للشيعة، حيث يقول: «الشيعة هم الذين شايعوا علياً في إمامته، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج عن أولاده، و ... يقولون بعصمة الأئمّة من الكبائر والصغائر والقول بالتولِّي والتبرِّي قولاً وفعلاً إلّا في حال التقيّة إذا خافوا بطش ظالم». (دائرة معارف القرن العشرين، طبع مصر، ١٩٢٤م: ج٥ ص٤٢٤).

وسطيّتهم القرآنية، ورؤيتنا هذه قائمة على أصل يقوم عليه مشروعنا الإصلاحي، ولا نفارقه، وهو إسلام محورية القرآن.

جدير بالذكر: أنّ اصطلاح الشيعة قرآنيّ، وقد ورد في خبر رواه القمّي ما يُؤكّد ذلك؛ عن أبي بصير عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه «قال: **ليهنئكم الاسم**، قلت: وما هو جعلت فداك؟ قال: **الشيعة**، قيل: إنّ الناس يعيروننا بذلك، قال: **أما تسمع قول الله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾** وقوله: **﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ[1] عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾، فليهنئكم الاسم**»[2]. وفي الاصطلاح تلميح بالمدح والثناء، حيث جمع فيه المتابعة والنصرة، كما هو واضح.

وسطية التشيّع في الفكر والعقيدة

بالرغم من اعتقاد مدرسة أهل البيت بإمامة الاثني عشر من العترة الطاهرة، وأنّ أولهم وأفضلهم الإمام علي عليه السلام، وآخرهم الإمام الحجّة بن الحسن عليه السلام، وأنّهم مفترضو الطاعة، وأنّهم عليهم السلام موصوفون بالعصمة، وغير ذلك من الخصائص والصفات اللازمة لإمامتهم عليهم السلام، إلّا أنّها تتعاطى مع سائر المسلمين الذين لا يعتقدون بذلك بسلمية عالية، بمعنى أنّهم لا يُكفّرون مسلماً، ولا يخرجونه عن ربقة الإيمان العامّ، فكلّ المسلمين عندهم مؤمنون بالمعنى العامّ للإيمان، وإن كنّا نراهم مؤمنين بالمعنى الخاصّ لا بالمعنى الأخصّ، فإنّ سائر أصحاب الديانات السماوية مؤمنون بالمعنى العامّ، وأمّا المسلمون فينقسمون إلى مؤمنين بالمعنى الخاصّ، وهم جميع الفرق الإسلامية ما خلا أتباع مدرسة أهل البيت فهم

---

(١) أي: من أتباعه وأنصاره.

(٢) تفسير القمّي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٢٣.

المؤمنون بالمعنى الأخصّ؛ نظراً لاعتقادهم بإمامة أهل البيت عليهم السلام، وليسوا هم المتفرّدين بالإيمان، كما سيأتي بيانه في البحث اللاحق.

وبالرغم من أنّنا عرّفنا بهويّة التشيّع بشكل موجز، إلّا أنّنا نحتاج إلى بيان الضابط الذي في ضوئه يكون الشيعي شيعياً إمامياً اثنا عشرياً، وهذا الضابط يتشكّل من عدّة أمور، هي:

أوّلاً: الإقرار بإمامة الأئمّة الاثني عشر، بلا زيادة ولا نقيصة، على تفصيل تعرّضنا له في دراسة سابقة[1]، وفقاً لاصطلاح الإمامية في مدرسة أهل البيت .

ثانياً: الإقرار بعصمتهم عليهم السلام، فهو شرط أساسيّ للملتفت، «فمن كان ملتفتاً لعصمتهم وأنكر ذلك لم يكن شيعياً اثنا عشرياً، وأمّا من لم يكن ملتفتاً لأصل العصمة فلا يشترط فيه ذلك ليكون شيعياً، ولذلك فمن عاش ومات وهو لا يعرف عصمتهم عليهم السلام فهو شيعي اثنا عشري ما دام معتقداً بأنّهم الأئمّة المفترض طاعتهم والذين لا تجوز مخالفتهم عليهم السلام، فيكون عنوان مفترض الطاعة وعدم جواز المخالفة في كلّ صغيرة وكبيرة، وعلى حدٍّ لزوم الطاعة للقرآن ولرسول الله صلّى الله عليه وآله، اعتقاداً كافياً في تحقيق الضابط ، وهذا لا يعني إنكار العصمة، فقد عرفت حكم المنكر لذلك»[2].

ثالثاً: الإقرار بكونهم مفترضي الطاعة، وهو أمر لابدّ منه، فمن لم يعتقد

---

(١) انظر: فقه العقيدة (بحوث في أصول الإيمان وفروعه)، من أبحاث سماحة المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والعقيدة، العراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ: ص٣٢٠ فما بعد.

(٢) فقه العقيدة، مصدر سابق: ص٣٢٣ فما بعد.

بذلك فهو خارج ـ لا محالة ـ عن مدرسة أهل البيت، «بل من اعتقد أنَّ هذا الأمر ثابت في غيرهم كما هو ثابت لهم، يكون خارجاً أيضاً عن مدرسة أهل البيت، فإنَّ افتراض الطاعة في الرؤية الشيعية الاثنا عشرية مصدرها الشرعي هو الله تعالى لا غير، فهو سبحانه من افترض طاعتهم، ولم يفترض ذلك لأحدٍ سواهم، فإثبات الطاعة لهم ونفيها عنهم من أهمّ ركائز مدرسة أهل البيت»[١].

رابعاً: الالتزام بالتولِّي لهم والتبرِّي من أعدائهم، وهما عقيدة واحدة ذات بعدين، فلا يصدق التولِّي من دون التبرِّي، والعكس صحيح أيضاً، ولكنّنا نلفت النظر إلى حقيقة مهمّة تتعلَّق بشرطية إظهار هذه العقيدة الثنائية أو عدم شرطية ذلك، فالتزمنا بأنَّ التولِّي واجب الاعتقاد به وواجب إظهاره أيضاً، إلّا في بعض الحالات المتعلّقة بالتقيّة، حيث يتسنّى له عدم الإظهار؛ لقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾ (النحل: ١٠٦)، وأمّا بالنسبة للتبرِّي فواجب الاعتقاد حتماً؛ لتوقّف أصل التولِّي أو تماميته عليه، وأمّا مسألة إظهاره فلا نراه شرطاً حتى في صورة عدم وجود التقيّة، فضلاً عن وجودها، و«يتأكَّد هذا الحكم ـ عدم الإظهار ـ بل قد يتحوَّل إلى الحرمة في صورة استلزامه إيقاع الفرقة والفتنة بين صفوف المسلمين، ولهذا المنع جذر قرآنيّ عامّ، وهو قوله تعالى: ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (الأنعام: ١٠٨)، فكلّ أصحاب دين ومذهب وفرقة يُقدِّسون رموزهم، فلا معنى للتجاوز عليهم»[٢].

---

(١) فقه العقيدة، مصدر سابق: ص٣٢٦ فما بعد.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ص٣٢٧ فما بعد.

جـدير بالـذكر: أنّ التجـاوز عـلى رمـوز الآخـرين مـن المـسلمين وغـير المسلمين ممنوع شرعاً وعرفاً، وكلّ من تطاول على الآخرين بتحقـير رمـوزهم أو النيل منهم فهو ولا ريب متطرّف، ولا يُعتدّ بقوله، كائناً من كان.

كما أنّ الوسطية في التشيّع على مستوى الفكر تتّصف بالانفتاح الكبير على دوائر الرصد والنقد، فالمقدّسات التي لا تقبل النقد معلومة ومحصورة عنـدنا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وآله وبأهل البيت عليهم السلام، ومـا دون ذلك فكلٌّ قابل للرصد والنقد، والتحليل والتفنيد، فليس المراجـع مقدّسـين، فضلاً عن العلماء والفضلاء والخطبـاء، فكـلّ هـؤلاء تقـع نتاجـاتهم القوليـة والكتبية تحت الرصد والنقد، والقبول والرفض، فإنّ فـضيلة الاجتهـاد التـي تتميّز بها مدرسة أهل البيت تجعلهـا في منـأى عـن التقـديس، ومـا يقـع مـن تقديس مقتضٍ إلى عدم الرصد والنقد فإنّه إنّما يقـع مـن جُهّـال الأمّـة لا مـن علمائها ومحقّقيها، بل إنّ علماء مدرسة أهل البيت يرون أنّ اصطلاح القداسـة والتقديس للأفراد من غير المعصومين إنّما هو من المخترعات غير الشرعية، أو من البدع الوافدة علينا، وتحديداً من بعض فرق أهل الكتاب؛ قال تعالى فيهم: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ (التوبـة: ٣١)، أي: اتخـذوا علماءهم وعبّادهم من دون الله في الأمـر والنهـي، ومـا نلاحظـه عـلى بعـض الفرق الضالّة، كالبابيّة والبهائيّة، إنّما دخل عليهم الضلال من بوّابة التقـديس الأعمى، فجعلوا رجالاً منهم معصومين، بل فوق مستوى العصمة، وكلّ فئة تسلك هذا المنحى الخطير فإنّما هي ماضية في تأسيس فرقة جديدة خارجة عن الأطر العامّة للإسلام ومدرسة أهل البيت، وهذا ما يـدعونا إلى تحـذير الأمّـة من الانزياح وراء موجات التقديس الباطلة، التي ما أنـزل الله تعـالى بهـا مـن سـلطان، والتـي تجعـل الأمّـة مقلـدّة تقليـداً أعمـى في العقيـدة والـشريعة والأخلاق.

ومن هنا يتّضح أنّ التشيّع الوسطي على مستوى الفكر والعقيدة يُلزم أتباعه بعدم ركوب موجات التقديس أو الانغماس في ظلماتها، فإنّما انطفاء الفكر وتخدير العقل يكون بهالات التقديس الباطلة، وليس بعيداً عنّا ما نراه من تقديس غير منطقيّ من بعض الأمم للحيوانات والجمادات، مقدّمين أنفسهم قرابين رخيصة دفاعاً عن تلك المقدّسات الباطلة، وإذا صحّ ما قيل من أنّ الله تعالى إنّما عُرف بالعقل فإنّ التقديس لابدّ أن يكون كذلك، وأيّ تقديس يكون لإنسان قابل للصواب والخطأ، والصدق والكذب، والفضيلة والرذيلة، فضلاً عن الكائنات الأخرى من هذا الوجود المحسوس.

ومن المنع من التقديس للأشخاص يسري عدم التقديس لنظرياتهم وأفكارهم ونتاجاتهم، في أيّ مجال كانت، ولا يعني بعدم تقديسها عدم اعتبارها أو اعتمادها، وإنّما نعني كونها قابلة للرصد والنقد، والقبول والتفنيد، كما أنّنا لا نعني بعدم التقديس سراية ذلك إلى المواقع الدينية العليا، فمقام المرجعية العليا للدين والمذهب مقام مقدّس، بمعنى عدم نقده بإحداث بديل عنه، لأنّه مقام أسّسه للأئمّة الطاهرون، وأمرونا بالرجوع للعلماء من الأمّة في أمور ديننا ودنيانا، ولكنّه تقديس محصور بالمقام لا بأشخاصه، فالمقام مقدّس دون شخصه الخارجي، أو كما قيل: الشرف بالمكان لا بالمكين، فالمكين شخص قابل للرصد والنقد ما لم يكن معصوماً، وليس في الأمّة معصوم قطّ غير من تقدّم ذكرهم، وما عداهم فإنّهم عرضة للرصد والنقد بلغوا ما بلغوا من العلم والصلاح والفضيلة.

ومن هنا يتّضح أيضاً: أنّ هنالك فاصلة عظيمة بين المقام المقدّس وبين المقيمين فيه، فلا يقولنّ أحد أنّ توجيه النقد للمرجعيات الدينية هو نقد لمقام المرجعية نفسه، فذلك ضرب من الخلط وسوء الفهم، إن لم يكن ضرباً من الجهل والغفلة.

وسطية التشيّع في الفقه والأحكام

وفي طول الوسطية في الفكر والعقيدة تنطلق الوسطية في الفقه والأحكام، فليس للأحكام أن تشقّ لها طريقاً مخالفاً لتلك التأسيسات العقدية، فما الفقه والأحكام إلّا انعكاسات عملية لتلك التأسيسات النظرية، وعليه فكلّ حكم لا ينسجم مع وسطية الفكر والعقيدة فإنّما مردود على صاحبه، سواء كان حكماً إفراطيّاً أو تفريطيّاً، بل هو كاشف عن خلوّ المُفتي بذلك عن الرؤية العقدية الصحيحة، وبهذا يمكننا الخروج بضابط صحيح وصريح، وهو مقايسة الأحكام الشرعية في ضوء التأسيسات العقدية، فالذين يصدرون أحكاماً بالتكفير والتضليل والتفسيق بما هو غير منسجم مع الوسطية القرآنية في الفكر والعقيدة ـ الآنفة الذكر ـ من مدرسة أهل البيت فإنّما يحكمون على أنفسهم بالتنصّل عن تأسيسات هذه المدرسة المباركة، مدرسة الوسطية والعقل والتعقّل والاتزان المعرفي، والدخول في فصائل المتطرّفين عند الإفراط، أو في فصائل المتخاذلين عند التفريط، وما نلاحظه من الانقباض الشديد أو الانبساط الشديد ما هو إلّا تجلّيات واضحة للخروج عن الوسطية في الفقه والأحكام، والملاحظ أنّ الغالب في صدور ذلك إنّما يكون ممّن لا يمتلك رؤية عقدية واضحة، أو يمتلك رؤية واضحة ولكنّها متشدّدة أو متهاونة، فينعكس ذلك بشكل عمليّ على استنباطاته الفقهية، وقد يكون ذلك ناشئاً من عدم إحكام الصنعة، وهو كثير الحدوث.

إنّ وسطية التشيّع في الفقه والأحكام نظراً إلى كونها ترتكز على أصل عظيم القدر، وهو الاجتهاد في الأحكام، فضلاً عن الاجتهاد في الفكر والعقيدة، فإنّها تقتضي منّا مراعاة الزمان والمكان في استنباط الأحكام، فليس من الصحيح تسرية الأحكام بكلّ حيثيّاتها إلى كلّ زمان ومكان، وهذا ما

يدعونا إلى التفكير الجدّي في الخروج برؤية فقهية عملانية، تنطلق من الروح الخالدة التي يبثّها فينا الإسلام السمح والقرآن المنفتح على كلّ الأمكنة والأزمنة، ولذلك فليس من المنطقي ولا من الوسطية القرآنية أن نحاكم المسلم الأوربي بفقه يعسر حتى على المسلم الذي يعيش في بلد عربي أو إسلامي، وليس من المنطقي أن نطالب المسلم الأوربي بأن يترك عمله ليلتحق بالمجتمع الإسلامي بغية تمكينه من تطبيق أحكامه، وليس من المنطقي أن نجعله عاطلاً عن عمله لمجرّد أنّه لا يستطيع أن يطبّق أحكامه في بلده الأوروبي أو في أماكن عمله، وليس من المنطقي أن نجعله محتاطاً في كلّ شيء، وليس من المنطقي أن نثقل كاهله بالأحكام الثانوية، وكأنّ الإسلام ما جاء إلّا لجزيرة العرب!

وهذا ما يدعونا إلى التفكير الجادّ بالخروج برؤية فقهية جديدة يمكن تسميتها بفقه المجتمعات، فكلّ مجتمع له خصوصياته، وتقاليده وعاداته، وقوانينه وضوابطه، والقرآن يدعونا إلى احترام القانون وعدم مخالفته، فيكون من اللازم علينا إيجاد صورة حلّ لأبنائنا الذين يعيشون في تلك البلدان، بل حتى في البلدان القريبة منّا، كبعض دول شرق آسيا[(١)]، فلابدّ من مراعاة ظروفهم الموضوعية، وسواء فعلنا ذلك أم لم نفعل فإنّنا سنجدهم إمّا فارّين من الإسلام الذين نعيشه في أوطاننا أو مُغيّرين لملامحه بحسب معطياتهم الزمكانية، ولكي لا نشعرهم بعدم الانتماء أو ضعفه، فلابدّ من إيجاد ملامح

---

(١) كالصين واليابان والكوريتين وتايوان، وأمّا دول جنوب شرق آسيا فمن قبيل: إندونسيا وتايلند وماليزيا وميانمار والفلبين وسنغافورة وبروناي، وأمّا دول جنوب آسيا فمن قبيل: الهند والنيبال وسريلانكا وبنغلاديش، فضلاً عن إيران وباكستان، وأما دول غرب آسيا فمن قبيل تركيا والعراق وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية.

جديدة لفقه لا يخرج عن روح الإسلام والقرآن، فقه يكون به المسلم مسلماً، لا يُشعره بالخجل، ولا يدخله في حرج، وما لم نفعل ذلك فإنّنا نحكم على أتباع مدرسة أهل البيت بالعزلة والضياع. وبالقدر الذي ندعو فيه إلى ملاحظة خصوصيات تلك الأمكنة فإنّنا لابدّ لنا من مراعاة خصوصياتنا، فإنّ هنالك الكثير من المخالفات الشرعية وافدة علينا من تلك البلدان، نتيجة زياراتهم واستيطان بعضهم، كما هو الحال في انتشار جملة من العادات الغريبة في بلدان الجزيرة العربية نتيجة كثرة العمالة والوافدين عليهم، ففي هذه البلدان ما لا يقلّ عن عشرين مليون وافد، كلّهم يحملون تقاليد وعادات مختلفة، بل وبعضهم وافد من بلدان غير إسلامية[١].

والغريب أنّ الكثير من المسلمين الوافدين، وهم يعيشون في بلدان عربية، لا يستطيعون أن يلتزموا بالإسلام الذي يعيش تفاصيله أبناء الجزيرة العربية، فتجدهم يضيفون عليهم لمحات يفرضها واقعهم الذي جاؤوا منه، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يتسنّى لنا فرض إسلام الجزيرة على أبناء تلك البلدان البعيدة في بلدانهم؟ فما ذلك إلّا هروب من مواجهة الواقع المعاش، والغريب أنّ بعض الفقهاء يُلزم مقلّديه في البلدان الغربية التي يكون فيها الليل قصيراً، أو تلك التي يكون فيها النهار قصيراً، الذين تفصلهم الآفاق البعيدة عن البلدان العربية والإسلامية، بأن يصوموا ويفطروا على مدن البلدان العربية، وكأنّ الإسلام عاجز أن يعطيهم فقهاً يتلاءم مع واقعهم، ولا نعلم كيف يجتمع عندنا الاعتقاد بعالمية وأمميّة الإسلام وبين هذه الآفاق الضيّقة في الفُتيا

---

(١) فلو تفحّصنا الأسواق في مكّة المكرمة والمدينة المنورة فإنّنا لا نكاد نجد بائعاً من أهل البلد، وفي بعض مدن دولة الإمارات لا تكاد تجد من يفهم لغتك العربية، وكأنّك في مقاطعة غربية أو آسيوية شرقية، وهؤلاء لابدّ أن يكونوا مؤثّرين بقدر ما هم متأثّرون.

وبيان الأحكام.

إنّ المجتمعات وإن كانت تتمحور حول الإنسان، ولكنّها تتشكّل بأنحاء مختلفة، فتجد ألوانهم مختلفة، وأشكالهم مختلفة، ولغاتهم مختلفة، وعاداتهم وتقاليدهم مختلفة، وطرق تفكيرهم مختلفة، بل تجد حتى أمراضهم مختلفة[1]، ومن الطبيعي أن يكون لهم ما يلائم واقعهم العملي من فقه مستساغ، يكون المؤدّي له على نفس القدر من الأجر والثواب للمسلم العربي الذي يؤدّي أعماله وفق فقهه في بلده.

وسطية التشيّع في الأخلاق والسلوك

وهنا عدّة مطالب، أوّلها: أنّه في طول الوسطية الفكرية العقدية والوسطية الفقهية والتشريعية تندرج وسطية التشيّع في الأخلاق والسلوك، فما لم نتأكّد من وسطيتنا في العقيدة والفقه فإنّنا سوف نكون في مهبّ الريح في أخلاقنا وسلوكياتنا، وكأنّنا نتعاطى مع معادلة رياضية لا تقبل الخطأ، ولذلك إذا ما وجدنا تطرّفاً في أخلاقنا وسلوكياتنا فلابدّ أن نعلم بأنّنا لسنا وسطيين في المراتب السابقة، وكما يُقال في المنطق فإنّ النتيجة تتبع أخسّ المقدّمات، والعقيدة غالبة على الفقه، والفقه غالب على الأخلاق والسلوك، فحتى مع بذل الممكن في تحقيق الوسطية في الأخلاق والسلوك فإنّنا سوف نقع في مطبّات كثيرة ومشكلات خطيرة ما لم نتأكّد من وسطيتنا في العقيدة والفقه، والمرض إذا وقع في التأسيس فإنّه سارٍ لا محالة إلى التفريع.

وأمّا المطلب الثاني: فكما أنّ الأوساط الاجتماعية تفرض سطوتها على

---

(١) واللطيف أنّ كثيراً من أبنائنا الذين يدرسون الطبّ في تلك البلدان الغربية والأوربية يدرسون ويتخصّصون بأمراض يندر وجودها في بلدانهم العربية والإسلامية، ولذلك يترجّح عندهم البقاء في تلك البلدان، وتخسر بلداننا تلك الخبرات والطاقات البشرية.

طريقة التفكير والتطبيق فيما تقدّم من الفكر والعقيدة والفقه والأحكام فكذلك واقع الحال في الأخلاق والسلوك، بل إنّ الأخلاق والسلوك هما الأكثر عرضة لذلك التأثير، لأنّ الإنسان يغلب عليه التعاطي السلوكي وليس الفكري، وبالتالي فلابدّ أيضاً من مراعاة تأثير الزمان والمكان على طبيعة الأخلاق والسلوك[1].

وأمّا المطلب الثالث: فإنّ الأخلاق تنقسم إلى أخلاق صفاتية، وأخلاق

---

(١) للسيد الأستاذ دام ظله بحوث أخلاقية جليلة، طُبع بعضها ضمن دورته الأخلاقية (الأخلاق التعليمية)، وقد صدر منها أربع حلقات، وقد تناول في الحلقة الأولى منها (أخلاقنا)، في الدرس السابع، موضوعاً شيّقاً يتعلّق بحركية الأخلاق بتبع الزمان والمكان، حيث يقول هنالك في مقدّمة الدرس السابع: «بالرغم من كون الأخلاق تُمثّل قيماً إلهية وإنسانية ثابتة ولا يُتصوّر فيها التغيير، فالصدق هو الصدق، وهو فضيلة وفعل حسن، كما أنَّ الكذب هو الكذب، وهو رذيلة وفعل قبيح، ولكن مع ذلك كلّه فهنالك ظروف موضوعية تتعلّق بالزمان والمكان وبطبيعة المجتمعات، وهذا التغيّر والحركية في طبيعة الأخلاق لا يُصيِّر الحسن قبيحاً، ولا القبيح حسناً، وإنّما الفعل الحسن حسن في ذاته ولكنّه قد يكون قبيحاً في زمان خاصّ ومكان خاصّ، والفعل القبيح قبيح في ذاته ولكنّه قد يكون حسناً في زمان خاصّ ومكان خاصّ، كما أنَّ هنالك قيماً مُضافة تُزاحم قيماً ثابتة فتكون حاكمة عليها». ثمّ يتناول أنواع التغيير والتحوّل في الأخلاق، من قبيل: (التحوّل من الأخلاق القبيحة إلى الأخلاق الحسنة، وبالعكس)، و: (التغيّر والتحوّل في رؤية الناس للأخلاق)، و: (التغيّر والتحوّل في الأخلاق بحسب المصالح)، و: (التغيّر الأخلاقي بحسب الزمان والمكان وظروف المعيشة)، و: (التغيّر والتحوّل في الأخلاق بالمعنى القيمي تبعاً للزمان). انظر: أخلاقنا ... عرض للأخلاق التعليمية والواقعية، للمرجع الديني السيد كمال الحيدري: الدرس السابع (حركية الأخلاق بتبع الزمان والمكان)، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، العراق، الكاظمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ.

سلوكية؛ «فما كان منها متعلِّقاً بالسجايا الباطنية يسمَّى بالأخلاق الصفاتية، وما تعلَّق منها بالسلوك الخارجي للإنسان يسمَّى بالأخلاق السلوكيّة؛ فهنالك أخلاق ظاهرية تفرضها طبيعة السلوك الخارجي للإنسان تُعبِّر عن أخلاقه وسلوكه، كالبشاشة وحسن المنطق وعدم بذاءة اللسان، وغير ذلك، كما أنَّ هنالك أخلاقاً باطنية تتعلَّق بالملكات الذاتية التي عليها الإنسان، كالصدق وحسن الظنّ»[(١)]، والأخلاق إنّما تُلحظ بآثارها الخارجية، فالصفات النفسانية والسجايا الباطنية لا تنفكّ عن آثارها الخارجية، ولهذا فإنَّ الغرض الحقيقي من وراء الأخلاق هو تربية الإنسان والارتقاء به إلى كماله المطلوب، الذي به يكون الإنسان إنساناً، وبه يتسنّم مقام الخلافة الإلهية والكينونة في الولاية لله تعالى، فيكون العبد وليّاً لله تعالى[(٢)].

وفي ضوء هذا التقسيم الثنائي على مستوى الصفة والسلوك لابدّ من مراعاة الوسطية القرآنية التي جسّدها أهل البيت عليهم السلام، وما دامت السلوكيات السويّة الخارجية منبثقة من تلك الصفات النفسانية فإنّ الإنسان سيكون في حصانة تامّة من الوقوع في ابتلاءات الرياء والعُجب، فالصفة النفسانية تمنح صاحبها ثقة عالية، فيكون في كلّ آنٍ تابعاً لذلك الغرس النفساني، وإذا ما وقع خلل في سلوك خارجيّ غير مطابق للصفة النفسانية فإنّ الإنسان السويّ سرعان ما يلتفت إلى ظلمانية السلوك الخاطئ؛ لأنّ النفس المتّصفة بالضدّ ستعاني من عتمة السلوك الخاطئ فتنبري للدفاع عن صفتها المكتسبة، بخلاف الخلوّ من الاتصاف وكان قد صدر منه سلوك، فإنّه إن كان سلوكاً

---

(١) أخلاقنا ... عرض للأخلاق التعليمية والواقعية، مصدر سابق: الدرس الأوّل.

(٢) يُمكن مراجعة بعض التفاصيل في كتاب (من الحقّ إلى الخلق) أو (مراتب السير والسلوك إلى الله)، من أبحاث المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن.

مشيناً، لن يجد رادعاً نفسانياً، وإن كان سلوكاً سويّاً فإن لم يشكّل له ذلك داعياً للإصلاح ـ وهو قليل الحصول ـ فإنّه سوف يُصاب بالعُجب من سلوكه؛ لأنّ المعجب بنفسه وسلوكه هو في الغالب خلوٌ من الانبعاث الذاتي لذلك السلوك السوي، وإلّا فالصفة النفسانية تدلّ صاحبها في كلّ آنٍ على السلوك السوي فيكون في معزل عن الوقوع في دهليز العُجب؛ نظراً لتكرار الفعل منه، بل لعلّ سلوكه السوي يكون داعياً للّوم والتأنيب لعدم الارتقاء به نحو الأفضل.

وأمّا المطلب الأخير: فإنّ الوسطية في الأخلاق والسلوك ملزمة بالسعي الحثيث إلى المشارطة والمراقبة والمحاسبة، فإذا وجد خطلاً أو خللاً أعلن التوبة وأكثر من الاستغفار والعمل المباشر على معالجة ما وقع منه، وإن وجد صلاحاً وخيراً في عمله ارتكن إلى الشكر والاستعانة بالله تعالى وحده، ودون ذلك فإنّ الإنسان على خطر؛ لأنّ انعدام الوسطية ـ الملزمة بما تقدّم ـ يعني المكوث في عالم الغفلة، والانغماس في مستنقع الأنا.

وسطية التشيّع في الحكم والإدارة

بالرغم من المظلوميات التاريخية لأتباع مدرسة أهل البيت على مستوى الحكم والإدارة، التي جعلت منهم يقفون لقرون طويلة في موقع المعارضة والخفاء وعدم الظهور، إلّا أنّ هنالك فرصاً تاريخية قد مرّت وشهدت حكماً وإدارة منهم للأمور في مواقع محدودة وفي أزمنة محدودة، وضمن احتمالية توسعة تجربة الحكم والإدارة لأتباع مدرسة أهل البيت فإنّه ينبغي المرور بشيء من التعريف بالوسطية في ذلك.

إنّ الوسطية في الحكم والإدارة تعني تغليب المصلحة الوطنية على المصلحة القومية والعرقية والفئوية والحزبية، وتغليب المصلحة الإسلامية الجامعة على المصلحة المذهبية الضيّقة، ولعلّ هذا المعنى سيحتاجه أتباع مدرسة أهل البيت

بشدّة؛ لأنّهم في طور التحوّل من المعارضة والمقاومة إلى الدولة والحكم والإدارة في مساحات غير قليلة من العالم العربي والإسلامي، وسواء كان هذا التحوّل كليّاً أو جزئيّاً فإنّه لابدّ من الالتزام بلوائح الوسطية؛ لكي لا تتحوّل مظلوميتهم التاريخية إلى ظالمية، فإنّ الحكم في الغالب يؤثّر على المبادئ، وإذا كان الغنى المادّي يُؤدّي في الغالب إلى الطغيان فكيف بالحكم والسلطة والنفوذ، وقد قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: ٦ ـ ٧)، ولا يمكن أن يكون استرداد الحقوق موجباً إلى سلب حقوق الآخرين في المشاركة في الحكم وإدارة الدولة، ولذلك فإنّ الوسطية تتقاطع تماماً مع الحزبية والفئوية، بل تتقاطع أيضاً مع المذهبية والقومية والعرقية فضلاً عن تقاطعها التامّ مع منطق العشائرية والمناطقية، كما أنّها تنسجم مع الوطنية والمصلحة الإسلامية، فالوطن عنوان جامع لأبنائه، والإسلام عنوان جامع للمذاهب الفكرية والفقهية والسلوكية.

ولابدّ لأتباع مدرسة أهل البيت أن يتدارسوا واقعية الدولة المدنية بصفتها جامعة للأديان والمذاهب والأعراق المختلفة، وأن لا يسمحوا للرؤى المذهبية الضيّقة أن تعصف بهم، حتى في صورة مقابلتهم بمعارضات شديدة من قبل الآخرين؛ فإنّ الآخرين سوف يحاولون أن يدافعوا عن تاريخهم المديد في الحكم والإدارة بكلّ ما أُوتوا من قوّة، ولن يتفهمّوا مشروعكم الوحدوي الجامع، ولن يقرأوه قراءة موضوعية منصفة، ولذلك سوف يتعاطى الكثير منهم معكم بنَفَس ورؤية مذهبية ضيّقة، وربما برؤية عرقيّة لكي يسلبوا عنكم عنوان الوطنية، فإذا ما قابلتموهم بسياسة ردّ الفعل فإنّ الفريقين معاً لن يجنيا سوى الذلّة والخسران، والخاسر الأكبر هو الوطن والإسلام، والرابح الوحيد والأكبر هو العدوّ الحقيقي لأوطاننا ولإسلامنا.

ولذلك سوف يحتاج الأخيار من مدرسة أهل البيت وهم في موقع القيادة

والحكم والإدارة إلى أن يقدّموا تضحيات كثيرة وعظيمة، وأن يعضّوا على الجراح العميقة، وأن يُغلّبوا لغة العفو والتسامح على لغة العقوبة والانتقام، ولقد ضرب لنا رسول الله صلّى الله عليه وآله أعظم الدروس في العفو والتسامح مع قريش، الخصم التاريخي للإسلام، الذين ما ادّخروا شيئاً في حربهم على الإسلام والنبوّة الخاتمة، ولكنّ الرسول صلّى الله عليه وآله قابلهم بكلمة العفو، فقد روى الطبري: «أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لما دخل مكّة عنوة قال لأهلها: **يا معشر قريش ويا أهل مكّة! ما ترون أنّي فاعل بكم؟** قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، ثمّ قال: **اذهبوا فأنتم الطلقاء**، فأعتقهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فبذلك يسمّى أهل مكّة الطلقاء»(١)، قالها وذكريات التهجير القسري حاضرة عنده، والدماء الطاهرة الزكية التي سالت في بدر وأحدٍ وحُنين لم تبرد بعد، ولم يزل يفوح مسكها، ولكنّه صلّى الله عليه وآله ما جاء منتقماً، وما جاء بالذبح كما يُصوّره الإسلام الأموي(٢)، وإنّما جاء من أجل إنقاذ الإنسان، وصيانة كرامته وتحصينه بالقوّة والمنعة والعزّة والشموخ، وهذا الدرس العظيم هو ما ينبغي أن يعيه كلّ من يُريد أن يتصدّى لأمور الحكم وإدارة الدولة، ولعلّ ما نلاحظه من الخروق الفاضحة في حكم الرعيّة إنّما هو ناشئ من سياسة التخندق بجميع أصنافها وصورها.

وقد ورد في جملة وصايا أهل البيت عليهم السلام في باب حسن المعاشرة، عن محمد بن مسلم، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**من**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: نخبة من العلماء، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت: ج٢ ص٣٣٧.

(٢) سيأتي بيان هذه النكتة في بحث نظم العلاقات.

خالطتَ فإن استطعت أن تكون يـدك العليـا عليـه فافعـل»(١)، وقـد فـصّل الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الخبر بقولـه: «**إذا خالطـتَ النـاس فـإن استطعت أن لا تخالط أحداً من الناس إلّا كانت يدك العليا عليه فافعـل، فـإنّ العبد يكون فيه بعض التقصير من العبادة ويكون له حـسن خلـق، فيبلغـه الله بحسن خلقه درجة الصائم القائم»**(٢)، واليد العليا كناية عن حُسن الخُلق، وعن الإحسان وإيصال النفع لعموم الناس بقدر الإمكان، و «كأنّه أريد باليد العليا: المُنفقة أو المُعطية؛ فإنّ اليد العليـا مُنفقـة مُعطيـة واليـد الـسفلى سـائلة آخذة، أو أريد بها اليد اليمنى، فإنّ اليمنى أعلى من اليـسرى في القـوّة، وهـي على التقديرين كناية عن حسن الخلق كما يُشعر به التعليل»(٣).

فلا يكون المؤمن صريعاً لعصبيّته وغضبه وطائفيّته، ولـنعم مـا أوصى بـه الإمام جعفر الصادق عليه السلام بعض أصـحابه؛ فعـن أبي الربيـع الـشامي قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام والبيت غاصّ بأهله، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلـس أبـو عبـد الله عليه السلام، وكان متّكئاً، ثمّ قال: **يا شيعة آل محمد اعلموا أنّه ليس منّـا مَـن لم يملك نفسه عند غضبه، ومَن لم يُحسن صحبة مـن صـحبه، ومخالقـة مـن خالقه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره، ومما لحة من مالحه، يا شـيعة آل**

---

(١) المحاسن، للشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد بن خالـد البرقـي، تـصحيح وتعليـق: الـسيد جلال الدين الحسيني، نشر: مؤسسة الأعلمي، طهران، ١٤٢٩هـ: ج٢ ص٣٥٨ ح٦٩؛ الأصول من الكـافي، مـصدر سـابق: ج٢ ص٦٣٧ ح١، بـاب حـسن المعـاشرة؛ مـن لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج٢ ص٢٧٥ ح٢٤٢٧.

(٢) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٠١ ح١٤.

(٣) شرح أصول الكافي للمازندراني، مصدر سابق: ج٨ ص٢٩٢.

محمّد اتّقوا الله ما استطعتم، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله»[(١)]، فيكون الانفتاح على الناس وفق هذه القيم العليا، ولابدّ من الانفتاح على الناس بشكل عامّ، فكيف بمن تصدّى لأمور الحكم والإدارة، وقد ورد عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام: «**الانقباض من الناس مكسبة للعداوة**»[(٢)].

وسطية التشيّع في الإنسان والحياة

وهنا تكمن القيم العليا للإسلام والقرآن التي جسّدها أهل البيت عليهم السلام، والتي ينبغي لأتباع أهل البيت التحلّي بها، بل ولكلّ من يدّعى الانتماء والارتباط والولاء والحبّ للإسلام والقرآن وأهل البيت عليهم السلام، ففي هذه القيم العليا نجد عنوان الإنسانية هو الأكثر حضوراً وتجلّياً في الرؤية وفي التطبيق، والتي منها النظر إلى إنسانية الإنسان في أصل التعاطي معه، وليس إلى الانتماء والولاء، وهذا الأمر ضروري جدّاً بالنسبة لأهل الحكم وإدارة شؤون الدولة.

ولعلّ من أروع الشواهد التاريخية والصور الإنسانية ما جسّده الإمام علي بن أبي طالب في فترة حكمه، وذلك عندما مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، «فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: **ما هذا؟** فقالوا: يا أمير المؤمنين نصراني، قال: فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه!! أنفقوا عليه من بيت المال**»[(٣)]، والدفع له من بيت المال يعني مراعاة كونه من

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٦٣٧ ح٢، باب حسن المعاشرة.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٦٣٨ ح٥.

(٣) تهذيب الأحكام، مصدر سابق: ج٦ ص٢٩٢ ح١٨؛ وسائل الشيعة، مصدر سابق: ج١٥ ص٦٦ ح١.

الرعيّة، فالإمام عليه السلام لم يأمر لـه بـمال خـاصّ منـه ليُقـال بأنّـه أخذتـه العاطفة والرأفة به، وإنّما أمر لـه مـن بيـت المـال لأنّـه عليـه الـسلام الحـاكم المسؤول عنه، فاستحقّ النصراني ذلك العطاء لكونه فرداً من الرعيّـة لا كونـه مجرّد فقير وحسب، وفي هـذا المعنـى تكمـن قيمـة إنـسانية عليـا في الإسـلام انعكست في هذا السلوك الراقي لأمير المؤمنين علي عليه السلام.

هذا بالنسبة للإنسان، وأمّـا بالنـسبة للحيـاة فعـلى أتبـاع أهـل البيـت أن يتخلّصوا من الرؤية السوداوية للحياة، فالله سـبحانه وتعـالى يقـول: ﴿**وَابْتَـغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَـصِيبَكَ مِـنَ الدُّنْيَـا**﴾ (القـصص: ٧٧)، وقد مرّت بنا قصّة جليلة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله لّمـا علـم بانقطـاع بعض الصحابة إلى العبادة وترك ما أحلّه الله تعالى لهم من طعام وشراب وزينة ونكاح، فنهض صلّى الله عليه وآله خطيباً ومندّداً: «**ما بال أقوام من أصحابي لا يأكلون اللحم، ولا يشمّون الطيب، ولا يـأتون النـساء؟! أمـا إنّي آكـل اللحـم، وأشمّ الطيب، وآتي النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**»[(١)].

وما يُسمّى بالترابية[(٢)] في ثقافة مدرسة أهل البيت لا يُراد بها الانقطاع عن

---

(١) تقدّم تخريج الحديث.

(٢) الترابية: اصطلاح منتزع من كنية لأمير المؤمنين علي عليه السلام، حيث كنّاه بهـا رسـول الله صلّى الله عليه وآله، وهي (أبو تراب)، وكانت أحبّ كنـاه إليـه، وقـد روى البخـاري خبراً مفصّلاً في ذلك، عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: «أنّ رجلاً جاء إلى سـهل بـن سعد فقال: هذا فلان ـ لأمير المدينة ـ يدعو علياً عند المنبر، قال: فيقول ماذا؟ قال: يقـول له: أبو تراب، فضحك، قال: والله ما سمّاه إلّا النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وما كان له اسم أحبّ إليه منه، فاستطعمت الحديث سهلاً وقلت: يا أبا عباس كيـف؟ قـال: دخـل علي على فاطمة ثمّ خرج فاضطجع في المسجد، فقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: **أيـن**

الحياة أو أن ننظر للحياة نظرة سوداوية متشائمة، فذلك ليس من الدين بشيء، وإنّما المراد منّا في مدرسة أهل البيت أن نتعاطى مع الحياة بطريقة الأسياد عليها لا العبيد لها، فلا يكون أكبر همّنا الدنيا، فذلك متاع قليل ودار الغرور، وإنّما يكون أكبر همّنا هو كيف نسخّر هذه الحياة لتحصيل أكبر قدر ممكن من الكمال المطلوب؛ ففي خبر جليل عن طاووس اليماني، قال: «مررت بالحجر فإذا أنا بشخص راكع وساجد، فتأمّلته فإذا هو علي بن الحسين عليهما السلام ... قال: فبينا نحن كذلك إذ أقبل نفر من أصحابه، فالتفت إليهم فقال: **معاشر أصحابي، أوصيكم بالآخرة، ولست أوصيكم بالدنيا، فإنّكم بها مستوصون، وعليها حريصون، وبها مستمسكون. معاشر أصحابي، إنّ الدنيا دار ممرّ، والآخرة دار مقرّ، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم ...**»(1)، والأخذ لا يكون بالانقطاع عن دار الممرّ، وإنّما بالتعاطي معها وفق مقاييس الوسطية القرآنية.

ابن عمّك؟ قالت: في المسجد، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول: **اجلس يا أبا تراب، مرّتين**». صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٤ ص٢٠٧. وفي تاريخ الطبري ومعجم الطبراني هذه الزيادة: «ووالله ما كان له اسم أحبّ إليه منه». (تاريخ الطبري، مصدر سابق: ج٢ ص١٢٤؛ المعجم الكبير، مصدر سابق: ج٦ ص١٦٨). وقد روى الطبري والهيثمي وابن عساكر عن أبي الطفيل أنّه قال: «جاء النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وعلي رضي الله عنه نائم في التراب، فقال: **إنّ أحقّ أسمائك أبو تراب، أنت أبو تراب**». (المعجم الأوسط، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٧؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م: ج٩ ص١٠١؛ تاريخ مدينة دمشق، مصدر سابق: ج٤٢ ص١٨). قال ابن أبي الحديد: «فكانت من أحبّ كُناه إليه صلوات الله عليه، وكان يفرح إذا دُعي بها». (شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص١١).

(١) أمالي الشيخ الصدوق، مصدر سابق: ص٢٨٨ ح٥.

وسطية التشيّع في قبول الآخر

هنا تكمن واقعية الوسطية في القرآن في التعاطي مع الآخر، لاسيّما على مستوى الإيمان[1]، فإنّ القبول بالآخر من أصحاب الشرائع السماوية فضلاً عن المذاهب الإسلامية ليس على مستوى التعايش السلمي فحسب، إنّما يعني القبول بالآخر كمؤمن ضمن مرتبته الإيمانية، فلا يُصنّف على غير أهل الإيمان، بحسب ما تؤدّي إليه الأدلّة والبراهين، وبذلك لا ينحصر الإيمان بما عليه شريعة أو مذهب إسلامي، وإنّما هي مراتب قابلة للزيادة والنقصان، ومع الزيادة لا يتحقّق الانحصار، ومع النقص لا ينتفي عنوان الإيمان، وهذا ما نعتقده في وسطية الشيعة والتشيّع.

---

(١) سيأتي في البحث التالي (مراتب الإيمان في القرآن)، تفصيل المسألة، حيث إثبات أنّ الإيمان لا يقتصر على شريعة سماوية معيّنة، ولا على مذهب إسلاميّ معيّن، وأنّ التفاضل إنّما يقع في المراتب الإيمانية، فالإيمان مقولة تشكيكية كالوجود.

مراتب الإيمان في القرآن

- توطئة
- معنى العقيدة
- الإسلام والإيمان
- الإسلام العامّ والإسلام الخاصّ وتحديد الوظيفة
- الإيمان العامّ والإيمان الخاصّ
- خصائص الإيمان
- مراتبيّة الإيمان
- نماذج للمراتبيّة في القرآن
- أقسام الإيمان الرئيسة في القرآن
- المقاربة بين مرتبة الإيمان العامّ ومرتبة الإيمان الخاصّ
- لوازم مراتبيّة الإيمان
- دعوة أصحاب الإيمان العامّ إلى الإيمان الخاصّ
- شبهة الأعراب ومرتبتهم الإيمانية
- الإيمان مقيّد بوصول الدليل
- علاقة المراتب الإيمانية بالعلم والعمل

توطئة

لم تزل موضوعة الإيمان ـ على وضوح معناها ـ بالغةً في التعقيد، وهي مثار خلاف واختلاف شديدين، وكلّ أهل ملّة ودين يدّعون لأنفسهم الإيمان ويسلبونه عمّن سواهم، بل يكاد أصحاب كلّ مذهب في الدين الواحد أن يقصروا الإيمان عليهم دون سواهم، لتستشري في الأوساط العامّة والخاصّة ظاهرة التكفير، فتشكّل ثقافة مقيتة تتحكّم بالعقول وتهيمن على القلوب، وتتحوّل إلى سلوك جارف، يعصف بالحياة، ويُحيل الأشياء الجميلة إلى ركام وحطام، وما ذلك إلّا للابتعاد الصريح عن النصوص القرآنية، أو لتعطيل دورها في رسم مساحات الإيمان، فصُيّرت الآفاق الرحبة للإيمان القرآني إلى كانتونات مذهبية[1]، قائمة على منطق التعصّب الأعمى للعقيدة، وإن كانت فاسدة في واقعها، فهم لا يرون إلّا أنفسهم، وينصّبون أنفسهم منصب الحاكم المطلق في تكفير وتفسيق مَن خالفهم، وهذه الحالة هي ضرب من الدوغماتية[2]، التي تدّعي معرفة الأشياء على حقائقها، ويضفون على كلامهم البشري واعتقادهم الاجتهادي صبغة إلهيّة!

وبمراجعة يسيرة لقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ (البقرة: ١٢٠) نجد أنّ هذه القاعدة العصبيّة التي كشفت عنها

---

(١) الكانتونات: اصطلاح معاصر يُشار به إلى تقسيم البلدان إلى دويلات طائفية وعرقية.

(٢) الدوغماتية: مصطلح كاثوليكي مشتقّ من كلمة (دوجما) ومعناها: المبدأ ذو الصحة المطلقة، ويرتبط هذا المصطلح بالإلهام الذي تزعمه الكنيسة لنفسها ممثّلة بمرجعياتها، حتى نسبوا لها العصمة، وأصبحت الدوجماتية وصفاً يطلق على الحركات الشمولية التي تنسب لنفسها الحقّ المطلق، سواء كانت حركات دينية أو غير دينية.

الآية، لا تقتصر ـ في أنظار تلك الكانتونات المذهبية ـ على اليهود والنصارى، فهي عندهم تمثّل قاعدة ارتباط الرضا باتّباع الملّة، لتشمل كلّ الفرق والمذاهب ـ وهذا ما نجده بوضوح في واقعنا الإسلامي المتمذهب ـ لتصير بحسب هذه الأنظار سبباً مباشراً في تفريق الأمّة وتضييعها، فنجد أتباع مدرسة أهل البيت غير راضين عن أتباع مدرسة الصحابة، وإن أضمروا ذلك، ولن يرضوا عنهم حتى يدخلوا في مذهبهم، وبحسب التعبير القرآني: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، كما نجد مدرسة الصحابة غير راضين عن مدرسة أهل البيت، وإن أضمروا ذلك، حتى يتّبعوا مِلَّتَهُم، وهكذا الحال بالنسبة للسلفية، فهم غير راضين عن الجميع حتى يتّبعوا ملّتهم، غير أنّهم أكثر صراحة ووضوحاً في تطبيق هذه القاعدة العصبيّة على الجميع، وبالتالي فليس من الإنصاف أن يُلام اليهود والنصارى على موقفهم المندرج تحت هذه القاعدة، فإنّ جميع المدارس الإسلامية بفِرقها ومذاهبها واختلاف مشاربها يلتقون تحت مظلّة هذه القاعدة، والسبب هو التعصّب وغياب الموضوعية، وتغييب لغة الحوار، وتغليب لغة التبعيد والتصادم، وعدم التخلّص من مجموعة أمراض تاريخية مزمنة، يقع في طليعتها أنّ أتباع كلّ فرقة ومذهب يرون أنفسهم على الحقّ المطلق دون سواهم، حتى غاب الحقّ عن الجميع أو عن أغلبهم، واعتزلهم منذ أمدٍ بعيد، وما ذلك إلّا لغياب التعاطي بجدّية مع الوسطية في القرآن، مع أنّ الإيمان لا ينفكّ هو الآخر عن تطبيقات هذه الوسطية القرآنية، بل لا خلاص للأمّة من النزاعات والتناحر في التوصيف بالإيمان والتجريد عنه إلّا بالالتزام بمقتضيات الوسطية القرآنية المنعكسة تماماً في مقولة الإيمان، لتشهد الأمّة مراتب الإيمان ويقع بينهم التفاضل في ذلك.

إنّ العلّة الحقيقية في تغييب الوسطية القرآنية، وفي الركون للوصف بالإيمان والتجريد منه، ليست في فقدان الدليل والبرهان، ولا في الجهل بالحقائق

والوقائع، وإنّما في التعصّب الأعمى للعقيدة، المفضي إلى إلغاء العقول، ومصادرة الآخرين، بل وإلى العمل على تكفيرهم وسفك دمائهم، فيستحضرون في عقولهم وقلوبهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣)، ويطبّقونه على جميع المخالفين لهم، وهذه ـ كما عرفت ـ هي الدوغماتية الدينية الأصولية القاتلة، التي لا يخلو منها دين أو مذهب، مع أنّ القرآن الكريم وهو الوحي الإلهي الحقّ، والذي يمثّل لوح الواقع، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نجده يخاطب خصومه بمنتهى الإنصاف والموضوعية، فيقول: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، ولم يقل: إنّا لعلى هدى وأنتم على ضلالٍ مبين، ولم يطلب منّا أخذ الحقّ والعمل به من دون بحث وتحقيق فيه، حتى إن كان الحقّ قد نزل به قرآن كريم، فلابدّ من التفكّر والتأمّل والتدبّر؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ (الفرقان: ٧٣)، فكيف يتسنّى الانسياق لعقائد ليس لها أصل وجذر قرآنيّ؟ فهذه الآية تأمرنا بأن نأخذ آيات الله عن تفكّر وتأمّل وتدبّر، وأن نعاينها بروح البحث والتحقيق، لا أن نخرّ عليها صمّاً وعمياناً.

معنى العقيدة

للعقيدة في اللغة عدّة معانٍ متقاربة في المضمون؛ فاللفظ أُخذ من (العَقْد)، وهو: الربط والإبرام والإحكام والتوثّق والتماسك والإثبات، وهو اليقين والجزم أيضاً، وهو بجميع معانيه يُقابله الانفلات[1]، وأمّا في

(١) انظر: لسان العرب، مصدر سابق: ج٣ ص٢٩٥ ـ ٣٠٠، باب: (عقد).

الاصطلاح العامّ فهي: الحكم الذي لا يقبل الشكّ فيه لدى معتقده، أو هي كلّ ما عقد الإنسان عليه قلبه جازماً به، واطمأنَّت نفسه بأنّه مطابق للواقع.

وهي في اصطلاح المتكلّمين الإسلاميين: الإيمان، بمعنى انعقاد القلب والتصديق الجازم بوجود الله وألوهيّته، وبوحدانيّته وأحديّته، والإيمان بملائكته وكتبه وأنبيائه ورسله، وبدين الإسلام ونبيّه الخاتم صلّى الله عليه وآله،وباليوم الآخر، وبالقرآن كتاباً إلهيّاً مصوناً من التحريف، وبالكعبة قبلة، وبعض الملحقات الأخرى، وأمّا العقيدة في النصّ القرآني فهي الدين القيّم، فيكون الاعتقاد الحقّ هو إقامة الوجه صوب ذلك الدين القيّم؛ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠)، والدين الحنيف هو دين التوحيد الذي لا يشوبه الشرك.

الإسلام والإيمان

الإيمان هو الإذعان إلى الحقّ والتصديق به[١]، وهو «إفعال من الأمن، بمعنى سكون النفس واطمئنانها لعدم ما يوجب الخوف لها»[٢]، وقد اختلفوا في تعريفه الاصطلاحي، بين كونه من أفعال القلوب حصراً، وبين كونه من أفعال الجوارح حصراً، وبين كونه من أفعال القلوب والجوارح معاً[٣]، والأنسب أن يُقال في ذلك أنّه من أفعال القلوب المؤثّرة في الجوارح والسلوك، فما نلاحظه من سلوكيات إيمانية ما هي إلّا انعكاسات لذلك الفعل القلبي، ولابدّ أن ينعكس الإيمان بالقول والفعل والسلوك مع الاختيار، فلا يكفي انعقاد القلب وحده، وهذا ما استفاده الخواجة الطوسي من قوله تعالى:

---

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، مصدر سابق: ص١٠٠.

(٢) انظر: حقائق الإيمان، مصدر سابق: ص٥٠.

(٣) انظر: المصدر نفسه: ص٥٣.

﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾ (النمل: ١٤)، قال: «الإيمان التصديق بالقلب واللسان، ولا يكفي الأوّل؛ لقوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾، ونحوه ...»[١]، ومن الواضح أنّه لا يكفي الثاني من دون الأوّل، أي: التصديق بالقول من دون التصديق بالقلب؛ لقوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٤)، فأولئك الأعراب صدّقوا بألسنتهم دون قلوبهم.

ومرتبة الإيمان فوق مرتبة الإسلام[٢]، ومن حيث الأصل فإنَّ الفاصلة بينهما هو ملازمة العمل للإقرار بالشيء وعدم ملازمته، فإن لازمه العمل فذلك هو الإيمان وإلّا فهو الإسلام لا غير؛ قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل**»[٣]، وكأنّ الإقرار هو البعد النظري للإيمان والعقيدة، والعمل هو البعد التطبيقي للإيمان، وإلّا فالإيمان إن لم تكن له صورة خارجية تحكيه فإنّه سيبقى على صوريّته، وبذلك لا يمكن لنا غضّ الطرف عن السلوكيات الخارجية، فالذي تنتفع الإنسانية

---

(١) انظر: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، للخواجة نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٦٧٢هـ)، شرح العلّامة الحلّي جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ)، حواشي وتعليقات: آية الله السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني، الناشر: منشورات الشكوري، مطبعة إسماعيليان، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٣٩٣م: ص٤٥٤.

(٢) المقصود من الإيمان هو الإيمان الخاصّ، والذي يتوقّف على الإيمان بالنبوّة الخاتمة، كما أنّ المراد من الإسلام هو المعنى الاصطلاحي وليس اللغوي، والاصطلاحي صادق على الدين الإسلامي حصراً، بخلاف اللغوي، فهو يشمل كلّ من أسلم وجهه لله تعالى، وسيأتي السيد الأستاذ دام ظله على بيان معنى الإسلام في العنوان اللاحق، وعلى معنى الإيمان الخاصّ ضمن عرضه لمراتب الإيمان في هذا البحث.

(٣) تحف العقول عن آل الرسول، مصدر سابق: ص٢٩٧.

بأعماله الخيّرة هو مؤمن عملياً وإن لم يقع منه إقرار سابق، والذي تتضرّر الإنسانية بأفعاله الخبيثة فهو ليس بمؤمن عملياً وإن كان من منظّري العقيدة، وحيث نحن لا نستطيع أن نقف على الإقرارات القلبية وإنّما نستطيع أن نقف على الأفعال الخارجية فإنّها ستكون مقياساً عقلائياً لتصويب العقيدة وتخطئتها.

وهذا ما نفهمه من كلمة الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية**»[1]، أي: إنّ السلوك الخارجي هو مرآة الورع والاجتهاد في الطاعة، وجدوائية الصلاة في نهيها عن الفحشاء والمنكر، وفي خبر آخر عنه عليه السلام: «**كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع**»[2]، وقد كان عليه السلام يُوصي المفضّل بن عمر: «**أي مفضّل! قل لشيعتنا: كونوا دعاة إلينا بالكفّ عن محارم الله واجتناب معاصيه، واتّباع رضوان الله، فإنّهم إذا كانوا كذلك، كان الناس إلينا مسارعين**»[3]، وبذلك فما يصدر من نهب وسلب وفحش، وقتل للأبرياء، ونسف وحرق للدور، وغير ذلك من الممارسات المشينة تكشف لنا عن طبيعة تلك العقائد الفعلية التي قرّت واستقرّت في هذه النفوس القاتلة المجرمة.

الإسلام العامّ والإسلام الخاصّ وتحديد الوظيفة

للإسلام معنى عامّ، وهو التسليم؛ قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (البقرة: ١٣١)، وهذا هو الدين العامّ الصادق على

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٧٨ ح١٤.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص١٠٥ ح١٠.

(٣) دعائم الإسلام، للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد المغربي، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، الناشر: دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٩هـ: ج١ ص٥٨.

كلّ من أسلم وجهه لله تعالى، فكلّ الأنبياء عليهم السلام كانوا مُسلمين مُسلِّمين لله تعالى، وللإسلام معنى آخر خاصّ أو اصطلاحيّ، وهو الدين الذي بُعث به رسول الله محمد صلّى الله عليه وآله، المشتمل على منظومة معرفية وعملية لها امتيازاتها وخواصّها، تتمثّل بعقيدة وأحكام وسلوكيات وأخلاق، فتكون النسبة المنطقية بين الإسلام العامّ والإسلام الخاصّ هي العموم والخصوص المطلق، فالإسلام الخاصّ شامل على كلّ خصائص الإسلام العامّ، بخلاف الإسلام العامّ فإنّه شامل على بعض خصائص الإسلام الخاصّ، ونحن كمسلمين مكلَّفون بالإسلام الخاصّ المشتمل على معنى الإسلام العامّ وزيادة(١).

وهو الإسلام الأصيل الذي قطبه ومحوريته القرآن الكريم، والمتمّم له السنّة الشريفة الشارحة للمتون القرآنية، وترجمة لها، كما جاء خبر عن سدير، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: **نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله ...**»(٢)، وهما لا يفترقان، بمعنى العلاقة الوثيقة بين المتن والتبيين، أو بين الإجمال والتفصيل، أو بين النظرية والتطبيق، فما كان غير منسجم مع المتن والإجمال والنظرية يُضرب به عرض الجدار، كما علّمنا ذلك أئمّة أهل البيت عليهم السلام؛ فعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام فيما يصلنا عنهم من السنّة، قال: «**اعرضوها على كتاب الله، فما وافق كتاب الله عزَّ وجلّ فخذوه، وما خالف كتاب الله**

---

(١) ينظر تفصيل المسألة في: فقه العقيدة (بحوث في أصول الإيمان وفروعه)، من أبحاث سماحة المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والعقيدة، العراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ: ص١٠١.

(٢) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص١٩٢ ح٣.

فردّوه»[١]، فتكون المرجعية الأولى في التأسيس والتصحيح هو القرآن نفسه، وهذا هو ما كنّا نعنيه بنظرية (إسلام محورية القرآن)[٢]، والتي ستكشف عن ذلك الركام الهائل من الأخبار الموضوعة والمدسوسة في الكتب الحديثيّة عند الفريقين معاً، فالإسلام أقوى وأعظم من أن يُوضع له، أو يُكذَّب لـه، فهـو الحقّ والحقيقة، والحقّ والحقيقـة لا ينسجمان أبـداً مـع مـا يلتـصق بـه مـن خرافات وترّهات مفضوحة.

من هنا «يتعيَّن علينا لحفظ ديننا أن نترفّع عن الانسياق وراء عـالم العاطفـة والعصبية والجاهلية إلى عالم العلم والبرهان؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة: ١١١) **وقل الحقّ ولو على نفسك**، كما جاء في الخبر»[٣].

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٨.

(٢) للسيد الأُستاذ دام ظله دراسة تفصيلية في إثبات إسلام محورية القرآن، وهي دراسة تقـع في مجلّدين كبيرين، وقد تمّ تقسيمها على خمسة أجزاء، ضمن عنوان جامع وهـو (سلـسلة إسلام محورية القرآن)، وقد صدر منها ثلاثة أجزاء، الأوّل (الموروث الروائي بين النـشأة والتأثير)، والثاني (ميزان صحيح الموروث الروائي)، والثالث: (مفاصل إصـلاح الفكـر الشيعي)، والبقيّة قيد المراجعة والطبع.

(٣) فقه العقيدة (بحوث في أصول الإيمان وفروعه)، مصدر سابق: ص١٠١.

ورد في الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعن الإمام الصادق عليـه الـسلام أيـضاً: «**قل الحقّ ولو على نفسك**». من لا يحضره الفقيه، مصدر سـابق: ج٤ ص١٧٧ ح٥٤٠٣؛ أمالي الشيخ الـصدوق، مـصدر سـابق: ص١٢٩ ح٢؛ معـاني الأخبـار، مـصدر سـابق: ص١٩١ ح١؛ الجامع الصغير، مصدر سابق: ج٢ ص٩٥ ح٥٠٠٤.

وعنه صلّى الله عليه وآله: «**قل الحقّ ولو كـان مـرّاً**». الخـصال، مـصدر سـابق: ص٥٢٦؛ معاني الأخبار، مصدر سابق: ص٣٣٥؛ أمالي الشيخ الطوسي، مـصدر سـابق: ص٥٤١؛ الثقات، محمد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التميمي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمـد، دار

ولابدّ لنا من المضيّ في عملية النقد والتحقيق؛ لتنقية الموروث الروائي اعتماداً على مرجعية القرآن، فهو الذي: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (فصّلت: ٤٢)، فالخبر بنفسه ليس خطّاً أحمر لا تناله يد النقد، وإنّما الخط الأحمر هو رسول الله صلّى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، وما عدا ذلك لا يُوجد خطّ أحمر، سواء في الصحابة أو في عموم أصحاب الأئمّة، أو في مراجع عصر الغيبة، فضلاً عن العلماء والرواة وغيرهم، فكلّ هؤلاء تطالهم يد النقد الموضوعي دون المسّ بكرامتهم الشخصية، فإنّ: «مقولة الخط الأحمر تساوي الحَجْر على العقول، فهي تكبيل عمليّ لعقل المحقّق والمجتهد، وتكبيل لجهده العلمي، ولذلك فإنَّ باب العلم والتحقيق والاجتهاد المُستدلّ مفتوح، لاسيّما ونحن نمتلك إمكانات علمية أوسع وأعمق ممَّا وُجدت عند السابقين»[1].

الإيمان العامّ والإيمان الخاصّ

اتّضح أنّ الإيمان هو إذعان للحقّ وتصديق به[2]، فلا يكفي العلم بالشيء لتحقيق الإيمان به، لإمكان الافتراق؛ قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً**﴾ (النمل: ١٤)، فالإيمان موجب للالتزام بمقتضى العلم، أي: عقد القلب وترتّب الآثار عليه، وقد سُئل أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الإيمان، فقال: «**الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان**»[3]،

الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م: ج٢ ص١٢١؛ عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج١ ص٩٤؛ الدر المنثور، مصدر سابق: ج٢ ص٢٢١.

(١) فقه العقيدة (بحوث في أصول الإيمان وفروعه)، مصدر سابق: ص١٠٤.

(٢) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، مصدر سابق: ص١٠٠.

(٣) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٥٠ حكمة رقم:(٢٢٧).

وقد تقدّم أنّ للعقيدة والإيمان ترجمة عملانية في الخارج، والسلوكيات الخارجية هي المرآة الحاكية عن واقعية الإيمان، وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكن الإيمان ما خلص في القلوب وصدّقته الأعمال**»(١)، وهذا الإيمان على مراتب، وأعلى مراتبه هو أن يُطاع الله تعالى، ولا يُعصى بشيء، فعنه عليه السلام: «**الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى**»(٢)، أي: حقيقة الإيمان وواقعيّته تكمن في عنصر الطاعة، وإلّا فمن دون الطاعة لله تعالى سيكون الإيمان فاقداً لواقعيته.

هذا، وقد جرت العادة على تقسيم الإيمان إلى قسمين، هما: الإيمان العامّ والإيمان الخاصّ، والقسمان حاكيان عن واقع الأُمَّة الإسلامية، حيث انقسمت إلى مدرستين، هما: السنّة والشيعة، فكان الإيمان العامّ صفة أُلحقت بمدرسة أهل السنّة، والإيمان الخاصّ صفة أُلحقت بمدرسة أهل البيت، وبقطع النظر على الاختلاف في الكثير من التفاصيل إلّا أنّ النتيجة الحتمية لهاتين المدرستين هي اتصافهما بالإيمان، أي: إنّ جميع المسلمين مؤمنون إلّا ما خرج بالدليل، فالإيمان ليس حكراً على فئة مسلمة دون الأُخرى، بل إنّ الكلّ مسلمون مؤمنون، وإنّما يختلفون في المراتب الإيمانية، وما يُذكر في جعل العدل والإمامة ضابطاً في تمييز المؤمن عمّن سواه ليس بصحيح، فإنّ هاتين العقيدتين الصحيحتين إنّما توجبان الترقّي بالمستوى الإيماني لا التأسيس له؛ فإنّ أصل الإيمان متحقّق بأقلّ من ذلك، والشواهد التاريخية كثيرة على صحّة ذلك، فإنّ: «الأُصول الملحقة ـ العدل والإمامة ـ لو كانت من أُصول الدين وأركانه أو من الأُصول الإيمانية للزم أن يكون سائر الصحابة الأوائل الذين جاهدوا ونافحوا

---

(١) تحف العقول، مصدر سابق: ص٣٧٠.

(٢) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٣ ح ٣، كتاب الإيمان والكفر.

عن بيضة الإسلام واستشهدوا بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله ليسوا من المؤمنين لأنّهم ـ بحسب الظاهر ـ قد انحصر إيمانهم بأركان الأُصول الثلاثة، مع أنّهم رضوان الله عليهم لاشكَّ في إيمانهم وعظيم منزلتهم وحُسن عاقبتهم»[1]، ولذا نجد الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري يقول في ذلك: «ففي رواية محمد بن سالم، عن أبي جعفر عليه السلام، المرويّة في الكافي: (**إنَّ الله عزَّ وجلَّ بعث محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو بمكّة عشر سنين، فلم يمت بمكّة في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم إلاّ أدخله الله الجنّة بإقراره، وهو إيمان التصديق**)، فإنَّ الظاهر أنَّ حقيقة الإيمان التي يخرج الإنسان بها عن حدِّ الكفر الموجب للخلود في النار، لم تتغيّر بعد انتشار الشريعة»[2]، بل الإيمان ليس منحصراً بالمسلمين، حيث يشمل أصحاب الشرائع السماوية الأخرى، كما سيأتي بيانه.

خصائص الإيمان

للإيمان خصائص كثيرة، منها:

أوّلاً: إنّ الإيمان هو توجّه وانسياق قلبيّ، فهو في واقعيته نوع من التجلّي المعنوي الذي ينطبع في القلب وينعكس في الخارج على صورة أعمال ومواقف.

ثانياً: بالرغم من كون الإيمان يمثّل انسياقاً قلبياً ووجوداً معنوياً إلّا أنّه لابدّ أن يكون متعلّقاً بموضوعات عينية خارجية، أو بقضايا تعود لموضوعات عينية خارجية، ولا يمكن أن يكون متعلّقاً بوجودات وهمية، وإلّا صار وهماً

---

(١) فقه العقيدة، مصدر سابق: ص٩٥.

(٢) فرائد الأصول، للشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري (ت: ١٢٨١هـ)، إعداد وتحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم الأنصاري، الناشر: مجمع الفكر الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤١٩هـ: ج١ ص٥٦١.

وسفسطة؛ قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، وقال تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾ (البقرة: ١٧٧)، والوجود الخارجي أعمّ من كونه وجوداً مادّياً أو مجرّداً.

ثالثاً: الاقتران الوثيق بين الإيمان والعقيدة، فالعقيدة هي الباعثة إلى الإيمان بها، والإيمان هو الإقرار القلبي بصحّة تلك العقيدة والالتزام بها، وكلّ شيء يرتقي إلى مستوى الإيمان به فإنّه يشكّل عقيدة أقرّها القلب وارتبط بها، سواء كانت تلك العقيدة صحيحة أم فاسدة، وسواء كانت إلهيّة أم بشرية، وسواء كانت معنوية أم مادّية، فالعقيدة ليس لها إطار معيّن ولا قوالب محصورة، أو قل بأنّها ليست وجوداً رقميّاً يمكن عدّه وأسره، وإنّما هي عنفوان عاصف إذا ما تحوّلت إلى وجود إيمانيّ مستقرّ في القلب.

رابعاً: بالرغم من كون الإيمان يمثّل انسياقاً قلبيّاً، وعنفواناً عاصفاً بالقلب، إلّا أنّه اختياريّ النشأة، ولولا ذلك لما كانت الدعوة للإيمان منطقية، وحيث إنّه اختياريّ النشأة فعلى الإنسان أن يختار ما يؤمن به عن موضوعية وتحقيق وتدقيق، فالدعوة القرآنية: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ (البقرة: ١٣)، معناها: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٩١)، وهو ما جاء به النبي الخاتم صلّى الله عليه وآله؛ ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ (البقرة: ١٣٧)، أو: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، فإنّها دعوة اختيارية في الأصل.

فالقاعدة القرآنية الكُبرى هي: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وبالتالي فالداخل في الإسلام بالقسر والقوّة والاضطرار ليس بمؤمن؛ قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ

خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ٨٥)، أي: لا ينفعهم إيمانهم الذي اضطرّوا إليه نتيجة معاينة العذاب، لأنّه ليس إيماناً اختيارياً ولا ناشئاً عن رغبة، فلا واقعية له، فلابدّ من الاختيارية التأسيسية للإيمان الحقيقي؛ فهي التي تعطي المبرّر الواقعي للتمايز والتفاضل، ولو كان الإيمان اضطرارياً فلا المؤمن ممدوح على إيمانه ولا غير المؤمن مذموم على عدم إيمانه.

خامساً: قابلية الزيادة والنقصان، وهذا أمر راجع إلى طبيعة النوايا وتفاصيل الأعمال وأثرها في المجتمع، أمّا الزيادة فكما في قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾** (الفتح: ٤)، وهذه الآية صريحة في زيادة الإيمان، وهكذا الحال في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾** (الأنفال: ٢)، وأمّا النقصان فحاصل مع كلّ خطيئة يرتكبها الإنسان، فكما أنّ العمل الصالح يرتقي بالمراتب الإيمانية، والتوبة تعيد الإنسان إلى مرتبته السابقة، فإنّ الخطيئة سقوط عن المرتبة، والإصرار عليها سقوط إلى المراتب الأدنى حتى ينطفئ الإيمان، ويستقرّ به المقام في وادٍ سحيق، وبعبارة قرآنية: **﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾** (الحجّ: ٣١).

سادساً: حيث إنّ الإيمان قابل للإيجاد، وقابل للزيادة والنقصان، فإنّه سيكون قابلاً للزوال أيضاً، كما أشار لذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (آل عمران: ٨٦)، وزوال الإيمان مُفضٍ إلى زوال الأعمال، بمعنى: أنّ زواله محبط للأعمال؛ قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** (المائدة: ٥)،

زوالاً جذريّاً لا يُبقي ولا يذر؛ قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً**﴾ (الفرقان: ٢٣)، أي: لا يبقى له أثر.

سابعاً: إنّه لابدّ أن يكون مسبوقاً بالعلم والمعرفة، فالإيمان مع الجهل مجرّد وهم، وبأيّ شيء يكون الإيمان إذا لم يكون مسبوقاً بالمعرفة به؟ ولكنّ العلم والمعرفة لا يشترط فيهما أن يكونا تفصيليين، فالمعرفة الإجمالية يمكن أن تحقّق إيماناً مناسباً لها، وبقدر المعرفة يكون الإيمان، لا بمعنى أن تكون المعرفة الحصولية موجبة للإيمان وإنّما تكون مقتضية لذلك، ولذلك يمكن اجتماع المعرفة اليقينية مع الجحود، كما قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً...**﴾ (النمل: ١٤)، كما يمكن أن يجتمعا معاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ...**﴾ (الروم: ٥٦).

ثامناً: إنّ الإيمان كما يجب أن يكون مسبوقاً بالعلم والمعرفة، فإنّ الطمأنينة لابدّ لها أن تكون مسبوقة بالإيمان، كما أنّ الهدى لابدّ له أن يكون مسبوقاً بالإيمان، فلا طمأنينة ولا هُدى بلا إيمان؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وقال تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه: ٨٢)، فمن أراد الوصول إلى مقام الطمأنينة أو التلبّس بالهدى فلابدّ له من الإيمان، والإيمان المقتضي للطمأنينة وللهدى هو الإيمان الذي يمازج القلب، والقائم على القطع واليقين، أو قل: هو الإيمان المكتوب في القلب؛ قال تعالى: ﴿**كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾ (المجادلة: ٢٢)، وهو الإيمان الذي يُخالط اللحم والدم[1].

---

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: «لما قدم علي عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله بفتح خيبر، قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: ... **حسبك أن تكون منّي وأنا**

تاسعاً: مراتبيّة الإيمان تقتضي وجود مراتب عُليا ليس للإنسان دخل في تحقيقها؛ لأنّه غير عارف بموضوعاتها وتفاصيلها، فتجلّيات القدرة الإلهية والتجلّيات العلمية لله تعالى ليست رهناً بقدرات الإنسان واختياره، ولكنّ الإنسان قد يسلك طريقاً للخير يكون موجباً أو مقتضياً لفيض من تلك التجلّيات فيحصل الإيمان والارتقاء إلى تلك المرتبة، ولو بقي الإنسان ما بقي من دون حصول تلك التجلّيات فإنّه سوف يبقى قاصراً عن الوصول إلى تلك المراتب الإيمانية العُليا، بل لا يمكنه الالتفات لها.

وبذلك يتّضح: أنّ الإيمان في مراتبه الدنيا والمتوسّطة يعود في أصل النشأة إلى اختيارية الإنسان وإرادته، وأمّا في مراتبه العليا فإنّ الإنسان قاصر عن أصل التوجّه والالتفات؛ لعدم المعرفة المسبقة منه بذلك، وإنّما يكون تحقّق ذلك بواسطة مفاتيح العناية الإلهية الخاصّة، ومفاتيح الغيب المقترنة بأعمال لا نعرف على وجه الدقّة مصاديقها، وإنّما هي بمجموعها تندرج تحت مظلّة العلم النافع والعمل الصالح، فربّ صدقة يسيرة تكون سبب الارتقاء لتلك المراتب، وربما التصدّق بكلّ ما تملكه لا يرتقي بك مرتبة واحدة، ولذلك يبقى علينا الحرص على أداء الأفضل في التعاطي الإنساني، وأن لا نُحقّر العمل الصغير ولا نغترّ بالعمل الكبير، فإنّما هويّة العمل بنيّته، وقد جاء عن الرسول صلّى الله عليه وآله: «**إنّما الأعمال بالنيّات، ولكلّ امرئ ما نوى، فمن غزا ابتغاء**

منك، ترثني وأرثك، وإنّك منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي ... الإيمان مخالط لحمك ودمك كما خالط لحمي ودمي ...). أمالي الشيخ الصدوق، مصدر سابق: ص١٥٦ح ١؛ إقبال الأعمال، للسيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ: ج١ ص٥٠٧؛ المحتضر، للشيخ عزّ الدين أبي محمد الحسن بن سليمان الحلّي، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف ـ العراق، الطبعة الأولى، ١٣٧٠هـ: ص٩٦.

ما عند الله، فقد وقع أجرُه على الله، ومن غزا يُريد عرض الدنيا أو نوى عقالاً، لم يكن له إلّا ما نوى»[(١)].

مراتبية الإيمان

الرتب هو أصل مفهوم المراتب في اللغة، والرتب: ما أشرف من الأرض كالدَّرَج. تقول: رَتَبَةٌ ورَتَبٌ، كقولك دَرَجة ودَرَج، ويجمع على رتب. والمرتبة: المنزلة عند الملوك ونحوها. وترتّب فلان: أي علا رتبة، أي درجة[(٢)]، والرتبة والمرتبة: المنزلة، والمراتب في الجبل والصحاري، وهي الأعلام التي ترتّب فيها العيون والرقباء؛ فتقول: رتّبت الشيء ترتيباً[(٣)]، والمرتبة أيضاً: المنزلة الرفيعة، ومنها قيل للمراتب: المراتب؛ على زنة (مفاعل)، ومفردها مرتبة على زنة: (مفعلة)[(٤)]، وقد حُكي عن النبي صلّى الله عليه وآله أنّه قال: **«مَن مات على مرتبة من هذه المراتب بُعث عليها يوم القيامة»**[(٥)]، أي: من رباطٍ

---

(١) ورد الحديث بألفاظ تحمل معاني متقاربة. انظر: تهذيب الأحكام، مصدر سابق: ج١ ص٨٣ ح٦٧؛ ج٤ ص١٨٦ ح٢؛ أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٦١٨ ح١٠؛ صحيح البخاري، مصدر سابق: ج١ ص٢؛ سنن ابن ماجة، مصدر سابق؛ ج٢ ص١٤١٣ ح٤٢٢٧، باب النيّة؛ سنن أبي داود، مصدر سابق: ج١ ص٤٩٠ ح٢٢٠١.

(٢) انظر: كتاب العين، مصدر سابق: ج٨ ص١١٥؛ معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق: ج٢ ص٤٨٦، باب: (رتب).

(٣) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت: ٣٨٣هـ)، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور عطّار، نشر: دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ، الطبعة الرابعة: ج١ ص١٣٣؛ لسان العرب، مصدر سابق: ج١ ص٤٠٩ ـ ٤١١.

(٤) انظر: الفائق في غريب الحديث، جار الله محمود الزمخشري، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ: ج٢ ص١٥.

(٥) مسند أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٦ ص١٩؛ المستدرك على الصحيحين، مصدر

أو حجٍّ أو غير ذلك.

وعليه فالرتبة والمرتبة والمراتب لغوياً لُوحظ فيها معنى السُّلَّمية والارتقاء والعلوّ والمنزلة الرفيعة، فالدرج أو السلَّم أو السلالم فيها رتب ومراتب، وهو ما يُناسب المفهوم الكلّي المشكّك في مراتب مصاديقه، بخلاف الكُلّي المتواطئ[1].

والإيمان مقولة مراتبية تشكيكيّة، فهو منطقياً مفهوم مُشكّك وليس مفهوماً متواطئاً، وتشكيكيّته تعني الاختلاف بين مصاديقه من حيث الشدّة والضعف، فالإيمان ليس على درجة واحدة، بل لكلّ مؤمن درجته الإيمانية، وبالتالي ليس لأحد أن يحصر الإيمان بفئة دون أخرى، والفاقد لمرتبة إيمانية عالية لا يجعله فاقداً لمرتبته الأدنى التي تحفظ له عنوان الإيمان.

بعبارة أخرى: إنّ المراتب الإيمانية ارتقائية، وكلّ مرتبة إنّما تحفظ كمال الإيمان في حدودها ولا تسقط كمالات الإيمان في المراتب الدانية، كما أنّها لا تنال كمال المراتب الإيمانية الأعلى، وليس منطقياً أن نُلجئ الداني بمرتبة العالي، فالناس متفاوتون في القوّة والاستعداد، وقد ورد عن عبد العزيز القراطيسي أنّه قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**يا عبد العزيز! إنّ**

سابق: ج٢ ص١٤٤؛ المعجم الكبير، مصدر سابق: ج١٨ ص٣٠٥.

(١) ينقسم المفهوم الكلّي إلى متواطئ ومشكّك، والتواطي والتشكيك وصفان للمفهوم بلحاظ المصداق، وإلّا فالمفهوم بما هوهو لا يوصف بذلك، ويُراد بالتواطي: التوافق والتساوي بين مصاديق المفهوم، ويُراد بالتشكيك: التفاوت في الدرجات من حيث الشدّة والضعف، وعدم التساوي بينها في حدود مصاديق المفهوم الواحد. فالإنسانية مفهوم كلّي ينطبق على مصاديقه بنسبة ودرجة واحدة بلا تفاوت، فلا توجد أولويّة أو أشدّية أو أكثريّة لأحد على الآخر، بخلاف القوّة والضعف والقسوة والرقّة واللون والطول والعرض، وغير ذلك من المفاهيم المشكّكة. انظر: منطق المظفّر، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٥.

الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست علي شيء حتى ينتهي إلى العاشر، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ مَن كسر مؤمناً فعليه جبره»[1].

وعن سدير قال: قال لي أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّ المؤمنين على منازل، منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ستّ، ومنهم على سبع، فلو ذهبتَ تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقوَ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقوَ، وعلى صاحب الثلاث أربعاً لم يقوَ ... وعلى هذه الدرجات**»[2].

وعن الصباح بن سيابة، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قال: «**ما أنتم والبراءة، يبرأ بعضكم من بعض، إنّ المؤمنين بعضهم أفضل من بعض، وبعضهم أكثر صلاة من بعض، وبعضهم أنفذ بصراً من بعض، وهي الدرجات**»[3].

وهذه نسيبة الأنصارية (أمّ عمارة) رضوان الله عليها، التي ضربت أروع الصور وأبلغها في البطولة والتضحية والإيمان، حيث كانت تشارك في المعارك، وتضمد الجرحى، ورسول الله صلّى الله عليه وآله واقف ينظر إلى جهادها وفدائيّتها، ترى أولادها جرحى وصرعى ولا تبالي، تعالج ولدها ثمّ تحثّه على القتال، فيقول رسول الله صلّى الله عليه وآله بحقّها: «**ومَن يطيق ما تطيقين يا**

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٤٤ ح٢؛ الخصال، مصدر سابق: ص٤٤٧ ح٤٨؛ ص٤٤٨ ح٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٤٥ ح٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٢ ص٤٥ ح٤.

أمّ عمارة»[١]، للتدليل على بلوغها أرفع مراتب الصبر والإيمان، وغير ذلك من المواقف التاريخية التي ملأت صفحات التاريخ نوراً وإشراقاً[٢].

إنّ هذه المراتبية هي عينها منظورة في المستويات التي عليها المسلمون، لاسيّما وأنّهم في الأعمّ الأغلب خاضعون لتربية غير واحدة، ويتلقّون معلومات من منابع مختلفة، فكيف يكون يسيراً على شخص قضى نصف عمره في مساجد مدرسة أهل السنّة، وتلقّى من علومها، وتحمّس تحت منابرها، وزُقّ الولاء إثر الولاء لأشخاص كانت عليهم ملاحظات كثيرة، وهو لا يقبل إلّا من المورد الذي يطمئنّ له، فيتعبّد بصحيحي البخاري ومسلم وكتب السنن الأربع، ويتابع أبا حنيفة أو مالكاً أو الشافعي وابن حنبل، وتريد منه أن يترك ما عليه ليقيم معك في مدرستك التي تربّيت أنت عليها نصف عمرك أيضاً؟ ولماذا لا يكون العكس؟ فإنّه بالقدر الذي ترى نفسك فيه على الحقّ وأنّ الآخر على باطل هو يرى نفسه ويراك بالمنطق نفسه، ولا أحد منكما يريد مخالفة الحقّ والحقيقة، ولكنّك ترى الحقّ والحقيقة عندك دون سواك، وهو يرى الحقّ والحقيقة عنده دون سواه، مع أنّ المنطق القرآني لا يسلب من أحدكما الإيمان ولا يقصره على أحد منكما، لأنّ الإيمان مراتب، وكلّ واحد منكما مؤمن واقعاً، ولكن ضمن مرتبته، وهذا ما ينبغي أن نتعقّله ونعمل على أساسه، فليس لأحد وصاية على آخر، وليس لفئة صكّ غفران

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، نشر: دار صادر، بيروت: ج٨ ص٤١٤؛ شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١٤ ص٢٦٧؛ سير أعلام النبلاء، مصدر سابق: ج٢ ص٢٨٠؛ شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١٤ ص٢٦٧.

(٢) من قبيل المواقف البطولية والمشرّفة للسيدة خديجة الكُبرى عليها السلام مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، ومواقف السيدة زينب بنت أمير المؤمنين علي مع أخيها الإمام الحسين عليهم السلام في واقعة كربلاء.

دون أخـرى، وإنّـما المـشكلة الواقعيـة تكمـن في الأفـق الـضيّق، والتربيـات الخاطئة، والأفهام المحدودة التي دجّنت الدين وجعلته أضيق من خرم إبرة.

نعم، من حقّ صاحب كلّ مرتبة إيمانية وواجبه الأخلاقي أن يعمـل عـلى الارتقاء بمن هو أدنى منه، ما دام يعتقـد أنّ مرتبتـه الإيمانيـة أعـلى وأسـمى، وليس له أن يفرض مرتبته على الآخـرين، وإنّـما لـه أن يبـذل جهـده بـصدق وحبّ، فإن ارتقى الداني بنصحه كان بها، وإلّا فإنّـه يكـون قـد أدّى وظيفتـه، ولا غضاضة عليه، كما أنّ عـلى الآخـر أن يـمارس الـدور نفـسه مـا دام يـرى مرتبته الإيمانية أعلى وأسمى، وعلى كلّ واحد منهما أن يتعاطى مع الآخر عـلى أصل قرآنيّ، وهو حسن الظنّ بالآخر، فقد يعرض عليك مَن هو أدنـى مرتبـة منك في الإيمان عرضاً لما هو عليه؛ ظنّاً منه بأنّ مرتبته هي الأعـلى والأسـمى، وهنا لابدّ من التعاطي الإيجابي، بمعنـى الـسماع والإصـغاء وعـدم الـصدّ أو القدح، وإن سمعت منه ما لا يرضيك[1]، وإنّما لك أن تناقشه وترفض ما جاء به من دون مسّ بأحدٍ أو سوق الاتهامات غير المبرّرة.

فالشيعي يرى مرتبته الإيمانية أعلى من السنّي، فهو بحسب عقيدته متفوّق على غيره؛ لأنّه متمسّك بأهل البيت علـيهم الـسلام ومتـابع لهـم في العقيـدة والفقه والأخلاق، كما أنّ السنّي يرى مرتبته هـي الأفـضل؛ لأنّـه يـرى نفـسه متميّزاً بلزوم ومتابعة السلف الـصالح، مـن الـصحابة والتـابعين. فـإذا وجـد

---

(١) من القصص الرائعة التي تنفع في ذلك، ما روي عن عطـاء بـن أبي ربـاح القـرشي (ت: ١١٤هـ)، مفتى مكّة ومحدّثها، أنّه كان يقول: «إنّي لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلـم به منه، فأريه مـن نفـسي أنّي لا أحـسن منـه شـيئاً». وقـال أيـضاً: «إنّ الـشابّ ليتحـدّث بحديث، فأستمع له كأنّي لم أسمعه، ولقـد سـمعته قبـل أن يولـد». منيـة المريـد، مـصدر سابق: ص٢٥٧؛ الطبقات الكبرى، مصدر سابق: ج٥ ص٤٦٩؛ تهذيب الكمال، مـصدر سابق: ج٢٠ ص٨٣؛ سير أعلام النبلاء، مصدر سابق: ج٥ ص٨٦.

الشيعي نفسه مسؤولاً عن السنّي للارتقاء به إلى مرتبة التمسّك بأهل البيت عليهم السلام فإنّ على السنّي أن يعطيه حقّ السماع والإصغاء وحسن الظنّ به، كما له أن يرفض كلّ ما جاء به، وهكذا عندما يرى السنّي نفسه مسؤولاً عن الشيعي للارتقاء به إلى مرتبة الترضّي والتمسّك بالصحابة والتابعين، فإنّ على الشيعي أن يعطيه حقّ السماع والإصغاء وحسن الظنّ به، كما له أن يرفض كلّ ما جاء به، ورفض كلّ واحد منهما لما جاء به الآخر لابدّ أن يكون ملاحظاً فيه الموضوعية، بل حتى إن فقدت الموضوعية في الرفض فذلك ليس مسوّغاً لأيّ منهما للطعن بالآخر، ولقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يستقطب الناس للإسلام بخلقه الكريم، فكانوا يتأثّرون به ويستجيبون له.

ولا ينبغي أن يقع المزاح الزائد المشوب بالإساءات للرموز والقادة وإن كانت غير مقصودة؛ لأنّه في الغالب ينتهي إلى القطيعة وخلق حالة من سوء الظنّ، وبالرغم من كون هذا الأمر صعباً جداً، ومن الفريقين معاً، إلّا أنّه يمكن ممارسة الحدّ الأدنى منه ثمّ الارتقاء شيئاً فشيئاً، والتوفيق الإلهي رهن بالصدق والحرص المتبادل، ويكفي في العرض المتبادل أن نكون قد حقّقنا مساحة جديدة من التعارف، وقد حثّنا القرآن على ذلك، وترك لنا قاعدة عظيمة في التفاضل، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣)، فالتعارف، يعني التقارب وتبادل المعلومات والخبرات، حيث إنّ هذا مُفضٍ إلى التفاضل، فسنّ القرآن قاعدة التفاضل.

نماذج للمراتبية في القرآن والسنّة

وردت في القرآن عدّة نماذج للمراتبية، وفي موضوعات مختلفة، ومنها ما يتعلّق بموضوعة الإيمان، أمّا العامّة، فمن قبيل:

(١) العمل وفق الطاقة والوسع

قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً﴾ (البقرة: ٢٨٦)، والناس يختلفون في الوسع وفي الكسب وفي درجات النسيان والخطأ، وفي ذلك مراتبية واضحة، وقد تعاطى القرآن معها بموضوعية كبيرة، فلم يحمّل الإنسان فوق طاقته، وقد لُوحظت الطاقة والسعة حتى في التكاليف العامّة الموجّهة لجميع المخاطبين المكلّفين، فالحجّ لم يُفرض على الجميع، وإنّما فُرض على المستطيعين حصراً، والصوم ساقط عمّن يضرّ به؛ لمرضٍ أو لعجزٍ أو لشيخوخة.

(٢) الاختلاف بالجُهْد

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ (التوبة: ٧٩)، ومراتبية الجهد واضحة، فمنهم من كان يتصدّق بالكثير ومنهم من يتصدّق بالقليل، وكلّ بحسب قدرته ومكنته، وقد روي أنّ بعض الصحابة قد جاء بصرّة من دراهم تملأ الكفّ، وجاء آخر بصاع من تمر، وجاء آخر بأقلّ من ذلك، فقال بعض المنافقين: إنّ فلاناً رجل يحبّ الرياء ويبتغي الذكر بذلك، وإنّ الله غنيّ عن الصاع من التمر، فعابوا المكثر بالرياء، والمقلّ بالإقلال[١].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٢ ص١١٤؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٣ ص٨٨؛ تفسير القمّي، مصدر سابق: ج١ ص٣٠٢؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مصدر سابق: ج١٠ ص٢٤٧ ح١٣٢٢٠؛ التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٥ ص٢٦٦؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٥ ص٩٦.

(٣) مراتبية الاستعداد والكمال والقوّة

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، وقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ (الزخرف: ٣٢)، أي: لتطبيق قاعدة التسخير بين الناس. ومن الواضح أنّ الاختلاف في رفع الدرجات راجع إلى الاختلاف المسبق بالاستعداد ودرجات الكمال، وهذا الاختلاف بالاستعداد والدرجات ملحوظ في كلّ زمان ومكان، وبين جميع الطبقات.

(٤) مراتبية العلم والمعرفة

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، ومناط التفضيل هو الكمالات المعنوية الموقوفة على مراتب العلم والمعرفة.

ثمّ إنّ انقسام المعرفة إلى ظاهرة وباطنة يوضّح المراتبية أيضاً؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧)، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (النجم: ٣٠)، وفي كلّ قسم مراتب ومراتب، بحسب التزوّد والاستزادة. وبمقتضى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه: ١١٤) يتبيّن الاختلاف في مراتبية العلم والمعرفة.

(٥) مراتبية التفضيل في الرزق والعمل والأحوال في الدنيا

قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ

و روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد آجر نفسه على أن يستقي كلّ دلو بتمرة يختارها، فجمع تمراً، فأتى به النبي صلّى الله عليه وآله، فلمزه البعض، فنزلت الآية. (تفسير العياشي: ج٢ ص١٠١ ح٩٣، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسّسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، قم).

﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٢١)، أي أكبر درجات وأكبر تفضيلاً بالشكل والجسم والصحّة والمال والعلم والعمل؛ قال الشيخ الطوسي في تفسيره للآية: «بأن جعلنا بعضهم أغنياء، وبعضهم فقراء، وبعضهم موالي، وبعضهم عبيداً، وبعضهم أصحّاء وبعضهم مرضى، بحسب ما علمنا من مصالحهم»[1]، وهذا التفضيل لم يكن عن عبث أو قصور في الفيض فنال البعض دون الآخر، وإنّما لحكمة عظيمة تكمن في تحقيق التخادم بين الناس، فإنّ التفضيل لا يعني أنّ الفاضل هو متقدّم على المفضول في كلّ شيء، وأنّ المفضول متأخّر عن الفاضل في كلّ شيء، وإنّما هو التفاضل في شيء دون الآخر، أو في أشياء دون أشياء، وفي ذلك يتحقّق معنى التخادم أو التسخير، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ (الزخرف: ٣٢).

(٦) مراتبية الأجر والثواب في الآخرة

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٢)، أي: ولكلّ عامل في الطاعة أو في المعصية مراتب من عمله، يبلّغه الله إيّاها، ويجازيه عليها، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ (طه: ٧٥).

(٧) مراتبيّة المقامات المختلفة في خلقه

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (الصافّات: ١٦٤)، وهو وصف للملائكة بحسب اختلاف مواقعها ووظائفها، فهي ليست على مقام واحد، وقد عبّر القرآن عن هذا الاختلاف في المقامات بينها في آية أخرى عن طرق

(١) التبيان في التفسير القرآن، مصدر سابق: ج٦ ص٤٦٣.

التفريق بالأجنحة؛ قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ١). وبمقتضى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه: ١١٤) يتبيّن الاختلاف في المقامات المعنوية أيضاً؛ لأنّ العلم في الاصطلاح القرآني أعمّ من الحصولي، فيشمل الكشف والشهود والتعليم الإلهي المتوقّف على التقوى، وفي الكشف والتعليم الإلهي مراتب معنوية مختلفة، بحسب الاستعداد والتزوّد والاستزادة.

(٨) مراتبية أداء الأعمال بين الواجبات والمستحبّات

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢)، فمنهم ظالم لنفسه بفعل المعاصي، ومنهم مقتصد، وهو المؤدّي للواجبات المجتنب للمحرّمات، ومنهم سابق بالخيرات، أي: المسارع المجتهد في إتيان الأعمال الصالحة، والتي تشمل المستحبّات والمندوبات، وهذا التفاوت في الاستجابة والأداء واضح بين عامّة الناس، وربما لا يخلو منه إنسان، فارتكاب المعصية موجب لظلم النفس، والذنب يقع فيه الكثير من الناس، وهكذا الحال بالنسبة لأداء الواجبات والمستحبّات.

(٩) مراتبية القراءة في الصلاة

قال تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ١١٠)، وهو أحد معاني الوسطية بين الصوت الجهوري المرتفع وبين الصوت المنخفض غير المسموع، وفي ذيل الآية: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ دلالة واضحة على هذه المرتبة الوسطية المطلوبة في القراءة.

وأمّا مراتبية الإيمان فمن مواردها ومتعلّقاتها في القرآن الكريم، ما يلي:

١ . الصبر والمصابرة والمرابطة

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، والصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى مراتب إيمانية مختلفة، أو قل بأنّها الإفرازات الطبيعية لمراتب الإيمان.

الفرق بين: ﴿**اصْبِرُوا**﴾ وبين: ﴿**وَصَابِرُوا**﴾ هو أنّ الأوّل يكون صبراً على شيء أو عنه، كالصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، وكلاهما طاعة فيكون صبراً عليها، وأمّا المصابرة فتكون في مقابل شيء، وهو العدوّ والخصم، فتكون مواجهته وتحمّل المسؤولية في مقارعته وعدم الفرار منه هي المصابرة، وأمّا المرابطة فتكون مع الشيء، كالمرابطة مع القائد في جهاده، وقد وردت في ذلك بعض الأخبار القريبة من ذلك[1].

---

(١) عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في معنى الآية، قال: «**اصبروا على الفرائض، وصابروا على المصائب، ورابطوا على الأئمّة عليهم السلام**». الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٨١ ح٣؛ الاختصاص، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن النعمان العكبرى البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، رتّب فهارسه: السيد محمود الزرندي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة: ص١٤٢؛ تفسير العياشي، مصدر سابق: ج١ ص٢١٢ ح١٨٠.

وعن يعقوب السرّاج قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: تخلو الأرض من عالم منكم، حيّ ظاهر، يفزع الناس في حلالهم وحرامهم إليه؟ فقال: **لا يا أبا يوسف، وإنّ ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ، قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾، واصبروا على دينكم، وصابروا عدوّكم، ورابطوا إمامكم فيما أمركم وفرض عليكم**». بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفّار، تحقيق: ميرزا محسن باغي، الناشر: مؤسسة الأعلمي، طهران، ١٤١٤هـ: ص٥٠٧ ح١٦؛ مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلّي، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، الطبعة الأُولى، ١٩٥٠م: ص٨.

ولمّا كان الصبر والمصابرة والمرابطة على مراتب فإنّنا نجد الناس على اختلاف كبير في ذلك، بين الصابر والمتصبّر والصبور، والأوّل ملكة، والثاني حال، والثالث مقام ثابت لا يتزحزح عنه صاحبه، والصبر من الأسماء الحسنى، وقد سجّل لنا القرآن الكريم حادثة تدلّ على انفراط المراتب العليا من الصبر والمصابرة والمرابطة عن معظم المسلمين، وذلك في واقعة الأحزاب، حيث كان الابتلاء عظيماً؛ قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (الأحزاب: ١٠ ـ ١١)، والزلزال هو الاضطراب العظيم، فكيف إذا كان زلزالاً شديداً؟ فكانت هذه المعركة مفترق طرق(١)، ولولا ثبات الرسول صلّى الله عليه وآله وثلّة من المؤمنين معه لذهب الإسلام أدراج الرياح.

ويمكن القول أيضاً: إنّ الصبر يراد به: الصبر على الشدائد والصبر في طاعة الله والصبر عن معصيته، وهو الصبر من الفرد؛ بقرينة ما يقابله. والمصابرة: هي التصبّر وتحمّل الأذى جماعةً، باعتماد صبر البعض على صبر آخرين، فيتقوّى الحال، ويشتدّ الوصف، ويتضاعف تأثيره، وهذا أمر محسوس في تأثير الفرد إذا اعتبرت شخصيّته في حال الانفراد وفي حال الاجتماع والتعاون بإيصال القوى بعضها ببعض. وأمّا المرابطة: فهي أعمّ معنى من المصابرة، وهي إيجاد الجماعة الارتباط بين قواهم وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية، أعمّ من حال الشدّة وحال الرخاء، ولمّا كان المراد بذلك نيل حقيقة السعادة المقصودة للدنيا والآخرة، وإلّا فلا يتمّ بها إلّا بعض سعادة الدنيا وليست بحقيقة السعادة، ولذلك عقّب هذه الأوامر بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ يعني: الفلاح التامّ الحقيقي. انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٤ ص٩١.

(١) قال الشيخ الطبرسي في معنى الآية: «أي: حُرّكوا بالخوف تحريكاً شديداً، وأُزعجوا إزعاجاً عظيماً، وذلك أنّ الخائف يكون قلقاً مضطرباً، لا يستقرّ على مكانه». مجمع البيان في تفسير، مصدر سابق: ج٨ ص١٣٩.

٢. الصالحون وما دون ذلك

قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٨)، والصالحون هم الذين أظهروا الطاعة في القول والعمل، ولم تقع منهم المخالفة اختياراً، وأمّا ما دونهم فهم طبقات، منهم من كانت طاعته أعظم من معصيته، ومنهم من كانت طاعته مقاربة لمعصيته، ومنهم من كانت طاعته دون معصيته، وهذه مراتبية واضحة، بل حتى الصالحون لم يكونوا على طبقة واحدة، فهنالك من كان يقصد وجه الله تعالى لا غير، فلا يريد جزاءً ولا شكوراً، ومنهم من يريد ذلك ولو في الآخرة، ومنهم من يريد نعيم الآخرة، وهكذا، وعلى أيّ حال فهم ومَن دونهم على منازل ومراتب[1].

٣. الإخلاص والاستخلاص (المخلِصية والمخلَصية)

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة: ١٣٩)، و (المخلِصون) وصف لمرتبة إيمانية عالية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)، و (المخلَصون) وصف لمرتبة إيمانية أقوى وأشدّ من مرتبة المخلِصين.

٤. الزيادة في المراتب الإيمانية

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ

---

(١) قال الشيخ الطبرسي في معنى الآية: «أي: من هؤلاء: ﴿الصَّالِحُونَ﴾، يعني: من بني إسرائيل، وهم الذين يؤمنون بالله ورسله، ويطيعونه، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: دون الصالح في الدرجة والمنزلة، وهم الذين امتثلوا بعض الأوامر دون بعض، وعملوا بعض المعاصي». مجمع البيان في تفسير، مصدر سابق: ج٤ ص٣٨٥.

إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤)، وهذه الآية واضحة وصريحة في مراتبية الإيمان، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً**﴾ (الأنفال: ٢)، وحيث إنّ الإيمان هو العلم والمعرفة والعمل بمقتضاهما فإنّه مراتبيّ بالضرورة نظراً لمراتبية العلم والمعرفة، وقد قال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ (المجادلة: ١١).

وأمّا في السنّة الشريفة فقد تعرّضت عدّة روايات إلى مراتبية الإيمان:

منها: رواية أبي عمرو الزبيري، فإنّه قد سأل الإمام الصادق عليه السلام: «أيّها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: **ما لا يقبل الله شيئاً إلّا به**، قلت: وما هو؟ قال: **الإيمان بالله الذي لا إله إلّا هو، أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظّاً**، قال: قلت ألا تخبرني عن الإيمان، أَقولٌ هو وعمل أم قول بلا عمل؟ فقال: **الإيمان عملٌ كلّه والقول بعض ذلك العمل، بفرضٍ من الله بيّنٌ في كتابه، واضحٌ نوره، ثابتةٌ حجّته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه**، قال: قلت: صفه لي جُعلت فداك حتى أفهمه، قال : **الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التامّ المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه**، قلت: إنّ الإيمان ليتمّ وينقص ويزيد؟ قال: نعم ... قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه، فمن أين جاءت زيادته؟ فقال: **قول الله عزّ وجلّ**: ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٤ـ ١٢٥)، **وقال**: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً**﴾ (الكهف: ١٣)، **ولو كان كلّه واحداً، لا زيادة فيه ولا نقصان، لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر، ولاستوت النعم فيه، ولاستوى الناس وبطل**

التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرّطون النار» (١)، فيكون الإيمان مفهوماً تشكيكاً وليس متواطئاً، والتشكيكي يعني حقيقة ذات مراتب، كما هو الظاهر من قوله عليه السلام: «**الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل**».

قال المازندراني: «قوله: (**الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل**) إشارة إلى أنّ للإيمان مراتب متكثّرة، وهي حالات للإنسان باعتبار قيامها به، ودرجات باعتبار ترقّيه من بعضها إلى بعض، ومنه يظهر سرّ ما روي من: «**أنّ الإيمان بعضه من بعض**» (٢)، وطبقات باعتبار تفاوت مراتبها في نفسها وكون بعضها فوق بعض، ومنازل باعتبار أنّ الإنسان ينزل فيها ويأوي إليها، فمنه التامّ المنتهي تمامه كإيمان الأنبياء والأوصياء، ومنه الناقص البيّن نقصانه وهو أدنى المراتب، الذي دونه الكفر، ومنه الراجح الزائد رجحانه وهو على مراتب غير محصورة؛ باعتبار التفاوت في الكمّية والكيفية» (٣).

ومنها: ما جاء في خبر آخر عن أبي عمرو الزبيري، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قلت له: إنّ للإيمان درجات ومنازل، يتفاضل

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٣ ـ ٣٧ ح١؛ دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام، مصدر سابق: ج١ ص٤.

(٢) عن الحسن الصيقل، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **لا يقبل الله عملاً إلّا بمعرفة، ولا معرفة إلّا بعمل، ومن يعمل دلّته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، إنّما الإيمان بعضه من بعض**». المحاسن، مصدر سابق: ج١ ص١٩٨ ح٢٥؛ الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٤٤ ح٢؛ أمالي الشيخ الصدوق: ص٥٠٧ ح١٩.

(٣) شرح أصول الكافي للمازندراني، مصدر سابق ج٨ ص١٠٤.

المؤمنون فيها عند الله؟ قال: **نعم**، قلت: صفه لي رحمك الله حتى أفهمه، قال: **إنّ الله سبق بين المؤمنين كما يسبق بين الخيل يوم الرهان، ثمّ فضّلهم على درجاتهم في السبق إليه، فجعل كلّ امرئ منهم على درجة سبقه، لا ينقصه فيها من حقّه، ولا يتقدّم مسبوق سابقاً، ولا مفضول فاضلاً ...»**[(١)].

ومنها: عن الحسين بن الحكم قال: «كتبت إلى العبد الصالح ـ الإمام موسى الكاظم عليه السلام ـ أخبره أنّي شاكّ، وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وإنّي أحبّ أن تريني شيئاً، فكتب عليه السلام: **إنّ إبراهيم كان مؤمناً، وأحبّ أن يزداد إيماناً، وأنت شاكّ، والشاكّ لا خير فيه**»[(٢)].

وغير ذلك من الأخبار الدالّة على مراتبية الإيمان.

أقسام الإيمان الرئيسة في القرآن

القسم الأوّل: الإيمان العامّ

وهو على ثلاث مراتب:

١. مرتبة الإيمان بحدّه الأدنى

وهو الإيمان بالله تعالى بصفته إلهاً واحداً أحداً، خالقاً ورازقاً؛ قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً**﴾ (النساء: ١٧٥)، أي: إنّ التصديق بالله الواحد الأحد، والتمسّك بألوهيّته وحده، والامتناع من الشرك به، موجب لنيل الرحمة والهدى إلى الصراط المستقيم، والآية من ناحية المفهوم لا تقتضي أكثر من

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٤٠ ح١.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٣٩٩ ح١.

ذلك، ولم يتّضح الوجه فيما استفاده بعض المفسّرين من إدخال النبوّة والقرآن والإمامة ضمن مفاهيم الآية المقتصرة على التصديق بالله وتوحيده[(١)].

وقد ورد حديث قدسيّ يؤيّد هذه المرتبة الإيمانية، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**حدّثني حبيبي وقرّة عيني رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: حدّثني جبرائيل، قال: سمعت ربّ العزّة يقول: لا إله إلّا الله حصني، فمن قالها دخل حصني، ومَن دخل حصني أمِن مِن عذابي**»[(٢)].

٢. مرتبة الإيمان بحدّه الأوسط

وهو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر حصراً؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ (البقرة: ١٢٦)، فهؤلاء مؤمنون، بل استحقّوا الدعاء بالرزق

---

(١) قال الشيخ الطبرسي: «﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ**﴾، أي: صدّقوا بوحدانية الله، واعترفوا ببعث محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، ﴿**وَاعْتَصَمُواْ بِهِ**﴾، أي: تمسّكوا بالنور الذي أنزله على نبيّه، ﴿**فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ**﴾، أي: نعمة منه هي الجنّة؛ عن ابن عباس: ﴿**وَفَضْلٍ**﴾، يعني: ما يبسط لهم من الكرامة، وتضعيف الحسنات، وما يزاد لهم من النعم، على ما يستحقّونه، ﴿**وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً**﴾، أي: يوفّقهم لإصابة فضله الذي يتفضّل به على أوليائه، ويسدّدهم لسلوك منهج مَن أنعم عليه من أهل طاعته، واقتفاء آثارهم، والاهتداء بهديهم، والاستنان بسنّتهم، واتّباع دينهم، وهو الصراط المستقيم الذي ارتضاه الله منهجاً لعباده». مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٣ ص٢٥٢.

ومن الواضح أنّ هذا التفسير لم يعتمد على معطيات النصّ وحدها.

(٢) عيون أخبار الإمام الرضا (عليه السلام)، مصدر سابق: ج١ ص١٤٤ ح٢؛ أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٢٧٩ ح٧٤؛ مسند الشهاب، للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت: ٤٥٤هـ)، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ: ج٢ ص٣٢٣ ح١٤٥٠.

والثمرات من قبل إبراهيم عليه السلام، وهي مرتبة أعلى من مرتبة الإيمان بالله وحده، ففيها تتجلّى الثمرة العملية للإيمان بالله تعالى ووحدانيّته.

٣. مرتبة الإيمان بحدّه الأعلى

وهي مرتبة الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً؛ قال تعالى: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ (آل عمران: ١١٤)، وقال: ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ**﴾ (النساء: ٣٩).

القسم الثاني: الإيمان الخاصّ

وهو على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بالله تعالى ورسله بشكل عامّ

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ**﴾ (النساء: ١٥٢) وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾ (الحديد: ١٩)، وظاهر النصّين المدح والثناء الكبير لأصحاب هذه المرتبة الشريفة.

المرتبة الثانية: الإيمان بالله تعالى والنبيّ الخاتم صلّى الله عليه وآله

قال تعالى: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (الأعراف: ١٥٨)، والأكثر تصريحاً قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ (النور: ٦٢).

المرتبة الثالثة: الجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله والعمل الصالح

قوله تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾ (الحديد: ٧)، أيضاً قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ**

يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥)، وبالرغم من أنّ التصديق بالرسول صلّى الله عليه وآله يقتضي التصديق بالقرآن الكريم إلّا أنّه لم يقع التصريح بذلك، ولذلك فإنّ ضمّ الإيمان بالقرآن إمّا أن يكون شرطاً ضمنياً في هذه المرتبة، وإمّا أن يكون له مرتبة أخرى.

المرتبة الرابعة: الإيمان بالله تعالى والنبيّ الخاتم والقرآن الكريم

في صورة الاستقلال عن المرتبة الآنفة تنشأ عندنا مرتبة جديدة، وهي المرتبة الجامعة بين مناط المرتبة السابقة والإيمان بالقرآن الكريم؛ قال تعالى: **﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** (التغابن: ٨)، والنور هو القرآن الكريم؛ للقرينة السياقية، وهي كلمة (أَنزَلْنَا).

القسم الثالث: الإيمان الأخصّ

أمّا الإيمان الخاصّ فيضاف لما تقدَّم في القسمين السابقين خصوصية الاعتقاد بالإمامة، والمراد بها إمامة أهل البيت عليهم السلام، وهي على ثلاث مراتب:

١ . مرتبة الإيمان الأخصّ بحدّها الأدنى

وهي مرتبة الإيمان بأصل الإمامة، وأنّها منصب إلهيّ متفرّع على أصل النبوّة، ولا يكفي المفهوم العامّ فيها، فلابدّ لها من مصداق، وهو الاعتقاد بإمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأنّه الخليفة المنصوب من قبل الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله، والمفترض طاعته، ولا يُقدَّم عليه أحد، وقد يُستفاد ذلك من التوجيه القرآني في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾** (المائدة: ٥٥)، حيث ورد نزول الآية في أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد أن تصدّق بخاتمه وهو في حالة الركوع في صلاة مندوبة، ثمّ دعاء النبي صلّى الله عليه وآله له،

فنزلت الآية مباشرة بولايته عليه السلام المقرونة بولاية رسول الله صلّى الله عليه وآله وولاية الله سبحانه[1]، وفي هذه المرتبة تدخل جميع فرق الشيعة،

---

(١) روي خبر نزول الآية في أمير المؤمنين علي عليه السلام في مصادر كثيرة من الفريقين، منهم من نصّ عليه، ومنهم من ذكره ضمن الأقوال التفسيرية. انظر: الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٢٨٨ ح٣؛ ج١ ص٤٢٧ ح٧٧؛ الخصال، مصدر سابق: ص٤٧٨ ح٤٦؛ أمالي الشيخ الصدوق، مصدر سابق: ص١٨٦ ح٤؛ الإفصاح في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي البغدادي، نشر: مؤسسة البعثة، قسم الدراسات الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ: ص١٣٤؛ الاختصاص، مصدر سابق: ص١٤٢؛ أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٥٤٩؛ المعجم الأوسط، مصدر سابق: ج٦ ص٢١٨؛ جامع البيان، مصدر سابق: ج٦ ص٣٨٩؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٣ ص٢٥٢؛ الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق: ج٦ ص٢٢١؛ تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ: ج٢ ص٧٤؛ زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: الدكتور محمد عبد الرحمن عبد الله، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ: ج٢ ص٢٩٢؛ الدرّ المنثور، مصدر سابق: ج٢ ص٢٩٣؛ أحكام القرآن، للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصّاص (ت: ٣٧٠هـ)، ضبط نصّه وخرّج آياته: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ: ج٢ ص٥٥٧؛ المعيار والموازنة في فضائل الإمام علي بن أبي طالب، للشيخ محمد بن عبد الله الإسكافي المعتزلي، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي: ص٢٢٨؛ معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق وتعليق: الدكتور السيد معظم حسين سابق، منشورات دار الآفاق الحديثة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ: ص١٠٢؛ شرح نهج البلاغة،

لاسيّما الإمامية والزيدية والإسماعيلية، وأمّا المعتزلة فإنّهم قريبون من هذه المرتبة؛ لأنّهم يُقدّمون أمير المؤمنين علياً عليه السلام ويعتقدون بإمامته وأولويته، ولكنّهم مع ذلك من الصعب القول بصدق هذه المرتبة عليهم؛ لأنّهم يرون أنّ الإمامة والخلافة تكون بالشورى، وليست منصباً إلهيّاً، كما أنّهم يرون جواز تقديم المفضول على الفاضل، وغير ذلك من الفوارق.

٢. مرتبة الإيمان الأخصّ بحدّها المتوسط

وهي مرتبة الإيمان والتصديق بالإمامة، ومصداقها الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام ولكنّهم يختلفون في عددهم، أو يتوقّفون في بعضهم، أو يتوقّفون في ولادة الإمام الثاني عشر الحجّة بن الحسن عليهما السلام، وما قيل بحقّ أصحاب هذه المرتبة الإيمانية وأصحاب المرتبة السابقة عليها، من أنّهم ليسوا بمؤمنين، أو ليسوا من مدرسة أهل البيت، فذلك قول بعيد عن الإنصاف، ولا يُصغى إليه، فهم جميعاً مؤمنون، وبالمعنى الأخصّ، فهم شيعة ومن مدرسة أهل البيت، ولكنّهم يتفاوتون في المرتبة الإيمانية، وفوقهما مرتبة.

٣. مرتبة الإيمان الأخصّ بحدّها الأعلى

وهي مرتبة الإيمان والتصديق بالإمامة الإلهية، وأنّها صادقة على الأئمّة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام حصراً، وكأنّهم جميعاً إمام واحد،

مصدر سابق: ج١٣ ص٢٧٦؛ نظم درر السمطين، جمال الدين محمد بن يوسف الزرندي الحنفي، المطبعة (من مخطوطات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامّة)، ١٩٥٨م، النجف الأشرف: ص٨٧؛ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، للحافظ عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني الحنفي النيسابوري، تحقيق وتعليق: الشيخ محمد باقر المحمودي، نشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية التابع لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، الطبعة الأُولى، ١٤١١هـ: ج١ ص٢٣٠.

عند مدرسة أهل البيت، فلا يكفي الاعتقاد ببعضهم دون بعض[1]؛ لأنَّ الاعتقاد بهم ـ عند مدرسة أهل البيت ـ مأخوذ على نحو العموم المجموعي، الذي يكون فيه المجموع موضوعاً واحداً[2]، مضى منهم أحد عشر إماماً، وبقي منهم الإمام الخاتم المهدي المنتظر الحجّة بن الحسن عليه السلام، وهو حيّ يُرزق، فإنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله تعالى في خلقه، سيظهر في آخر الزمان ليقيم دولة العدل الإلهية، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

وقد ورد ما يُؤكِّد هذه العقيدة في جواب للإمام الصادق عليه السلام لعجلان بن أبي صالح، حيث عرَّفه بالإيمان في مدرسة أهل البيت الاثني عشرية بقوله: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وصلاة الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، وولاية وليّنا، وعداوة عدّونا، والدخول مع الصادقين**»[3].

المقاربة بين مرتبة الإيمان العامّ ومرتبة الإيمان الخاصّ

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (البقرة: ٦٢)، فقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ يريد أصحاب الإيمان الخاصّ، وهم المسلمون حصراً، الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله صلّى

(١) تقدّم بيانهم في مطلع بحث (الوسطية في التشيّع).

(٢) العموم المجموعي هو: (أن يكون الحكم ثابتاً للمجموع بما هو مجموع، فيكون المجموع موضوعاً واحداً، كوجوب الإيمان بالأئمّة، فلا يتحقّق الامتثال إلّا بالإيمان بالجميع). أُصول الفقه، للشيخ محمد رضا المظفر، نشر: مركز انتشارات التبليغ الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠ م: ج١ ص١٢٥، الباب الخامس: العامّ والخاصّ.

(٣) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٨ ح٢، كتاب الإيمان والكفر.

الله عليه وآلـه وبـالقرآن الكـريم وعملـوا صـالحاً، وهـؤلاء يقـرنهم القـرآن بأصحاب الإيمان العامّ من أهل الكتاب، فيشرط عليهم جميعاً شرطـاً مركّبـاً، وهو المستفاد من قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾، ليعِـدَهم بما أُعدّ لهم جميعاً من الأجر والثواب: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وبذلك يقدّم لنا القرآن مقاربة بين أصحاب الإيـمان الخاصّ وأصحاب الإيمان العامّ.

بعبارة أخرى: إنّ هؤلاء جميعاً يسمّيهم القرآن الكريم بـالمؤمنين، وكـأنّهم على مستوى واحد، إذا ما تحقّـق الإيـمان مـنهم بـالله واليـوم الآخـر وعملـوا صالحاً، حيث لهم جميعاً أجرهم، وهو الجنّة، ولا خوف عليهم مـن النـار، ولا يحزنون على ما سيأتيهم من خير وبركة، قد أكّـد القـرآن الكـريم هـذا المعنـى الجليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة: ٦٩)، والكلام هو الكلام، وبالتالي فليس لأحد أن يسلب الإيمان عن أحد يؤمن بالله تعالى وباليوم الآخر وقد عمل صالحاً، فذلك السلب لا يعـدو عن كونه اجتهاداً في مقابل نصّ، إذن فهؤلاء جميعاً مؤمنون بالإيمان العامّ، بل وبحسب المقاربة هم مؤمنون بالإيمان الخاصّ، لاسيّما وأنّ هـؤلاء جميعـاً مـن أهل الكتاب، قد جمعوا إلى جنب الإيمان بـالله تعـالى واليـوم الآخـر والعمـل الصالح شيئاً آخر اشترطناه في الإيمان بالمعنى الخاصّ، وهو الإيمان بالرسـالة، فكلّ فريق منهم يؤمن برسول مبعوث لهم، وأمّا مـا وقـع مـنهم مـن غلـوّ في بعض أنبيائهم فرفعوهم إلى مقام فوق مقامهم المعلوم فذلك يحاسـبون عليـه، ولا تسقط مرتبتهم الإيمانية، ما دام التوحيد محفوظاً، فإن سقط التوحيد سقط كلّ شيء، كما هو حال الفاسق المرتكب لكبيرة شرعية، فـإنّ فـسقه لا يخرجـه عن ربقة الإسلام.

لوازم مراتبية الإيمان

لمراتبية الإيمان لوازم ينبغي الالتزام بها، وإلّا وقعنا بين فكّي التضليل والتكفير، وغير ذلك من أساليب الإقصاء، ومن تلك اللوازم:

١. الإقرار بإيمان المراتب الأخرى، فلا توصف أطرافها بغير الإيمان.

٢. التعاطي الإيجابي المنطلق من واقعية الإيمان المحرز، كما هو الحال في اختلاف المراتب العلمية، فإنّها لا تنفي التعاطي الإيجابي المتبادل، والقائم على الاحترام والتقدير المتبادل، بل وبنحوٍ من الحبّ والمودّة المتبادلة.

٣. ضرورة تبادل الحرص على المصالح المشتركة بين أطراف المراتب الإيمانية المتفاوتة، ومنه الحرص على الارتقاء بالآخر، مع مراعاة اللين والرفق، كما قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إذا رأيت مَن هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ مَن كسر مؤمناً فعليه جبره**»[١]، فإنّه متى ما شاع بيننا الحرص على الارتقاء بالآخر فإنّنا سنجد أنفسنا متقاربين ومتكاتفين، وما كان لله ينمو.

٤. لابدّ من تأسيس جهة رقابية إسلامية أو دولية تحاسب كلّ جهة متطرّفة تسلب الإيمان عن أيّ جهة مؤمنة وتحصر الإيمان بها، أو تسلب الإسلام عن أيّ فئة مسلمة، فإنّ ذلك من التعدّي الصريح، الذي يجب أن يُردَع، ومن الردع إسكات هذه الأصوات المفرّقة، بل إسقاط هويّة الإسلام عمّن يعمل على سلب هويّة الإسلام عن الفئات المسلمة، وقد ورد في خبر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**المسلم من سلِم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»[٢]، فإنّ الإسلام العظيم قد اكتفى

---

(١) أصول الكافي: ج٢ ص٤٤ ح٢؛ الخصال: ص٤٤٧ ح٤٨؛ ص٤٤٨ ح٤٩.

(٢) مسند أحمد، مصدر سابق: ج٢ ص٣٧٩؛ السنن الكبرى، مصدر سابق: ج٦ ص٥٣٠

من أهل الكتاب (وهم: اليهود والنصارى والصابئة) ـ وبنصّ القرآن ـ بالإيمان بالله تعالى وحده وتوحيده، وجعلها الكلمة السواء، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)، فتكون كلمة التوحيد جامعة، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لا يعني أنّهم قد تولّوا بالفعل، وإنّما المراد من ذلك: أنّ مَن تولّى منهم فهو خارج عن حريم الإيمان، ومن لم يتولّ منهم فهو مؤمن، بل ومسلم؛ بحسب القرينة السياقية الواردة في ذيل الآية.

وعليه فهل من المنطق والدين أن يأتي من يُزايد على القرآن الكريم في رسم المراتب الإيمانية؟ أَوَ ليس القرآن هو كما وصف نفسه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ...﴾ (الإسراء: ١٠٥)؟ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢)؟ فكيف يتسنّى لنا بعد ذلك الخروج عن حاكمية القرآن وتشريعاته؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥).

٥. ينبغي إعادة النظر في معظم المناهج الدينية التدريسية، التي تدرّس في جميع المراحل الدراسية، الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية، فضلاً عن الدراسات الدينية التقليدية، لاسيّما في الفصول والمواضع التي تثير الفتن، وتعمّق المحن، وتصلي الواقع بنيران الطائفية والفرقة والتمزّق، ومن هنا تبرز المسؤولية الكبرى لعلماء الأمّة وحكمائها، فلا يسمحون بارتفاع الأصوات الدموية، ولا بانتشار الأفكار التخريبية، والبؤر السرطانية، بل لابدّ من محاصرتها وإطفاء نيرانها الفتنوية وهي في مهدها، وكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول

ح١١٧٢٦. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**المسلم من سلِم الناس من يده ولسانه، والمؤمن من ائتمنه الناس على أموالهم وأنفسهم**». معاني الأخبار، مصدر سابق: ص٢٣٩ ح١.

عن رعيّته، ومتى ما حوصرت الأصوات الفتنوية والأفكار الظلماوية فإنّ شمس الأمن والأمان لن تغيب أبداً.

دعوة أصحاب الإيمان العامّ إلى الإيمان الخاصّ

ثمّ جاء الخطاب لأصحاب الإيمان العامّ بالدعوة للإيمان الخاصّ المتمثّل بالرسالة المحمدية؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**﴾ (النساء: ١٣٦)، فقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، يعني: أهل الكتاب وأصحاب الديانات السماوية، فهم مؤمنون، ولكنّهم في مرتبة دانية، وقد جاء الإسلام المحمدي والدين الخاتم للارتقاء بالإنسان والخروج به من مطلق الظلمات، وهنا جاءت هذه الآية تدعوهم إلى الإيمان بالله والرسول والقرآن: ﴿**... آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ**﴾.

وهنا لابدّ أن تكون دعوتهم وفقاً للقاعدة القرآنية: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: ١٢٥)، فإن وقع القبول كان بها، وإلّا غضضنا الطرف، ونكون قد أدّينا تكليفنا تجاههم؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ (يس: ١٧)، ولذلك فإنّه ليس لأحد أن يُنصّب نفسه حكماً على أمّة الإنسان فيلزمهم بشيء هم له كارهون، فإيمانهم بالإسلام المحمدي لهم فيه خير الدنيا والآخرة، ولكنّهم ليسوا مجبروين عليه؛ قال تعالى: ﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ**﴾ (آل عمران: ١١٠)، حيث تدعوهم للإيمان بالإسلام من دون أن تنفي عنهم مرتبتهم الإيمانية التي هم عليها.

وهكذا تعرّفنا الآية نفسها بهذه الحقيقة، مع الكشف عن الواقع الخارجي

لأهل الكتاب آنذاك، فإنّهم: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)، فلم تنفِ عنهم أصل الإيمان، وهي المرتبة التي هم عليها، ولكنّ أكثرهم غير ملتزمين بأحكام الشريعة، كما أنّ هنالك منهم من المصدّقين وهم باقون على ديانتهم، وفي هذا كشف قرآنيّ دقيق عن كون أهل الكتاب إذا ما آمن منهم أحد وصدّق بالنبوّة الخاتمة فليس عليه أن يترك دينه، وهو مأجور على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٩)، فيكون من قبيل المسلم المؤمن بالنبوّة الخاتمة وبالنبوّات السابقة، فإنّه لا يجد نفسه ملزماً باتّباع النبوّات السابقة، وإنّما يكفيه الإيمان بنبوّتهم وبما جاؤوا به، وليس هنالك خلاف بين أعلام المسلمين على ذلك، فيكون المؤمن من أهل الكتاب بالنبوّة الخاتمة مصدّقاً بنبوّة النبي محمد صلّى الله عليه وآله، ولا يجد نفسه مضطرّاً للمتابعة، فمثل هذا المؤمن بنبوّة النبي الخاتم صلّى الله عليه وآله مأجور على إيمانه، وأمّا اتّباعه فهو بحسب عقيدته مرهون بتعاليم نبيّه، فيجمع بين إيمانه بنبوّة نبيّه ولزوم متابعته وبين إيمانه بنبوّة النبيّ الخاتم صلّى الله عليه وآله، ولعلّ مثل هؤلاء لم يفهموا من النبوّة الخاتمة لزوم المتابعة، وإنّما يكفيهم في ذلك التصديق بها وعدم التكذيب، ولا ريب أنّ مثل هؤلاء مؤمنون ومأجورون، كما هو الظاهر من الآية.

وأمّا ما قيل من نزول الآية الآنفة الذكر بالنجاشي ملك الحبشة فإنّه ـ على فرض صحّته ـ لا يخصّص الوارد، كما لا معنى لتخصيصها بأهل الكتاب الذين أسلموا، فالذين آمنوا منهم بالإسلام لم يعودوا من أهل الكتاب، وإنّما صاروا مسلمين فلا معنى لتسميتهم بأهل الكتاب، ولو كان الذين أسلموا

منهم هم المعنيّين بالآية فإنّ المشركين الذين أسلموا أفضل حالاً منهم، فأهل الكتاب عارفون بالتوحيد والنبوّة والمعاد، والذين أسلموا منهم قد انتقلوا من مرتبة إيمانية إلى أخرى أفضل وأشرف، وأمّا المشركون فهم وثنيّون، وقد انتقلوا من الكفر إلى الإيمان، فلابدّ أن يكونوا أهلاً للمدح أكثر من أولئك، إلّا إذا قلنا بأنّ الآية ليست بصدد المسلمين، وإنّما بصدد غير المكذّبين برسالة الإسلام من أهل الكتاب، فجاءت لتمدحهم وتثني عليهم.

قال العلامة الطباطبائي في بيانه للآية الكريمة: «المراد أنّهم مشاركون للمؤمنين في حسن الثواب، والغرض منه أنّ السعادة الأخروية ليست جنسية حتى يُمنع منها أهل الكتاب وإن آمنوا، بل الأمر دائر مدار الإيمان بالله وبرسُله، فلو آمنوا كانوا هم والمؤمنون سواء، وقد نفى عن هؤلاء الممدوحين من أهل الكتاب ما ذمّهم الله به في سوابق الآيات، وهو التفريق بين رسُل الله وكتمان ما أخذ ميثاقهم لبيانه اشتراءً بآيات الله ثمناً قليلاً»[1].

شبهة الأعراب ومرتبتهم الإيمانية

كلمة (أعرابي) مفردٌ جمعه أعراب، وهي غير كلمة (عربي) التي جمعها (عرب)، والنسبة بينهما عموم وخصوص من وجه؛ فالأعرابية اصطلاح قرآنيّ لا يعني أُمّةً بعينها، وإنّما هو يكشف عن نسق فكريّ مُتخلّف ينطبق على من توفَّرت فيه قيمها، وإن كان المصداق الخارجي البارز هم أبناء الصحراء لغلبة صفات البداوة عليهم، من قسوة وجفاء، فتنطبق على كلّ من لا يعبأ بالدين والتزاماته، سواء كان ذلك الأعرابي عربياً أو أعجمياً.

فالأعراب كاصطلاح يراد بهم الذين يعيشون في البوادي ولا يختلطون

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٤ ص٨٩.

كثيراً بالمدن والحواضر المدنية والعلمية، ومنهم الكافرون الذين لا يرعون حدود الله، ولا يبالون بها إذا ما علموا بها؛ قال تعالى: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (التوبة٩٧)، وذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وبُعدهم عن العلم والعلماء، ومجالس الوعظ والذكر، فهم لذلك أحقّ بأن لا يعلموا حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام، والله عليم بحال هؤلاء جميعاً، حكيم في تدبيره لأمور عباده.

ومنهم مسلمون كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٤)، ومنهم مؤمنون؛ قال تعالى: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ...**﴾ (التوبة: ٩٩).

جدير بالذكر: أنّ ما جاء في آية (الحجرات: ١٤) لا يعني الفصل بين الإسلام والإيمان بالمعنى الذي نلتزم به، فإنَّ الآية الكريمة تنكر على الأعراب دعوى تحقّق الإيمان في قلوبهم، وأنَّ ما هم عليه من صورة الإيمان في إعلانهم للتوحيد والاعتقاد بالنبوّة فإنّه لم يتعدَّ الصورة الذهنية، ولم يرتقِ إلى الاعتقاد القلبي، وما يذكره بعض أعلام مدرسة أهل البيت من التفريق بين الإسلام (وهو الإيمان بالتوحيد والنبوّة والمعاد) وبين الإيمان (وهو الإيمان بالعدل والإمامة) لا ينطبق على مؤدَّى الآية، لأنّهم لا ينكرون تحقّق الإيمان الفعلي والاعتقاد القلبي لسائر المسلمين بالتوحيد والنبوّة والمعاد، وإنّما ينكرون عليهم عدم إيمانهم بالعدل والإمامة، في حين أنَّ الآية تنصّ على عدم تحقّق الإيمان والاعتقاد القلبي بأركان العقيدة (التوحيد والنبوّة والمعاد)، ولذلك يصحّ ما نراه من كون سائر المسلمين مؤمنين، ولكن ليسوا برتبة أعلائية، وأنَّ أتباع

مدرسة أهل البيت مؤمنون برتبة أعلائية؛ فالتمايز بينهما رتبيّ لا أنّه تمايز بالإسلام والإيمان كما قد يفهم البعض، وعليه فلا مجال للإخراج والإدخال في حضيرة الإيمان إلّا في ضوء أركان الأُصول الثلاثة، التي تمثّل أُصول الإيمان.

وهذا ما أكّده جملة من أعلام الإمامية، منهم العلّامة محمد حسين كاشف الغطاء، حيث قال: «فمن اعتقد بالإمامة بالمعنى الذي ذكرناه ـ أي: بحسب المفهوم الشيعي ـ فهو عندهم مؤمن بالمعنى الأخصّ، وإذا اقتصر على تلك الأركان الأربعة ـ أي: التوحيد والنبوّة والمعاد والعمل بالدعائم التي بُني عليها الإسلام، وهي: الصلاة والصوم والزكاة والحجّ والجهاد ـ فهو مسلم ومؤمن بالمعنى الأعمّ، تترتّب عليه جميع أحكام الإسلام، من حرمة دمه، وماله، وعرضه، ووجوب حفظه، وحرمة غيبته، وغير ذلك، لا أنّه بعدم الاعتقاد بالإمامة يخرج عن كونه مسلماً (معاذ الله).

نعم، يظهر أثر التديّن بالإمامة في منازل القرب والكرامة يوم القيامة، أمّا في الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء، وبعضهم لبعض أكفاء، وأمّا في الآخرة فلا شكّ أن تتفاوت درجاتهم ومنازلهم حسب نيّاتهم وأعمالهم، وأمر ذلك وعلمه إلى الله سبحانه، ولا مساغ للبتّ به لأحد من الخلق»[١].

بعبارة أخرى: إنَّ الأُصول الملحقة ـ العدل والإمامة ـ لو كانت من أُصول الدين وأركانه أو من الأُصول الإيمانية للزم أن يكون سائر الصحابة الأوائل الذين جاهدوا ونافحوا عن بيضة الإسلام واستشهدوا بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله ليسوا من المؤمنين لأنّهم ـ بحسب الظاهر ـ قد انحصر إيمانهم بأركان الأُصول الثلاثة، مع أنّهم ـ رضوان الله عليهم ـ لاشكَّ

---

(١) أصل الشيعة وأصولها، للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسسة الإمام علي عليه السلام، قم المقدَّسة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ: ص٢١٣.

في إيمانهم وعظيم منزلتهم وحُسن عاقبتهم[١].

ولذلك نجد الشيخ الأعظم الأنصاري يُعلّق على شطر من الخبر المرويّ عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**... ثمّ بعث الله محمداً صلّى الله عليه وآله وهو بمكّة عشر سنين، فلم يمت بمكّة في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنّ محمداً صلّى الله عليه وآله رسول الله إلّا أدخله الله الجنّة؛ بإقراره، وهو إيمان التصديق**»[٢]، قائلاً: «فإنَّ الظاهر أنَّ حقيقة الإيمان التي يخرج الإنسان بها عن حدِّ الكفر الموجب للخلود في النار، لم تتغيّر بعد انتشار الشريعة»[٣].

الإيمان مقيّد بوصول الدليل

قال تعالى: ﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ (الإسراء: ١٥)، وفي هذه الآية مطالب جمّة، منها ما يتعلّق بحريّة الفكر والعقيدة: ﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾، ومنها ما يتعلّق بالعدالة الإلهية والوسطية وتحمّل المسؤولية: ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾، ومنها ما يتعلّق بوصول الدليل والحجّة، وهو ما جاء في ذيل الآية: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾، وهذا ما سيتضح في هذه السطور الأخيرة من بحثنا في مراتب الإيمان.

لقد تعرّض أعلام الفريقين، من الفقهاء والأصوليين والمفسّرين والمتكلّمين

---

(١) فقه العقيدة (بحوث في أصول الإيمان وفروعه)، مصدر سابق: ٩٥.

(٢) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٨ ح١.

(٣) فرائد الأصول، للشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري (ت: ١٢٨١هـ)، إعداد: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، نشر: مجمع الفكر الإسلامي، قم، ١٤١٩هـ: ج١ ص٥٦١.

إلى هذه الآية الكريمة، وانتهوا فيها إلى نتيجة متقاربة، مفادها: أنّ المراد من كلمة: (**رَسُولاً**) هو الدليل والحجّة، أي: حتى نبعث دليلاً وحجّة، وبالتالي فإنّ من مقتضيات العدل الإلهي أنّ الثواب والعقاب قائمان على أصل العقيدة، في التوحيد وفرعيه (النبوّة والمعاد)، وهذه العقائد لا تعبّد فيها، بمعنى: أنّه لابدّ من قيام الدليل القطعي للإنسان ليتحقّق انعقاد القلب والتصديق، فالإيمان كما عرفنا هو الإذعان إلى الحقّ والتصديق به، وقد قلنا بأنّه من أفعال القلوب المؤثّرة في الجوارح والسلوك، وهذا الفعل القلبي وترتّب أثره على السلوك لا ينشأ من الجهل أو الشكّ أو الدليل الضعيف.

وعليه فكلّ من لم يبلغه الدليل القطعي، العقلي أو النقلي، على التوحيد والنبوّة والمعاد، فضلاً عن أيّ عقيدة فرعية أخرى، من عدل وإمامة وعصمة، وما شابه، فهو غير مؤاخذ على ذلك، بمعنى أنّه معذور؛ نظراً لعدم قيام الدليل، وقد ذهب مشهور الأصوليين ـ علماء أصول الفقه ـ إلى القاعدة العقلية والعقلائية في تنجّز الأحكام، وهي: قبح العقاب بلا بيان، ولازمها أيضاً: حسن العقاب مع البيان، وقد أجمعوا على كون المراد من (البيان) هو الدليل القطعي وليس الظنّي، فضلاً عن الشكّ وما شابه.

وما دام الأمر كذلك فلا يبقى معنى لتوجيه الاتهام إلى من لم يصله الدليل بأنواع التهم وإخراجه من الإيمان، فما ذلك إلّا من قصور الفهم، أو قل: من قلّة التفقّه في الدين.

علاقة المراتب الإيمانية بالعلم والعمل

إنّ نشأة كلّ مرتبة إيمانية مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالسعة الوجودية للعلم وقوّة تأثيره، كما أنّ الحفاظ على هذه المرتبة وتنميتها مقرون هو الآخر بالعمل الصالح، ولذلك حرص القرآن الكريم كثيراً على التعريف بثنائية الإيمان

والعمل الصالح؛ لأنّ العمل الصالح مُفضٍ إلى أمرين مهمّين، الأوّل: حفظ مرتبة الإيمان وعدم الدخول في الزيغ، والثاني: تنمية هذه المرتبة الإيمانية وجعلها موجبة للارتقاء بصاحبها إلى المرتبة الإيمانية الأعلى من مرتبته، فإنّ ما كان لله تعالى ينمو، وحاشا لله تعالى أن يخذل عبداً طالباً لأشرف المراتب الإيمانية وهو مؤدٍّ للعمل الصالح، كما أنّ العمل الطالح هو الآخر سوف يقوم بأمرين معاكسين للعمل الصالح، وهما:

الأوّل: ظهور الزيغ والتشكيك في مرتبته الإيمانية.

الثاني: ضياع فرصة تنمية مرتبته الإيمانية التي كان عليها.

من هنا نخرج بنتيجة غاية في الأهمّية، وهي ضرورة الحرص على تنمية العلم، وعلى مواكبة العمل الصالح، فهما الجناحان النورانيان اللذان يطير بها المؤمن إلى المراتب الإيمانية الأعلى والأشرف.

نظم علاقات الإنسان

- مدخل
- انعكاس الوسطية القرآنية في نظم علاقات الإنسان
- إجمال التنوّع في علاقات الإنسان وارتباطه بالقرآن
- نظم علاقتنا مع أنفسنا
- نظم العلاقة مع الله سبحانه
- نظم العلاقة مع الرسول صلّى الله عليه وآله
- نظم العلاقة مع أهل البيت عليهم السلام
- نظم علاقتنا مع أهل العلم والفضل والقيادة الدينية
- نظم العلاقة بين الآباء والأبناء
- نظم العلاقة مع سائر المؤمنين
- نظم العلاقة مع الناس أجمعين
- تذييل

مدخل

التنوّع في علاقات الإنسان، ينطلق من علاقتنا بأنفسنا ثمّ يدور بين الخالق سبحانه وبين المخلوق الجامع لعلاقات كثيرة تدور بين علاقة الإنسان بالقدوات والقادة والرعيّة، والقدوات والقادة تتمثّل بالرسالة والإمامة وورثتهما من أهل العلم والفضل ومراجع الدين، والآباء وسائر القدوات الحسنة، وأمّا الرعيّة فتتمثّل بالأبناء وسائر المؤمنين والناس أجمعين.

هذا التنوّع في العلاقات يمثّل خلاصة الحركة الدينية والعلمية والأخلاقية والاجتماعية للإنسان، حيث صناعة الإنسان وبناء حاضره ومستقبله.

ولو دقّقنا النظر في أبحاث دور القرآن في حياة الإنسان، وأبحاث الوسطية القرآنية، وأبحاث مراتب الإيمان، سنجدها جميعاً مشيرة إلى صناعة هذه العلاقات الطولية التي لا ينفكّ عنها الإنسان، بل لا معنى لوجود الإنسان من دونها، ولذلك فإنّها تطلب نظمها طلباً حثيثاً؛ لأنّها وحدها تصنع صورة الحاضر وصورة المستقبل، ولا نعني بالمستقبل خصوص ما يعيشه الإنسان في قابل أيامه في الدنيا، وإنّما هو الأعمّ من دنياه وأخراه، فيكون الإنسان ملتفتاً وعاملاً بمقتضى السير الكمالي القائم بالمنطلق والدور والمنتهى، أي: من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟ فيحصل له التوازن المعرفي والمعنوي، والذي به تتحقّق إنارة القلب بحقيقة الإيمان، ويتحقّق بحقيقة كمال الانقطاع إلى الله تعالى، فينتقل من عالم الغفلة إلى عالم اليقظة.

انعكاس الوسطية القرآنية في نظم علاقات الإنسان

إنّ جميع ما سنقف عليه من مفردات علاقات الإنسان ونظمها إنّما يمثّل الانعكاس الواقعي للرؤية العملية للوسطية القرآنية، بمعنى: أنّ كلّ علاقة

من العلاقات الثماني المزمع بحثها في المقام إنّما هي الصورة العملية لتلك الوسطية، كما أنّها تحكي لنا قوّة أو ضعف حضور تلك الوسطية، ولذلك فليس من الصحيح فصل علاقات الإنسان عن منظومة الوسطية القرآنية؛ لأنّ الهدف السامي الذي نطلب تحقيقه هو الخروج من أتون التطرّف، والتنصّل عن دائرتي الإفراط والتفريط، في جميع علاقاتنا، ولا ضمانة لنا في تحقيق ذلك غير التمسّك بالوسطية القرآنية، بل والتمسّك برؤية القرآن الشمولية للإيمان، والخروج من التخندق الذي فرضته أفهام تاريخية ابتنت على أصول أخبارية لا تتوافق مع الرؤية القرآنية الصحيحة.

إذن نحن بصدد الوقوف العملي على جُلّ ما يمكن أن نتصوّره من علاقات صميمية للإنسان بنفسه وبربّه وبأخيه الإنسان وبمجتمعه ووسطه، وسوف تكون الانطلاقة ـ إلى حدّ كبير ـ قرآنية، سواء في ما تقدّم من معطيات الوسطية القرآنية، أو في ضوء معطيات الشمولية الإيمانية.

إجمال التنوّع في علاقات الإنسان وارتباطه بالقرآن

بعد أن اتّضح دور القرآن في حياة الإنسان، وكونه يمثّل دعامة البناء الفردي والاجتماعي للإنسان، وأنّه الرافد الأوّل المسؤول عن بناء المحتوى الداخلي لسائر المسلمين والمؤمنين، نريد أن ننطلق من هذه الأدوار المختلفة إلى بيانات قرآنية أُخرى تتعلّق بنظم علاقات الإنسان، التي يمكن إجمالها بما يلي:

نظم علاقتنا مع أنفسنا.

نظم علاقتنا مع الله تعالى.

نظم علاقتنا مع الرسول صلّى الله عليه وآله.

نظم علاقتنا مع أهل البيت عليهم السلام.

نظم علاقتنا مع أهل العلم والفضل والقيادة الدينية.

نظم علاقتنا مع الأبناء والآباء.

نظم علاقتنا مع سائر المؤمنين.

نظم علاقتنا مع الناس أجمعين.

وإنّما عبّرنا عن هذه العلاقات بالنظم لأنّها ليست علاقات عابرة، وليست علاقات ثانوية، وإنّما هي علاقات تصنع حياة الإنسان في حاضره ومستقبله، ولذلك فهي بحاجة ماسّة إلى نظم وانضباط ورعاية وعناية، ولعلّ معظم ما نعانيه من مشكلات فكرية وروحية واجتماعية إنّما يعود لطبيعة هذه العلاقات، فبنظمها تنتظم حياة الإنسان، وباضطرابها تضطرب حياته.

وعلى سبيل المثال: إنّ الإنسان ما لم تنشأ عنده علاقة واضحة المعالم مع الله تعالى فإنّه سوف يعيش فراغاً هائلاً على المستوى الكمالي والمعنوي، فيطلب تعويض ذلك، بشكل مقصود أو غير مقصود، في الموجودات الفقيرة التي لا تزيده إلّا فقراً وعوزاً، وهكذا الحال عند انعدام أو اضطراب علاقاته الأخرى، فإنّ كلّ علاقة من تلك العلاقات الثمان مسؤولة بشكل مباشر على مساحة معرفية أو معنوية في حياة الإنسان، ولذلك علينا أن نحرص كثيراً على إصلاحها وحفظها وتطويرها.

نظم علاقتنا مع أنفسنا

إنّ كثيراً من الاضطرابات النفسية التي تمزّق المحتوى الداخلي للإنسان تعود إلى فقدان المصالحة مع النفس، فإذا ما عاش الإنسان صراعاً عميقاً مع نفسه يدور حول أمانيه وطموحاته ورغباته وقدراته، فإنّه سوف يتمزّق ويتفسّخ داخلياً، فيصير وجوده الداخلي هشّاً سريع الاختراق، لا هويّة له ولا شخصية ولا حضور، بخلاف الإنسان المتصالح مع نفسه، فإنّه يدرك ويعي حركته المعرفية والمعنوية، والمصالحة مع النفس لا يمكن لها أن تتحقّق إلّا

بالتزام العقيدة الصحيحة وتطبيق الشريعة والاتصاف بالأخلاق الكريمة، فإنّ عقيدة التوحيد هي محور المصالحة مع النفس، ومن دونها يبقى الإنسان في صراع مستمرّ، وشكٍّ لا ينتهي، فيكون التوحيد هو أرضية المصالحة مع النفس ومستودع معارفها وروحانيتها، ولذلك نجد القرآن كثير التركيز والتشديد على موضوعة التوحيد، لأنّ الفاقد له فاقد لكلّ شيء، والواجد له يمكن أن يكون واجداً لكلّ شيء؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (لقمان: ١٣)، فالشرك هو كبيرة الكبائر التي لا تغفر أبداً؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً**﴾ (النساء: ٤٨)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**﴾ (النساء: ١١٦)، وكيف يُغفر الظلم العظيم والإثم العظيم والضلال البعيد؟ أو قل: كيف يُغفر للفاقد لكلّ شيء، وقد أُثر عن الإمام الحسين الشهيد عليه السلام في دعاء يوم عرفة قوله: «**ماذا وجد من فَقَدك، وما الذي فَقَدَ من وجدك، لقد خاب مَن رضي دونك بدلاً، ولقد خسر مَن بغى عنك متحوّلاً، كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان، وكيف يُطلب مِن غيرك وأنت ما بدّلت عادة الامتنان**»[(١)]، وكيف يقع الشرك أو الكفر والإلحاد من إنسان سويّ يرى الآيات الشامخة والأعيان الناطقة بوجود الله ووحدانيته؟!

ثمّ إنّ التصالح مع النفس لا يستقيم مع عدم الالتزام بالأحكام الشرعية،

---

(١) بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٩٥ ص٢٢٦؛ صحيفة الإمام الحسين عليه السلام، جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المشرّفة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م: ص٢١٨.

من واجبات ومحرّمات، فإنّ ترك الواجب وفعل المحرّم يتركان في النفس اضطراباً شديداً وإن تغافل عنه، ولذلك تجد المؤمن غير الملتزم بأحكام الشريعة يتلوّى في داخله لمجرّد سماعه صوت الأذان، ولمجرّد رؤيته هلال شهر رمضان، لأنّه يقرأ في ذلك تقصيره وحدود تجاوزاته، بخلاف المؤمن الملتزم فإنّه يعيش الأمن الروحي والطمأنينة القلبية، فالصلاة ذكر، والصوم وِرد، والذكر والورد يُنقّيان القلب من أدرانه، وقد قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد: ٢٨)، فمن لا ذكر له لا وصل له، ومن لا وِرد له لا وارد عليه.

ثمّ إنّ التصالح يحتاج إلى متممّ نفسيّ وعمليّ، وهو التحلّي بالأخلاق الكريمة والمزايا الحميدة، وبذلك تحصل المصالحة الحقيقية، حيث اجتماع التوحيد والالتزام الشرعي والتحلّي بالأخلاق الإسلامية، ولا ينبغي الإغفال عن سرّ آخر فيه ضمانة حفظ المصالحة مع النفس من اللوث والاندثار، وهو ترويض النفس فيما يتعلّق بحبّ الدنيا، فهنالك من يتصوّر أنّ كماله المطلوب هو المال أو الجاه أو السلطان أو الملذّات أو شيء آخر من حطام الدنيا، فيغترف من ذلك ماءها الأجاج ظنّاً منه بأنّه عذب فرات سائغ شرابه، فلا يزيده الشرب إلّا عطشاً وقرباً من هلاكه، وفي ذلك يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مَثل الدُّنيا كماء البحر كلّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتّى يقتله**»[1]، وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان وسبيلان مختلفان، فمن أحبّ الدنيا وتولّاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماشٍ بينهما، كلّما قَرُب من واحد بَعُد**

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٣٧ ح٢٤، باب ذمّ الدنيا.

من الآخر، وهما بَعْدُ ضرّتان»(١).

فمن أراد المصالحه مع نفسه وحفظ مصالحته من دون لوث وعطب فإنّ عليه مقارعة هوى النفس، ومقارعة الهوى لا ينتصر فيها من كان صريعاً لحبّ الدنيا، فإنّ الدنيا تقتل عشّاقها من دون أن يقبضوا شيئاً، وعشق الدنيا يعني تغييب الفطرة في بئر الشهوات والخطايا، فتُعطَّل دواعي الفضيلة، وتنشّط دواعي الرذيلة، وتتآكل النفس من اضطرابها وتمزّقها.

طبيعة علاقتنا مع الله تعالى وقوامها

إنّ العلاقة بين الإنسان وربّه هي علاقة وجودية، بمعنى أنّها تمثّل علاقة المعلول بعلّته الموجدة له، ولذلك لا انفكاك في هذه العلاقة من هذه الناحية، سواء كان الإنسان عبداً صالحاً أو غير صالح، فهو في حقيقته موجود إمكانيّ ومعلول يرجع في أصل وجوده ودوامه إلى علّته التامّة، وهو الله تعالى، والعبد سائر إليه وإن كان في أسفل سافلين؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**﴾ (الانشقاق: ٦)، ولو لم يكن سبحانه علّة لما كان هنالك معنى للملاقاة والرجوع الاضطراري، والخطاب للإنسان وليس للمؤمن خاصّة.

وقوام هذه العلاقة يتحدّد من خلال بعض المفاهيم المتقابلة، من قبيل الألوهية وهي صفة ذاتية لله تعالى، ويقابلها العبودية وهي صفة ذاتية للإنسان، فلا الألوهية تنفكّ عن الله تعالى؛ لأنّها تكوينية، ولا العبودية تنفكّ عن الإنسان لأنّها تكوينية أيضاً، فالإنسان حتى لو كان عاصياً شرعاً وبذيئاً في أخلاقياته فإنّه سيبقى عبداً لله تعالى، فعبوديته لله تعالى في عين إمكانه ومعلوليته.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٢٣ رقم (١٠٣).

ومن المفاهيم المتقابلة الأخرى التي يمكن فيها تحديد قوام العلاقة بين الإنسان وربّه: الخالقية، وهي صفة فعلية ملازمة لله تعالى، والمخلوقية وهي صفة ملازمة للإنسان، لا تنفكّ عنه أبداً، سواء كان الإنسان مؤمناً أو كافراً، وسواء كان مطيعاً أو عاصياً، فهو مخلوق من مخلوقات الله، وخالقيته المطلقة تقتضي العبودية له: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ (الأنعام: ١٠٢)، و: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (غافر: ٦٢).

من هنا يتّضح أنّ قوام العلاقة متين وغير قابل للانفكاك؛ لأنّه وجوديّ في معانيه، وليست العلاقة اعتبارية يمكن التخلّص منها أو الانفلات عنها، كما هو الحال في الكثير من علاقاتنا الاجتماعية، فهي ليس علاقة صداقة أو شراكة، وما شابه ذلك، وهذه العلاقة الوجودية الصميمية لا تنتهي بمجرّد الإيجاد لنا، لأنّنا نبقى في حاجة ذاتية للاستمداد من وجوده، فهو سبحانه علّة في حدوثنا وعلّة في بقائنا أيضاً، ولذلك لابدّ من نظم هذه العلاقة بيننا وبينه سبحانه.

منطلقات علاقتنا مع الله تعالى

بعد أن اتّضح أنّ أصل العلاقة بيننا وبينه سبحانه وجوديّ غير قابل للانفكاك، فإنّ انطلاق العلاقة بيننا وبينه سبحانه لابدّ أن يكون وفقاً لذلك، بمعنى أنّ الله تعالى عندما يكون قد تحقّق منه معنى الألوهية والربوبية والخالقية فلابدّ أن يتحقّق في الإنسان معنى العبودية والمربوبية بالنحو المطلوب، أي تحقيق الطاعة والمتابعة المطلوبتين؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ (النساء: ٥٩) في أوامره ونواهيه. فإذا ما خرج الإنسان عن رسوم العبودية والطاعة، من خلال ارتكاب المعاصي، فإنّه يكون قادحاً بتلك الألوهية والربوبية، أو غير مراعٍ لها، لا أنّه خارج عنهما، فإنّ عبودية الإنسان

ومربوبيته ومرجعيته إلى الله تعالى ذاتية فيه، لا انفكاك عنها، كما تقدّم.

علماً بأنّ هذه العلاقة القائمة على قوّة الارتباط بين الألوهية والربوبية من طرف الله تعالى، والعبودية والطاعة من طرف الإنسان، إنّما هي علاقة كماليّة محضة للإنسان؛ لأنّنا من خلال التمحّض في العبودية لله نكون قد اقتربنا منه سبحانه، ولذلك نجد هنالك تأكيدات قرآنية كثيرة على هذا الارتباط؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ (البقرة: ٢١)، وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى الاقتران الشديد بين الربوبية والعبودية، ولشدّة الارتباط ورد أنّ العبودية جوهرة كنهها الربوبية، فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**العبودية جوهرة كنهها الربوبية، فما فُقد من العبودية وُجد في الربوبية، وما خفي عن الربوبية أصيب في العبودية**»[1]، وهذا الاقتران الشديد والأكيد يعمّق المسؤولية تجاه التكاليف الإلهية.

إذن، فلابدّ من الارتكاز على واقعية العبودية التي هي أصل ذاتيّ فينا، أو قل: أصل تكوينيّ من خلال أصل الإيجاد لنا وإبقائنا، وأصل تشريعيّ آمر لنا بالطاعة والمتابعة، وهذان الأصلان، التكويني والتشريعي، فيهما حفظ الكمال المطلوب تحقيقه، ففي طاعتنا لله تعالى نعتلي نواصي الخير؛ قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ**

(١) مصباح الشريعة، المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام، الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م: ص٧ الباب الثاني؛ التفسير الصافي، مصدر سابق: ج٤ ص٣٦٥؛ تفسير نور الثقلين، مصدر سابق: ج٤ ص٥٥٦ ح٧٧؛ كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا المشهدي، التحقيق: حسين درگاهي، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر في وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ: ج١١ ص٤٦٩؛ شرح الأسماء الحسنى، للحكيم ملّا هادي السبزواري، تحقيق: الدكتور نجف قلي حبيبي، نشر: مؤسسة انتشارات جامعة طهران، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ش: ج١ ص٥.

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (النساء: ٦٩). وهم الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ (الفاتحة: ٦ ـ ٧). وأمّا في مخالفتنا له سنكون في الحضيض؛ قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ (النساء: ١٤).

علاقتنا بالله تعالى .. سُبل توثيقها وأسباب ضعفها

لاشكّ أنّ مراعاة الأوامر والنواهي الإلهية هي مناط العلاقة العملية بيننا وبين الله تعالى، فالعلاقة الوجودية بيننا وبينه باقية على أيّ حال، وأمّا العلاقة العملية أو المعنوية فإنّها مرتبطة بشكل أساس بحدود الطاعة والمتابعة لأوامره ونواهيه سبحانه، وكلّما اجتهدنا في الطاعة نكون قد عملنا على تقوية هذه العلاقة المعنوية، وكلّما تقاعسنا وتكاسلنا وغفلنا عن رسوم الطاعة نكون قد عملنا على تفتيت هذه العلاقة، فالعلاقة المعنوية بيننا وبينه سبحانه علاقة كماليّة، عمادها الطاعة والصدق في الطاعة، فهي أشبه ما تكون بالشجرة المثمرة، تنمو وتثمر مع السقي والرعاية، وتذبل وتموت مع الجفاف والهجر.

من هنا يتعيّن علينا السعي الحثيث في البحث عن مواطن الطاعة وتحقيقها. وعلى سبيل المثال، الصلاة هي عمود الدين[1]، مَن أقامها أقام دينه، ومَن تركها هدم دينه، بمعنى: مَن أقامها أقام علاقته مع الله، ومَن تركها قطع صلته بالله تعالى؛ لأنّها المعراج الذي يعرج به المؤمن إلى الله تعالى[2]، وقاطع

---

(١) ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**الصلاة عمود دينكم**». الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٩ ح٥. وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب**». وسائل الشيعة، مصدر سابق: ج٤ ص٢٧ ح١٢.

(٢) روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**الصلاة معراج المؤمن**». مفاتيح الغيب، للإمام

الصلة بالله تعالى لا يفرّق من الناحية العملية بينه وبين الكافر والمشرك، فقاطع الصلاة قد يكون مسلماً في عقيدته، ولكنّه فاقد للإيمان الحقيقي؛ لأنّ الصلاة كتاب موقوت على المؤمن؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾ (النساء: ١٠٣)، فهو ليس مجرّد عاصٍ، وإنّما هو قاطع الصلة مع الله تعالى، أي: قاطع الكمال، وقاطع العلاقة المعنوية بينه وبين ربّه، ورافع لصفة الإيمان الحقيقي عنه، وهكذا الحال في الصوم، فالصوم كما جاء في الحديث القدسي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى يقول: الصوم لي وأنا أُجزي عليه**»[1]، وإذا كانت الصلاة توجد الصلة والعلاقة المعنوية مع الله تعالى، فإنّ الصوم هو من أعظم مناشئ التقوى، وهي فريضة مكتوبة أيضاً؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣)، وكلمة (لعلّكم) وإن كانت تفيد الترجّي إلّا أنّها في المنطق الإلهي تعني التحقّق، وهكذا الحال في سائر العبادات الأخرى، فإنّها تمثّل تجلّيات العبودية، وموارد الطاعة، ومخابئ القبول والرضوان.

وأمّا بالنسبة للأسباب المفضية إلى ضعف علاقتنا بالله تعالى فإنّها كثيرة، ولكن من أخطرها الغفلة عنه سبحانه، والغفلة عنه إنّما تكون بحلول غيره في العقل والقلب والوجدان، هذه الغفلة غالباً ما يكون وراءها حبّ الدنيا أو

فخر الدين محمد الرازي: ج١ ص٢٢٦، منشورات محمد علي بيضون، الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، بيروت؛ الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، نعمة الله بن محمود النخجواني الأذربيجاني (ت: ٩٢٠هـ)، الناشر: دار ركابي للنشر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ: ج١ ص١٩؛ مستدرك سفينة البحار، مصدر سابق: ج٦، ص٣٤٣.

(١) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٤ ص٦٣ ح٦.

الاشتغال في طلب الدنيا على حساب طلب الآخرة، وقد ورد عن عبد الله بن أبي يعفور، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همّه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه، وشتّت أمره، ولم ينل من الدنيا إلّا ما قسم الله له، ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همّه جعل الله الغنى في قلبه، وجمع له أمره**»[(١)]، وعن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام أنّه قال: «**رأيت الخير كلّه قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس، ومن لم يرجُ الناس في شيء وردَّ أمره إلى الله عزّ وجلّ في جميع أموره استجاب الله عزّ وجلّ له في كلّ شيء**»[(٢)].

قال المازندراني: «قطع الطمع خير كثير متضمّن لغيره من الخيرات كلّها؛ لأنّ الاتصاف به يوجب الانقطاع عن الخلق والاتصال بالحقّ، وهو في نفسه خير، وكلّ خير غيره إمّا موقوف عليه أو لازم له غير منفكّ عنه»[(٣)].

الرؤية القرآنية تجاه علاقتنا بالله تعالى

إنّ الرؤية القرآنية في تصوير علاقتنا بالله تعالى تنطلق من عدّة أمور أساسية، منها:

الأوّل: أصل العبودية ولزوم الطاعة

كما تقدم آنفاً.

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣١٩ ح١٥؛ ثواب الأعمال، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، منشورات الرضي، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٣٦٨ش: ص١٦٨، باب: (ثواب من أصبح وأمسى والآخرة أكبر همّه)؛ تحف العقول، مصدر سابق: ص٤٨. وعنه صلّى الله عليه وآله: «**من أصبح والدنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء**». الدرّ المنثور، مصدر سابق: ج٣ ص٢٣٨.

(٢) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٤٨ ح٢.

(٣) شرح أصول الكافي للمازندراني، مصدر سابق: ج٩ ص٤.

الثاني: التذكير بالفقريّة الذاتية للإنسان والغنى الذاتي لله تعالى

إنّ علاقتنا بالله سبحانه هي علاقة الفقير الذي لا ينفكّ عنه فقره بالغني الذي لا ينفكّ عنه غناه؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (فاطر: ١٥)، وصفة الفقر الذاتي تورث الحاجة الذاتية التي لا تنقطع أبداً، كما أنّ صفة الغنى الذاتي تعني العطاء الذي لا ينقطع أبداً؛ قال تعالى: ﴿**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾ (النحل: ٩٦)، وما دام الفقر صفةً ذاتية لنا فليس هنالك طريق أمامنا سوى الارتباط بالغني الذي لا يزول عنه غناه، ولا تنفد خزائنه؛ قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (المنافقون: ٧). ومَن كانت له خزائن الوجود فإنّه لا يقع منه بخل، ولا منع، فهو الرحمة؛ قال تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ**﴾ (الأنعام: ١٣٣)، ولذلك فهو كما ورد في الدعاء: «**يا من لا تزيده كثرة الدعاء إلّا كرماً وجوداً**»[1]، وكيف لا يكون كذلك؟ وما الذي يضيره أن يكون كذلك وهو المالك الواهب؟ قال تعالى: ﴿**أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ**﴾ (ص: ٩)، وقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (المنافقون: ٧)، وقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً**﴾ (النساء: ١٢٦)، وإنّما يخشى العطاء من مسّه الفقر، والله: ﴿**هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ (يونس: ٦٨).

الثالث: التزوّد بالتقوى والعلم والمعرفة

أمّا التقوى فلصريح قوله تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ (البقرة: ١٩٧)، أي: خذوا لأنفسكم زاداً من صالح الأعمال للدار الآخرة،

---

(١) مصباح المتهجد، للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، الناشر: مؤسسة فقه الشيعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ: ص١١٣ رقم (١٦٣).

فإنّ خير الزاد تقوى الله، ولابدّ أن تكون هذه التقوى واقعية وحقّانية؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، أي: التسليم المطلق لله تعالى. وهو مرتبة فوق الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٢٢)، ومن معالم التسليم لله تعالى وحده حصول الاستعداد التامّ للقتل في سبيله، والرضا بقضائه؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (الصافّات: ١٠٢ـ١٠٣)، أي: فلمّا خضعا وانقادا لأمر الله تعالى.

وأمّا علاقة العلم والمعرفة فلصريح قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه: ١١٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، حيث فُسّرت العبادة هنا بالمعرفة، أي: ليعرفون، وقد ورد عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه خطب بأنصاره: «**أيُّها الناس إنّ الله جلّ ذكره ما خلق الخلق إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه**»[1].

الرابع: العمل في سبيل الله

ومقتضى التقوى والعلم والعمل هو أن يكون مطلق عملنا في سبيله سبحانه، والعمل في سبيله لا ينحصر في الجهاد في سبيل الله، بل الجهاد في

---

(١) علل الشرائع، مصدر سابق: ج١ ص٨ ح١، باب: (علّة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)؛ كنز الفوائد، للمحدّث العلّامة أبي الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت: ٤٤٩هـ)، الناشر: مكتبة المصطفوي، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ: ص١٥١؛ نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، للشيخ الجليل الحسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلواني، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأولى المحقّقة، ١٤٠٨هـ: ص٨٠ ح٣؛ التفسير الصافي، مصدر سابق: ج٥ ص٧٥؛ تفسير نور الثقلين، مصدر سابق: ج٥ ص١٣٢ ح٥٨؛ صحيفة الحسين عليه السلام، مصدر سابق: ص٣١٦ رقم (٤).

سبيل الله لا ينحصر بالقتال في سبيله، وإنّما كلّ عمل يقصد به وجه سبحانه فإنّه في سبيل الله، بل هو جهاد في سبيله، وقد جاء في خبر أنّه مرّ على رسول الله صلّى الله عليه وآله رجل، فرأى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من جلده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان**»(١). وعنه صلّى الله عليه وآله: «**من سعى على عياله في طلب الحلال فهو في سبيل الله**»(٢)، وعنه صلّى الله عليه وآله: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**»(٣)، ولو لاحظنا طريقة التعبير فإنّه لم يسلك طريقة التوصيف، ولذلك لم تقل: كالذي في سبيل الله، أو: كأنّه في سبيل الله، وإنّما كان التعبير بقوله: (**فهو في سبيل الله**)، أي: عمله ذلك مصداق حقيقيّ لسبيل الله، وليس الأمر مجرّد تمثيل وتقريب.

الخامس: أصل العود والرجوع إليه

وذلك أمر حتميّ لا انفكاك عنه؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٦)، أي: منه قد جئنا وإليه سنعود، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ**

---

(١) المعجم الكبير، مصدر سابق: ج١٩ ص١٢٩؛ مجمع الزوائد، مصدر سابق: ج٤ ص٣٢٥؛ سنن البيهقي، مصدر سابق: ج٧ ص٤٧٩؛ الدرّ المنثور، مصدر سابق: ج١ ص٣٣٧.

(٢) المعجم الأوسط: ج٤ ص٢٨٥؛ سنن البيهقي ج٩ ص٢٥؛ مجمع الزوائد: ج٨ ص١٤٤؛ الدرّ المنثور: ج١ ص٣٣٧؛ روضة الواعظين: ص٤٥٧. (مصادر سابقة).

(٣) سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٤ ص١٣٧؛ منية المريد، مصدر سابق: ص١٠١؛ المعجم الكبير، مصدر سابق: ج٨ ص٦٧؛ تهذيب الكمال، مصدر سابق: ج٨ ص٢١٢.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، أي: يا أيّها الإنسان إنّك ساعٍ إلى الله، وعامل أعمالاً من خير أو شرّ، ثمّ تلاقي الله يوم القيامة، فيجازيك بعملك بفضله أو عدله، وقيل: بأنّه ملاقٍ عمله الدنيوي في الآخرة[1]، وهو مخالف لمعنى الغائية في: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾، فالانتهاء عنده يعني ملاقاته، ولذلك كان التفريع بقوله: ﴿فَمُلاقِيهِ﴾.

الرؤية القرآنية تجاه علاقة الله تعالى بنا

وهذه هي العلاقة المقابلة، حيث تحدّثنا عن رؤية القرآن تجاه علاقتنا نحن بالله تعالى، والآن نريد إكمال الصورة، من خلال تصوير رؤية القرآن تجاه علاقة الله تعالى بنا، وهي علاقة قائمة على أمور كثيرة، منها:

الأوّل: الرحمة المطلقة

والرحمة وإن كانت ـ بحسب الظاهر ـ من الصفات الفعلية؛ نظراً لملاحظة المرحوم فيها، إلّا أنّها ـ بمزيد من التأمّل ـ صفة الكينونة، وليست صفة الفعل؛ قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤)، وهي رحمة مطلقة؛ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ (غافر: ٧).

وبقدر ما هي رحمة موهوبة للخلق، فإنّها مشروطة لمن أراد الاتّصاف بها، لا لمن تحلّ عليه، فحلولها على الخلق قضاء ربّاني لا انفكاك عنه، وإنّما الكلام فيمن أراد الاتّصاف بذلك، حيث يشترط فيه قضية معنوية، وهي التقوى، وقضية عملية ذات طابع اجتماعي، وهي الزكاة[2]، وقضية عقدية، وهي

(١) انظر: تفسير الجلالين، مصدر سابق: ص٧٩٩.

(٢) ذلك لمن لزمته هذه الفريضة، وإلّا فمن لم يكن لديه نصاب الزكاة أو كان فقيراً أو مسكيناً مستحقّاً للزكاة فلا ضير عليه، ولا يكون ذلك مانعاً من اتّصافه بالرحمة، ولكنّها

الإيمان بآياته؛ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، فمن اجتمعت فيه هذه القضايا الثلاث فإنّه سيكون متحقّقاً بصفة الرحمة، وبعبارة عرفانية: سيكون مظهراً من مظاهر الرحمة الإلهية.

ثمّ إنّ مع الرحمة الإلهية ينطفئ الغضب، حيث سبقت رحمتُه غضَبَه[1]، فإن كتبها لأحد فلا رادّ لها؛ قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (فاطر:٢)، كما أنّه سبحانه لو منعها فلا مرسل لها: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر:٢)، والرحمة المطلقة، والمتمظهرة بالرحمة الإلهية لها أثر من ذلك، حيث تسبق رحمته غضبه، ما دام متحقّقاً بالرحمة، كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله المبعوث رحمة للعالمين، فكان أجلى مصاديقها في الخلق.

الثاني: التوبة

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٢٧)، فهو سبحانه مريد للتوبة، شرط أن يُقدّم الإنسان توبته، فالتوبة إنّما تكون من الإنسان، والله هو قابل التوبة؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٩).

ولابدّ من العجلة في التوبة وعدم التهاهل فيها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ (النساء: ١٧)، وأمّا المُسوّف والمتواكل فإنّه أُلعوبة الشيطان، فإنّ

رحمة فاقدة لهذا الأثر الاجتماعي، بخلاف من وجبت عليه الزكاة فإنّه سيتّصف بصفاء العطاء، وهذا من معالم الرحمة في واقعها الاجتماعي.

(١) ورد في الدعاء: «**سبحان الذي سبقت رحمته غضبه**». مصباح المتهجد، مصدر سابق: ص٤٤٢ رقم (٧)، دعاء ليلة الأحد.

التسويف أدنى ما يؤدّي إليه هو تراكم الذنوب حتى يُصاب صاحبها المسوّف باليأس والقنوط يوم يستيقظ من غفلته، فيرى أيامه قليلة، وذنوبه جبالاً متراكمة، ولذلك يلزم المبادرة إلى التوبة عن كلّ ذنب يُقترف.

ثمّ إنَّما يقبل الله التوبة من الذين يرتكبون المعاصي والذنوب بجهل منهم لعاقبتها، وإيجابها لسخط الله، فكلّ عاصٍ لله ـ مخطئاً أو متعمِّداً ـ فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم، ثمّ يرجعون إلى ربّهم بالإنابة والطاعة قبل معاينة الموت، فأولئك يقبل الله توبتهم، وأمّا مقترف الذنوب عن دراية بعاقبتها فمن العسير لحوقه بركب التائبين.

الثالث: الجزاء بالحسنى

وذلك لمن أحسن في دنياه؛ قال تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (يونس: ٢٦)، والإحسان في الدنيا هو الإيمان والعمل الصالح، بدليل مقابلة عمله هذا بالحسنى؛ قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى**﴾ (الكهف: ٨٨) أي: من آمن وعمل صالحاً كان محسناً، وجزاء المحسن هو الحسنى.

الرابع: التعليم الإلهي

وهو مشروط بطبيعة علاقتنا به، فإن كانت هي علاقة التقوى فإنّ التعليم الإلهي لنا سيكون أمراً قطعياً؛ قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة: ٢٨٢)، ومن هذا التعليم الإلهي سوق التوفيقات الإلهية المفضية لتحصيل العلم، بمعنى أنّ التعليم الإلهي لا يعني الوحي والإلهام الرحماني حصراً، وإنّما هو عنوان يشمل من وفّق لطلب العلم الإلهي بإخلاص، كالمتفقّه في الدين ما دامت هجرته العلمية لله تعالى.

نظم العلاقة مع الرسول صلّى الله عليه وآله

بعد أن انتهينا من تصوير نظم علاقتنا مع الله تعالى، ننتقل إلى الطولية، وهي العلاقة الثانية في نظم العلاقات، ونعني بها نظم علاقتنا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنّ لهذه العلاقة الإيمانية أبعاداً عقدية وعملية واجتماعية، وارتقائية، إنّها علاقة التلميذ بالمعلّم الأوّل في الخلق، وعلاقة المُريد بالواصل للحقّ، وعلاقة الرعيّة بالقائد، وهنا نكات وأمور.

رسم القرآن لطبيعة علاقتنا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله

من حسن صنيع الله تعالى بنا: أن اشتمل كتابه المجيد على رسم خطوط علاقتنا بالرسول صلّى الله عليه وآله، وذلك من خلال أمور ثلاثة، وهي:

١. الإيمان بنبوّته، والاتّباع لرسالته، والطاعة لإمامته

أمّا الإيمان بنبوّته فهو رسم قرآنيّ للمسلمين كافّة، ليكونوا مؤمنين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (النور: ٦٢).

وأمّا الاتّباع لرسالته فذلك من صفات المتّقين؛ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ (الأعراف: ١٥٦ـ ١٥٧). وفي الاتّباع له ينكشف صدق الحبّ والمودّة لله تعالى؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١). والإيمان بنبوّته، والاتّباع له صلّى الله عليه وآله، هما ملاك الهداية؛ قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وأمّا الطاعة لإمامته وقيادته فإنّه الوليّ المنصّب من قبل الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (المائدة: ٥٥)، فتتعيّن طاعته؛ قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ

﴿وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٢). وطاعتنا له صلّى الله عليه وآله مطلقة، فلا نخالفه في أمر، ولا نعصيه في نهي، ولذلك فقوله وفعله وتقريره حجّة علينا؛ قال تعالى: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾** (الحشر: ٧)، أي: ما أتانا عنه من قول أو فعل أو تقرير ـ أمراً كان أو نهياً ـ فإنّ علينا الطاعة، بل لا نختار على أمره ونهيه شيئاً أبداً، فلا يكون أحد في عرضه قط، وإلّا وقع الضلال المبين؛ قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾** (الأحزاب: ٣٦)، أي: لا ينبغي لمؤمن إذا حكم الله ورسوله حُكماً أن يخالفه، بأن يختار غير الذي قضى فيه، ومن يعص الله ورسوله فقد بَعُدَ عن طريق الصواب، وكان ضلاله واضحاً جليّاً.

٢. الحبّ والولاء له صلّى الله عليه وآله

فقد ورد عنه صلّى الله عليه وآله: «**لا يؤمن أحدكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من وِلْده ووالِدِه والناس أجمعين**»[١]، وفي حديث آخر عنه صلّى الله عليه وآله: «**لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه، وأهلي أحبّ إليه من أهله، وعترتي أحبّ إليه من عترته، وذرّيتي أحبّ إليه من ذرّيته**»[٢]، ومعنى أن يكون صلّى الله عليه وآله أحبّ إلينا من أنفسنا هو أن لا نقدّم عليه شيئاً في الحبّ والولاء؛ لأنّ الإنسان لا يقدّم على نفسه شيئاً، فإذا ما قدّمناه على أنفسنا صار كلّ ما عداه صلّى الله عليه وآله مؤخّراً عنه في الحبّ والمتابعة والولاء، فيكون أمره ونهيه ماضيين فينا، بل تكون متابعته صلّى الله عليه وآله في ذلك أحبّ إلى

---

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق: ج١ ص٩؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٢٢ ص٨٨.

(٢) علل الشرائع، مصدر سابق: ج١ ص١٤٠ ح٣؛ أمالي الصدوق، مصدر سابق: ص٤١٤ ح٩؛ المعجم الأوسط، مصدر سابق: ج٦ ص٥٩؛ مجمع الزوائد، مصدر سابق: ج١ ص٨٨.

أنفسنا من أيّ شيء آخر، فنؤثر حبّه على كلّ حبّ.

٣. الصلاة عليه والتسليم إليه

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ (الأحزاب: ٥٦)، وفي هذه الآية أمران، هما: الأمر بالصلاة على النبيّ، والأمر بالتسليم إليه.

وهنالك فرق كبير بين السلام والتسليم، والآية تأمر بالتسليم إليه، فلم تقل: وسلّموا سلاماً، وإنّما قالت: ﴿**وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾، والتسليم هو عدم مخالفته أبداً، بل عدم مناقشته فيما يحكم به، وعدم تقديم الاقتراحات له فيما لم يطلب الاستشارة فيه؛ فهو في غنى عن اقتراحات الناس؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (الحجرات: ١)، أي: لا تقطعوا في أمرٍ ولا تعجلوا به من دون العود إلى الله ورسوله صلّى الله عليه وآله[١]، أو كما يقول السيوطي: «أي: لا تقدّموا بقول ولا فعل»[٢].

بعبارة أوضح: «المراد بما ﴿**بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾: هو المقام الذي يربط المؤمنين المتّقين بالله ورسوله، وهو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية والعملية. وبذلك يظهر أنّ المراد بقوله: ﴿**لا تُقَدِّمُوا**﴾: تقديم شيء ما من الحكم قبال حكم الله ورسوله، إمّا بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله، أو إلى فعل قبل أن يتلقّوا الأمر به من الله ورسوله»[٣].

ثمّ إنّ عدم التسليم للنبيّ، فضلاً عن كونه قادحاً في الإيمان، فإنّه يُعدّ من سوء الأدب، لاسيّما وأنّ الله تعالى قد أمرنا بالتسليم له صلّى الله عليه وآله.

---

(١) انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٩ ص٢١٧.

(٢) تفسير الجلالين، مصدر سابق: ص٦٨٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٨ ص٣٠٦.

وأمّا الصلاة عليه فهي كما جاء عنه صلّى الله عليه وآله عندما نزلت الآية، حيث قالوا له: «يا رسول الله قد عرفنا التسليم، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: **تقولون: اللّٰهُمَّ صلّ على محمد وآل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنّك حميد مجيد**»(١)، وقد اختصرت بالصلاة المتداولة، وهي: (اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد)، وعند ذكر اسمه الشريف نقول مختصراً: صلّى الله عليه وآله، وأمّا الشائع عند الكثير من المسلمين، وهو قول: (صلى الله عليه وسلّم) فهو لا يعكس ما جاء في السنّة الشريفة.

علاقتنا برسول الله صلّى الله عليه وآله بين القوّة والضعف

يمكن ملاحظة طبيعة علاقتنا برسول الله صلّى الله عليه وآله من حيث القوّة فيها أو الضعف عن طريقين أساسيين نجدهما في سيرته الشريفة، هما:

الأوّل: لو لاحظنا المسيرة الجهادية لرسول الله صلّى الله عليه وآله بالقول والعمل، نجدها مسيرة تضحويّة خالصة، فهو لم يعش لنفسه بقدر ما عاش لأمّته، وكان الهدف هو إخراج الأمّة من الظلمات إلى النور؛ قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ١)، وبالتالي فإنّ العودة إلى أيّ ظلمة من تلك الظلمات، ظلمات الجهل والتخلّف

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٣؛ دعائم الإسلام، مصدر سابق: ج١ ص٢٩. وفي الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: «لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أُهدي لك هديّة سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلّم؟ فقلت: بلى، فأهدها لي، فقال: سألنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت، فإنّ الله قد علّمنا كيف نسلّم؟ قال: **قولوا: اللّٰهُمَّ صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللّٰهُمَّ بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد**». صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٤ ص١١٨ ؛ ج٦ ص٢٧؛ صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج٢ ص١٦.

والعصبية القبلية، وظلمات الأنانية العنجهية والإقصاء، سيكون دليلاً على ضعف علاقتنا برسول الله صلّى الله عليه وآله.

بعبارة أخرى: إنّ أيّ ممارسة غير شرعية هي تصبّ في بحر تلك الظلمات التي ما جاء النبي صلّى الله عليه وآله إلّا لإخراجنا منها، وبالتالي إذا ما أردنا أن نحافظ على علاقتنا برسول الله صلّى الله عليه وآله، وأن نعمل على تقويتها، فلابدّ من الحفاظ على الإنجاز النبوي الذي قُدّمت من أجله التضحيات العظيمة، وسالت في طريقه دماء طاهرة زكية.

الثاني: لو لاحظنا عنايته الفائقة صلّى الله عليه وآله بعترته وأهل بيته عليهم السلام، وهم أمير المؤمنين علي وفاطمة الزهراء والإمام الحسن والإمام الحسين والأئمّة التسعة من ذريّة الحسين عليهم السلام، حتى وردت الوصية بأهل بيته في حديث الثقلين المستفيض عند المسلمين، الذي رواه الترمذي عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[١]، وفي صحيح مسلم: «**وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي**»[٢].

وهنا يُعلّق الإمام القرطبي على ما جاء في حديث مسلم: «وهذه الوصية وهذا التأكيد العظيم، يقتضي وجوب احترام آل النبي صلى الله عليه وسلّم وأهل بيته، وإبرارهم وتوقيرهم ومحبّتهم، وجوب الفروض المؤكّدة التي لا عذر لأحد في التخلّف عنها. هذا مع ما عُلم من خصوصيتهم بالنبي صلى الله عليه وعلى آله

---

(١) سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٥ ص٣٢٨ ح٣٨٧٦.

(٢) صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٧ ص١٢٣.

وسلّم، وبأنّهم جزء منه، فإنّه أصوله التي نشأ منها، وفروعه التي تنشأ منه، كما قال صلى الله عليه وسلّم: **فاطمة بضعة منّي، يُريبني ما يُريبها**[(١)]»[(٢)].

فبحبّنا لعترته الطاهرة عليهم السلام، والتزامنا بهم، وعدم الحياد عنهم، نكون قد عبّرنا عن حبّنا وقوّة علاقتنا به صلّى الله عليه وآله، فيكون التنصّل عنهم تعبيراً آخر عن ضعف علاقتنا برسول الله صلّى الله عليه وآله، فكيف بمعاداتهم ومحاربتهم وسلب حقوقهم الشرعية المفروضة على الأمّة؟

ولذلك نجد الإمام القرطبي يعرّض ببني أميّة الذين قابلوا الإحسان لهم من قبل رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم عفا عنهم في فتح مكّة بالإساءة إلى عترته الطاهرة يوم ملكوا أمر هذه الأمّة، حيث يقول: «ومع ذلك[(٣)] فقابل بنو أميّة عظيم هذه الحقوق بالمخالفة والعقوق فسفكوا من أهل البيت دماءهم وسبوا نساءهم وأسروا صغارهم، وخرّبوا ديارهم، وجحدوا شرفهم وفضلهم، واستباحوا سبّهم ولعنهم، فخالفوا المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في وصيّته وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته؛ فوا خجلهم إذا وقفوا بين يديه، ويا فضيحتهم

---

(١) ورد هذا الحديث النبوي الشريف بألفاظ متقاربة في المعنى، في أهمّ المصادر الروائية. (انظر: صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٤ ص٢١٠؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٧ ص١٤١؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٥ ص٣٦٠ ح٣٩٦١؛ فضائل الصحابة، للإمام أحمد بن حنبل أبي عبد الله الشيباني، تحقيق: الدكتور وصيّ الله محمد عباس، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ: ص٧٨.

(٢) المُفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، تأليف: الإمام أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق وتعليق ونشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ: ج٦ ص٣٠٤؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرءوف المناوي، تحقيق: أحمد عبد السلام، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ: ج٣ ص٢٠.

(٣) أي: مع تلك الوصية النبوية بعترته، والتأكيد العظيم عليها ... فقد قابل بنو أميّة ...

يوم يُعرَضون عليه»[١]، ونضيف على ذلك: فوا خجل أتباع بني أميّة إذا وقفوا بين يديه، ويا فضيحتهم جميعاً يوم يُعرضون عليه[٢]، ويا فضيحة الذابّين عنهم والمُبرّرين لهم تلك الفظائع التاريخية التي يندى لها جبين الإنسانية.

الرؤية القرآنية في تقييم علاقتنا برسول الله صلّى الله عليه وآله

إنّ الرؤية القرآنية في تقييم علاقتنا برسول الله صلّى الله عليه وآله قائمة على أساس فروض الحبّ والولاء والطاعة والمتابعة، فمَن حقّق الطاعة كان له الفوز والعُقبى؛ قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (النساء: ١٣)، بل سيكون مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**﴾ (النساء: ٦٩)، وأمّا من عصى الرسولَ صلّى الله عليه وآله وخالفه فيما آتاه فهو إنسان ضالّ؛ قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً**﴾ (الأحزاب: ٣٦)، ومصيره هو النار والعذاب؛ قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**

---

(١) المُفهم لما أشكل، مصدر سابق: ج٦ ص٣٠٤؛ فيض القدير، مصدر سابق: ج٣ ص٢٠.

(٢) جدير بالذكر: أنّ للسيد الأستاذ أكثر من دراسة مطبوعة بيّن فيها الإسلام الأموي ومدى خطورته على الإسلام المحمدي وعلى أمّة الإسلام، من قبيل: معالم الإسلام الأموي (من القدح في العترة النبوية الطاهرة إلى استباحتها)، محاضرات آية الله السيد كمال الحيدري، بقلم: إبراهيم البصري، الناشر: دار مشعر للنشر والتوزيع طهران، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ؛ أيضاً: السلطة وصناعة الوضع والتأويل، دراسة تحليلية تطبيقية في حياة معاوية بن أبي سفيان، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: علي المدن، دار مشعر للنشر والتوزيع، طهران، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

أَبَداً﴾ (الجنّ: ٢٣)، والطاعة لرسول الله والمعصية له صلّى الله عليه وآله هما مجلى الطاعة والمعصية لله تعالى.

ولو لاحظنا الآيات الآنفة نجدها تقرن طاعتنا لرسول صلّى الله عليه وآله بطاعة الله سبحانه، كما أنّها تقرن معصيتنا له بمعصية الله سبحانه، وهذا يدلّل على قوّة الارتباط، ووحدة القضية والموضوع، بمعنى أنّ ما جاء به الرسول صلّى الله عليه وآله هو عين ما أمر بالله تعالى، في أوامره ونواهيه.

الرؤية القرآنية تجاه علاقة الرسول صلّى الله عليه وآله بنا

وأمّا علاقة الرسول صلّى الله عليه وآله بأمّته والناس أجمعين، من وجهةٍ قرآنية، وهي الجهة المتمّمة للعلاقة السابقة، فإنّها قائمة على أمور، أهمّها:

الأوّل: أصل إلهيّ جامع، وهو الرحمة

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وكانت هذه الرحمة هي المنطلق في كلّ معالم دعوته الكريمة، فقد جاء بالرحمة وفق المنطق القرآني، ولم يأتِ بالذبح كما يُصوّره الإسلام الأموي[1]، وكيف يأتي بالذبح وقد

---

(١) تمسّك التكفيريون المنبثقون من الإسلام الأموي برواية ضعيفة ومخالفة للنصوص القرآنية، وهي نسبة القول إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله بأنّه قد جاء بالذبح ! وقد ورد هذا الخبر في بعض الكتب الثانوية للمسلمين، فقد ورد في كتاب (كشف الغمّة) للأربلي، وكتاب (بحار الأنوار) للمجلسي، من كتب الشيعة، وورد في عدّة كتب ثانوية من كتب مدرسة الصحابة. أمّا رواية الأربلي والمجلسي فقد جاءت ضمن بيان أسماء النبي محمد صلّى الله عليه وآله، والتي منها اسم (نبيّ الملحمة)! حيث جاء فيهما: «ومن أسمائه: نبيّ الملحمة، ورد في الحديث، والملحمة: الحرب، وسمّي بذلك لأنّه بُعث بالذبح، روي أنّه سجد يوماً فأتى بعض الكفّار بسلى ناقة فألقاه على ظهره، والسلى بالقصر: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد من المواشي، فقال: **يا معشر قريش أيّ جوار**

هذا؟ والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح، فقام إليه أبو جهل ولاذ به من بينهم، وقال: يا محمد ما كنت جهولاً، وسمّي نبيّ الملحمة بذلك». كشف الغمّة، مصدر سابق: ج١ ص٩؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج١٦ ص١١٦.

وأمّا رواية مدرسة الصحابة فقد روتها جملة من كتب الحديث وكتب التاريخ والسيرة، جاء فيها: «اجتمع أشرافهم ـ أي: قريش ـ يوماً في الحجر فذكروا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قطّ؛ سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا قال، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت، فلمّا أن مرّ بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثمّ مضى، فلمّا مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثمّ مضى، ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: **تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح،** فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلّا كأنّما على رأسه طائر واقع ...». مسند أحمد، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٨؛ فتح الباري، مصدر سابق: ج٧ ص١٢٨؛ صحيح ابن حبّان، مصدر سابق: ج١٤ ص٥٢٦؛ سيرة النبي صلّى الله عليه وآله (سيرة ابن هشام)، تأليف: أبي عبد الله بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت: ١٥١هـ)، هذّبها: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت: ٢١٨هـ)، تحقيق وضبط وتعليق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: مكتبة محمد على صبيح وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ: ج١ ص١٨٧؛ تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، مصدر سابق: ج٢ ص٧١؛ البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٨هـ: ج٣ ص٦١؛ السيرة النبوية (لابن كثير)، مصدر سابق: ج١ ص٤٧١.

وهذه الرواية لم ترد بسند في كشف الغمّة ولا في بحار الأنوار، كما أنّها وردت بسند ضعيف في مسند أحمد، وهي مرويّة عن عبد الله بن عمرو بن العاص المعروف

بإسرائيلياته وكثرة دسّه وتدليسه، بل هو من روّاد النقل للإسرائيليات، وقد كان الذهبي يُعبِّر عنه بقوله: «وأدمن النظر في كتبهم، واعتنى بذلك». (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق: ج٣ ص٨١)، ممَّا يعني أنَّه أوجد لنفسه مصدراً ومرجعاً يغترف منه، وعبد الله بن عمر هو صنيعة بني أميّة الذين حرصوا كثيراً على الإساءة إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وتشويه صورته المشرقة، فوضعوا عشرات الروايات المسيئة للرسول صلّى الله عليه وآله على ألسنة الصحابة وعلى ألسنة بعض نسائه، حتى صار علماء المسلمين يشكّون في أكثر الروايات؛ نتيجة كثرة الوضع والدسّ، وقد عبَّر الحافظ الدار قطني عن ذلك بقوله: «إنَّ الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود». (أضواء على السنة المحمدية، للشيخ محمود أبو ريه، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، قم، الطبعة الخامسة: ص١٩٣). ولو قطعنا النظر عن سندها فإنّها رواية مكذوبة على رسول الله صلّى الله عليه وآله بنصّ القرآن، فقد أُمرنا بأنَّ نعرض كلام المعصوم عليه السلام على كتاب الله، كما جاء ذلك صحيحاً وصريحاً في روايات عدّة، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنَّ على كلّ حقّ حقيقة، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه**». الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٦٩ ح١ (باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب). وعنه صلّى الله عليه وآله: «**إنّه سيفشو عنّي أحاديث، فما أتاكم من حديثي فاقرأوا كتاب الله واعتبروه، فما وافق كتاب الله فأنا قلته، وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله**». (المعجم الكبير، مصدر سابق: ج١٢ ص٢٤٤). وعشرات الروايات الأخرى الدالّة على هذه القاعدة النبوية.

ولم يخالف في ذلك إلَّا فقهاء بني أميّة بعدما علموا بأنَّ القرآن سيقف بالمرصاد لرواياتهم المكذوبة على رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلى الصحابة، فمنعوا من العمل بقاعدة العرض على كتاب الله، ليتمكّنوا من نشر ثقافة حديثية تحفظ سلطانهم وتحقّق أحلامهم بالعودة إلى سلطة القبائل بدلاً من سلطة الإسلام. وبحسب مقتضيات العرض على كتاب الله نجد رواية المجيء بالذبح وما شابهها مكذوبة على رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ لأنّها مخالفة لنصّ القرآن القائل في حقِّ النبي صلّى الله عليه وآله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ**

نُفيت عنه صلّى الله عليه وآله الغلظة؟ والغلظة أهون من القتل، قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكيف يأتي بالذبح ودينه الإسلام الذي أُسّس منهجه على السلم والسلام، حتى أكّد ذلك في تحيّته المرتبطة بالسلام والرحمة والبركات؟ ولو جاء بالذبح فلِم لم ينفّذ تهديده في قريش يوم ظفر بهم في فتح مكّة؟ وهم الذين اضطهدوه وأخرجوه من موطنه وحاربوه، ولكنّه صلّى الله عليه وآله قابلهم بالعفو والصفح؛ فقد روى الطبري «أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لّما دخل مكّة عنوة قال لأهلها: **يا معشر قريش ويا أهل مكّة! ما ترون أني فاعل بكم؟** قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريم، قال: **اذهبوا فأنتم الطلقاء**، فأعتقهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيئاً، فبذلك يسمّى أهل مكّة الطلقاء»[1].

الثاني: الشاهد البشير النذير

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**﴾ (الأحزاب: ٤٥؛ الفتح: ٨)، أي: يا أيّها النبي إنَّا أرسلناك شاهداً على أمّتك بإبلاغهم رسالة الإسلام، ومبّشراً المؤمنين منهم بالرحمة والجنّة، ونذيراً للمكذّبين منهم

رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، فهل يناسب ذلك أن يكون قد جاءهم بالذبح؟! كما أنّها مخالفة أيضاً لجميع آيات العفو والصفح، والأهمّ من ذلك: أنَّ لحن خطاب الرواية المكذوبة هو أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يُخاطب الكفّار من قريش، ولم يكن يخاطب المسلمين ولا حتى أهل الكتاب، ولكنَّ التكفيريين لما كانت إستراتيجيتهم قائمة على أساس القتل والذبح وإشاعة الخوف والرعب، قاموا بتسريتها على كلّ المسلمين المخالفين لهم؛ جهلاً وتعنّتاً منهم.

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق: ج٢ ص٣٣٧، مصدر سابق.

من النار والعذاب، وقد أدّى وظيفته صلّى الله عليه وآله على أكمل وجه، حتى خُتمت بعثته بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣).

الثالث: الشفاعة لأمّته في الآخرة

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله هو صاحب المقام المحمود؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩)، والمقام المحمود شفاعته في أمّته، كما جاء في الأخبار[1]، وهو صاحب القول المرضيّ والشفاعة المرضيّة؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه: ١٠٩)، وهو صاحب العهد؛ قال تعالى: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٨٧)، فهو صلّى الله عليه وآله صاحب كلّ هذه المقامات المعرفية والمعنوية.

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إذا

---

(١) عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **المقام المحمود: الشفاعة**». (مسند أحمد، مصدر سابق: ج٢ ص٤٧٨). وعن أنس بن مالك: «فكأنّي أنظر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: **فآخذ بحلقة باب الجنّة فأقعقعها، فيُقال: من هذا؟ فيقال: محمد، فيفتحون لي ويرحبّون بي، فيقولون: مرحباً، فأخرّ ساجداً، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك وسل تُعطَ، واشفع تشفع، وقل يُسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾**» (سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٤ ص٣٧٠). وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «سمعت النبي صلّى الله عليه وآله يقول: **إذا حُشر الناس يوم القيامة نادى منادٍ: يا رسول الله، إنّ الله جلّ اسمه قد أمكنك من مجازاة محبّيك ومحبّي أهل بيتك، الموالين لهم فيك، والمعادين لهم فيك، فكافئهم بما شئت، فأقول: يا ربّ الجنّة. فأنادى: فولّهم منها حيث شئت، فذلك المقام المحمود الذي وُعِدت به**». (أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٢٩٨ ح٣٣).

قُمتُ المقام المحمود تشَفّعتُ في أصحاب الكبائر من أمّتي، فيشفعّني الله فيهم»[١]، وفي خبر آخر: «**إنّ لكلّ نبيّ دعوة مستجابة فتعجّل كلّ نبيّ دعوته، وإنّي اختبأتْ دعوتي شفاعةً لأمّتي، وهي نائلةٌ مَن مات منهم لا يشرك بالله شيئاً**»[٢].

والقدر المُتيقّن من شفاعته صلّى الله عليه وآله إنّما تكون للمسلمين من أصحاب الكبائر والمعاصي؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**خُيّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمّتي الجنّة فاخترت الشفاعة لأنّها أعمّ وأكفى، أترونها للمتّقين، لا ولكنّها للمذنبين الخطّائين المتلوّثين**»[٣].

سرّ اقتران رسول الله صلّى الله عليه وآله بالرحمة

وأمّا سرّ اقتران الرسول صلّى الله عليه وآله بالرحمة فذلك لأنّه جاء بالنبوّة الخاتمة، فهو مبعوث لأمّة الإنسان؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ**﴾ (سبأ: ٢٨)، والنبوّة الخاتمة لا يمكن لها أن تنطلق في دعوتها إلّا من منطلق الرحمة، ولذلك جاء فيه قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وإطلاقيّة هذه الرحمة منبثقة من رحمة الله الواسعة، فالله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه الرحمة؛ قال تعالى: ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ (الأنعام: ١٢)، والنبي محمد صلّى الله عليه وآله هو المظهر الأعظم للرحمة، وهذا هو المصداق الأتمّ للوسطية[٤]، بل إنّ وسطيّته صلّى الله عليه

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق، مصدر سابق: ص١٧٧.

(٢) صحيح البخاري: ج٨ ص٨٣، ج ٩ ص١٧٠؛ صحيح مسلم: ج١ ص١٣٠؛ سنن ابن ماجة: ج٢ ص١٤٤٠؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٢٣٨؛ سنن أبي داود: ج٢ ص٥٣٧، من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٣٧٦ ح١٧٧٧. (مصادر سابقة)

(٣) سنن ابن ماجة، مصدر سابق: ج٢ ص١٤٤١.

(٤) ومن هنا يتحقّق الربط المنطقي بين بحث الوسطية وبين نظم العلاقة المعنوية بنبيّ الرحمة

وآله هي من أهمّ تجلّيات خُلقه القرآني، حيث عُرف عنه صلّى الله عليه وآله أنّ خُلقه القرآن، فهو صلّى الله عليه وآله يعيش معاني القرآن وقيمه السماوية.

نظم العلاقة مع أهل البيت عليهم السلام

بعد أن اتّضحت معالم نظم علاقتنا مع الله تعالى ومع الرسول صلّى الله عليه وآله نكون قد انتهينا إلى نظم العلاقة الثالثة، وهي علاقة تقع في طول العلاقتين السابقتين، وهي نظم علاقتنا مع أهل البيت عليهم السلام، التي تبتني على أسس ومناشئ، سنحاول تبيينها بالقدر الميسور.

هويّة أهل البيت

المراد من أهل البيت عليهم السلام في ضوء مباني مدرسة أهل البيت ـ كما تقدّم[1] ـ هم أهل العصمة الأربعة عشر، وهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين علي وفاطمة الزهراء والإمامان الحسن والحسين والأئمّة التسعة من ذريّة الإمام الحسين، السجّاد والباقر والصادق والكاظم والرضا والجواد والهادي والعسكري، والإمام المهدي المنتظر عليهم السلام، وقد جرى إطلاق اصطلاح (أهل البيت) على الأئمّة الاثني عشر لمكان إمامتهم السياسية، وإلّا فهو صادق على المعصومين الأربعة عشر.

أسس علاقتنا مع أهل البيت عليهم السلام وفق الرؤية القرآنية

وأمّا بالنسبة إلى أُسس ومناشئ العلاقة بأهل البيت عليهم السلام فإنّها فكرية عقائدية، وفقهية شرعية، وتربوية أخلاقية، وتوضيحها كالتالي:

محمد صلّى الله عليه وآله. (منه دام ظله).

(١) في مطلع بحث (الوسطية في التشيّع).

الأوّل: المنشأ الفكري والعقائدي

أمّا بالنسبة للمنشأ الفكري والعقائدي فهم عليهم السلام يمثّلون المرجعية الفكرية للأمّة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، وهم القادة والسادة، وخلفاء الله في أرضه، الذين قد فرض الله تعالى علينا طاعتهم ولزوم متابعتهم، وهم حجج الله على خلقه، وقد طهّرهم الله من كلّ رجس، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب: ٣٣).

عن عبد الرحمان بن كثير، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما عنى الله تعالى بقوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾؟ قال: **نزلت في النبي صلّى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين، والحسن، والحسين، وفاطمة عليهم السلام**»[(١)]، وعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن بيان نزول الآية، فقال: «**فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فأدخلهم رسول الله صلّى الله عليه وآله تحت الكساء في بيت أمّ سلمة، ثمّ قال: اللّهُمَّ إنّ لكلّ نبيّ أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي، فقالت أمّ سلمة: ألست من أهلك؟ فقال: إنّك إلى خير، ولكنّ هؤلاء أهلي وثقلي ...**»[(٢)]، وعنه عليه السلام أيضاً في المراد بالآية: «**يعني: الأئمّة عليهم السلام وولايتهم، مَن دخل فيها دخل في بيت النبي صلّى الله عليه وآله**»[(٣)].

ولأجل عصمتهم وطهارتهم، فرض الله تعالى على الأمّة إمامتهم ولزوم طاعتهم؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ**

(١) الإمامة والتبصرة من الحيرة، علي بن الحسين بن بابويه القمّي (والد الصدوق)، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة: ص٤٧ ح٢٩.

(٢) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٢٨٦ ح١.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٤٢٣ ح٥٤.

مِـنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، فعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْـرِ مِـنْكُمْ﴾**؟ فقـال: «**نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام**»(١).

ولا ريب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله هو الأولى بالمؤمنين من أنفسهم بنصّ الكتاب الكـريم؛ قـال تعـالى: **﴿النَّـبِيُّ أَوْلَى بِـالْمُؤْمِنِينَ مِـنْ أَنْفُـسِهِمْ﴾** (الأحزاب: ٦)، وهم عليهم السلام ورثته في ذلك. ففي غدير خُمٍّ أخذ صـلّى الله عليه وآله بيد أمير المؤمنين علي عليه السلام، فرفعهـا حتـى «رُئـي بيـاض آباطهما(٢)، وعرفه القوم أجمعون، ثمّ قال: **أيّها الناس من أولى الناس بـالمؤمنين من أنفسهم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم،** ثمّ قال صلّى الله عليه وآله: **فمَن كنـت مـولاه فعـليّ مولاه، اللّهُمَّ وال من والاه، وعاد من عاداه،** يقولها ثلاث مرّات»(٣).

إذن فمن منطلق العقيدة لابدّ أن تنطلق علاقتنا مع أهل البيت على أساس كونهم الأئمّة الذين قد فرض الله تعالى علينا طاعتهم والتمسّك بهـم، ولـزوم متابعتهم. فمَن تمسّك بهم نجا، ومَن تخلّف عنهم هوى؛ فعن أبي ذر الغفـاري أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «**ألا وإنَّ مثَلهما**(٤) **فـيكم مثَـل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تركها غرق**»(٥)، وكان يقول رضـوان الله تعـالى

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٢٨٦ ح١.

(٢) أي: آباط الرسول صلّى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين علي عليه السلام.

(٣) انظر تخريج الحديث بجميع طرقـه في: الغـدير في الكتـاب والـسنّة والأدب، للـشيخ عبـد الحسين أحمد الأميني النجفي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م: ج١.

(٤) أي: الكتاب العزيز والعترة الطاهرة.

(٥) كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق أبي جعفر بـن عـلي بـن الحـسين بـن بابويـه ،

عليه وهو آخذ بعضادتي باب الكعبة: «ألا وإنَّ مثلهما فيكم كسفينة نـوح مـن ركب فيها نجا، ومن تخلّف عنها غرق، ومثل باب حطّة في بني إسرائيل»[(١)].

الثاني: المنشأ الفقهي الشرعي

إنّ لزوم متابعتهم عليهم السلام في ما صدر عنهم أمر لابـدّ منـه، لأنّهـم تراجمة القرآن، ومدينة العلـم وأبوابهـا وأركانهـا، وجـزء أسـاسيّ مـن الـسنّة الـشريفة، فـإنّ أقـوالهم وأفعـالهم وتقريـراتهم حجّـة؛ بمقتـضى عـصمتهم وإمامتهم، وبمقتضى الوصية بالرجوع إليهم والتمسّك بهم؛ قـال رسـول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّي تارك فـيكم مـا إن تمـسّكتم بـه لـن تـضلّوا بعـدي: أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفـوني فيهمـا**»[(٢)]، وقد أكّد رسول الله صلّى الله عليه وآله معيّتهم علـيهم الـسلام مـع القـرآن في خبر آخر، برواية أمّ سلمة، وهو قولـه صـلّى الله عليـه وآلـه:«**عليّ مـع القـرآن والقرآن معه، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض**»[(٣)].

تحقيق: علي أكبر الغفاري، نـشر: مؤسـسة النـشر الإسـلامي، قـم المقدّسـة، ١٤٠٥هــ: ص٢٣٩ ح٥٩؛ دعائم الإسلام، مصدر سابق: ج١ ص٢٧.

(١) المعجم الكبير، مصدر سابق: ج٣ ص٤٥ ح٢٦٣٧؛ تفسير القرآن العظيم (تفـسير ابـن كثير)، مصدر سابق: ج٤ ص١٢٣؛ ميزان الاعتدال في نقد الرجـال، شـمس الـدين أبـو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق: علي محمد البجـاوي، نـشر: دار المعرفـة، بـيروت، الطبعة الأُولى، ١٣٨٢هـ: ج٤ ص١٦٧.

(٢) سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٥ ص٣٢٨ ح٣٨٧٦.

(٣) أمالي الشيخ الطـوسي، مـصدر سـابق: ص٤٧٨؛ المعجـم الـصغير، مـصدر سـابق: ج١ ص٢٥٥؛ الجامع الصغير، مصدر سابق: ج٢ ص١٧٧ ح٥٥٩٤؛ فيض القـدير، مـصدر

هذا، وقد أبطل الإمام أحمد بن حنبل في روايته لهذا الخبر أيّ احتمال لدخول نساء النبي صلّى الله عليه وآله في أهل البيت عليهم السلام، حيث جاء في روايته: «**إنّي تارك فيكم خليفتين، كتاب الله وأهل بيتي، وإنّهما لن يتفرّقا حتى يردا عليَّ الحوض جميعاً**»[١]، ولا أحد يدَّعي أن تكون واحدة من نساء النبي خليفة، وهذا ما صرّح به العلّامة الآلوسي في ذيل تفسيره لآية التطهير، حيث قال: «وأنت تعلم أنّ ظاهر ما صحّ من قوله صلّى الله عليه وسلّم: (**إنّي تارك فيكم خليفتين** ـ وفي رواية: **ثقلين ـ كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**)، يقتضي أنّ النساء المطهّرات غير داخلات في أهل البيت الذين هم أحد الثقلين؛ لأنّ عترة الرجل كما في (الصحاح) نسله ورهطه الأدنون، و(**أهل بيتي**) في الحديث الظاهر أنّه بيان له، أو بدل منه، بدل كلّ من كلّ، وعلى التقديرين يكون متّحداً معه، فحيث لم تدخل النساء في الأوّل لم تدخل في الثاني»[٢].

وأمّا كونهم تراجمة القرآن وعيبة علم النبي صلّى الله عليه وآله فقد ورد فيه عدّة روايات[٣]، وإنّما بلغوا هذا المقام السامي لكونهم ورثة علم رسول الله

سابق: ج٤ ص٤٧٠ ح٥٥٩٤؛ ربيع الأبرار، محمود بن عمر الزمخشري، منشورات الرضي، قم المقدّسة، طبعة ١٤١٠هـ: ج١ ص٥٢٨.

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج٥ ص١٨٩، مصدر سابق.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي الحسيني البغدادي، المقابلة والتعليق: محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢١هـ: ج٢٢ ص٢٦٨.

(٣) عن سدير، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قلت له: جُعلت فداك ما أنتم؟ قال: **نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجّة البالغة على مَن دون السماء ومَن**

صلّى الله عليه وآله، ولكونهم أعلم الناس بكتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله، وهذا ما جعلهم يتبوَّؤون موقع القيادية الدينية في الأمّة، فهم مراجع الدين وأعلامه، وبذلك يكون الارتباط بهم، والرجوع إليهم، له مبرّراته العلمية والموضوعية، ولم يكن الرجوع إليهم عليهم السلام لمجرّد قرابتهم من رسول الله صلّى الله عليه وآله أو لمجرّد الأمر بمودّتهم عليهم السلام.

الثالث: المنشأ التربوي والأخلاقي

إنّ من دواعي وأسباب لزوم اتّباعهم وطاعتهم، ولزوم مودّتهم، وتقديمهم على أنفسنا، هو أنّهم عليهم السلام المعلّمون والمربّون لنا، ولذلك لا يسعنا أن نستبدل بهم أحداً من الخلق، وقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: «**لا يقاس بآل محمد صلّى الله عليه وآله من هذه الأمّة أحد، ولا يُسوَّى بهم مَن جرت نعمتهم عليه أبداً؛ هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة**»[1].

وأمّا ما ورد في حقّ رسول الله صلّى الله عليه وآله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤)، فهو صادق عليهم أجمعين؛ لأنّهم نفس النبي صلّى الله عليه وآله بنصّ القرآن، كما جاء في آية المباهلة: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ**﴾ (آل عمران: ٦١)، الواردة فيهم عليهم السلام، ولقول رسول

فوق الأرض». (الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص١٩٢ ح٣؛ بصائر الدرجات، مصدر سابق: ص١٢٤ ح٦). وعن أبي حمزة الثمالي، عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام أنّه قال: «**نحن أبواب الله، ونحن الصراط المستقيم، ونحن عيبة علمه، ونحن تراجمة وحيه، و نحن أركان توحيده، ونحن موضع سرّه**» معاني الأخبار، مصدر سابق: ص٣٥ ح٥.

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص٢٧، خطبة (٢).

الله صلّى الله عليه وآله عندما آخى بينه وبين الإمام علي عليه السلام: «**اللّٰهُمَّ إنَّ هذا أخي منّي وأنا منه**»[١]، وقوله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ عليّاً منّي وأنا منه، وهو وليّ كلّ مؤمن بعدي**»، وقوله صلّى الله عليه وآله لبعض المعترضين على الإمام علي عليه السلام: «**ما تريدون من علي، إنّ علياً منّي وأنا منه، وهو وليّ كلّ مؤمن بعدي**»[٢]، ولقوله صلّى الله عليه وآله: «**حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله مَن أحبّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط**»[٣].

علاقتنا بأهل البيت عليهم السلام بين القوّة والضعف

من أهمّ الموارد التي تقوى بها عُرى علاقتنا بأهل البيت عليهم: صلتهم وصلة أرحامهم، فهم رحم رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد قال الله تعالى فيهم على لسان نبيّه صلّى الله عليه وآله: ﴿**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي**

---

(١) انظر: عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، للحافظ ابن بطريق يحيى بن الحسن الأسدي المعروف بالحلّي (ت: ٦٠٠هـ)، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في قم المشرّفة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ: ص١٦٩؛ الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، لرضيّ الدين أبي القاسم علي بن موسى بن طاووس الحلّي (ت: ٦٦٤هـ)، مطبعة الخيام، قم المقدّسة، ١٣٩٩هـ: ص١٤٨ رقم (٢٢٤)؛ كشف الغمّة، مصدر سابق: ج١ ص٣٣٥؛ نهج الإيمان، زين الدين علي بن يوسف بن جبر، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، نشر: مجمع الإمام الهادي عليه السلام، مشهد، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ: ص٤٢٦؛ كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، للعلّامة الحلّي الحسن بن يوسف بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ) ، تحقيق: حسين الدرگاهي، طهران، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ: ص٢٠٦.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض ـ السعودية: ج٥ ص٢٦٢؛ الإصابة، مصدر سابق: ج٦ ص٤٨٧ ح٩١٧٨.

(٣) كامل الزيارات، للشيخ الجليل جعفر بن محمد بن قولويه القمّي (ت: ٣٦٨هـ) ، تحقيق: الشيخ جواد القيّومي، النشر: مؤسسة نشر الفقاهة، في المطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧: ص١١٦.

الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣)، ثمّ أمر سبحانه بصلة رحمهم في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾** (الرعد: ٢١)، وهي رحم آل محمد صلّى الله عليه وآله، فالآية شاملة بإطلاقها لرحمهم فضلاً عمّا ورد في سبب نزولها فيهم؛ فعن أبي بصير عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: «**إنّ الرحم معلّقة بالعرش تقول: اللّهُمَّ صل مَن وصلني واقطع مَن قطعني، وهي رحم آل محمد، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، ورحم كلّ ذي رحم**»[1]، وقد سُئل الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن الآية فقال: «**نزلت في رحم آل محمد عليه وآله السلام، وقد تكون في قرابتك. ثمّ قال: فلا تكوننّ ممن يقول للشيء: إنّه في شيء واحد**»[2].

وعليه فإنّ من الواجب علينا صلة رحم رسول الله صلّى الله عليه وآله المتمثّلة بأهل بيته خصوصاً، وبذرّيته عموماً، وبهذا تشتدّ وتقوى عرى العلاقة بهم عليهم السلام، وإن كان هذا ليس هو الملاك الأوّل؛ فإنّ طاعتهم ومتابعتهم ومودّتهم هي المناطات الأولى في بناء أصل العلاقة بهم وتقويتها، ومنه يتّضح سبب ضعف العلاقة بهم، فإنّ مَن عصاهم أو تنصّل عنهم يكون قد أنقض عُرى العلاقة بهم، فضلاً عمّن حاربهم أو أبغضهم، فذلك نصبٌ صريحٌ، ومخالفةٌ صريحةٌ لنصّ القرآن بلزوم مودّتهم عليهم السلام، وأمّا بالنسبة لقطع صلة رحم آل محمد فذلك أمرٌ مذمومٌ، بل هو ممّن ينطبق عليه قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾** (الرعد: ٢٥).

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٥١ ح٧؛ تفسير العياشي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٠٨ ح٢٩.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٥٦ ح٢٨.

خصوصيات علاقتنا الخاصّة بالإمام المهدي عليه السلام

إنّ لعلاقتنا بالإمام المهدي الحجّة بن الحسن عليه السلام وجهاً خاصّاً يتميّز عن علاقتنا بسائر الأئمّة عليهم السلام، فهم جميعاً أئمّة قد فرض الله تعالى علينا طاعتهم ولزوم متابعتهم، ولكن للإمام المهدي خصوصيّات فرضتها طبيعة المهمّة العظيمة الموكولة إليه، ومن هذه الخصوصيات ما يلي:

١. السعي الحثيث للتمهيد له

وهذه هي وظيفة كلّ مكلّف في عصر الغيبة؛ فالاشتغال في ملذّات الحياة والحرص عليها يجعل الإنسان بعيداً عن التمهيد لظهوره المبارك؛ لأنّ التمهيد يقتضي أن نجعل أنفسنا مستعدّة للتضحية بكلّ شيء من أجل قيام دولة العدل الإلهي، ولا ريب أنّ المنغمس بملذّات الحياة سيكون حريصاً على ملذّاته فلا يُتوقّع منه الاستعداد للتضحية، بل لا يبعد في حقّه أن تحكمه سنّة الاستدراج فيكون حضوره في الخندق الآخر، فالحذر الحذر من الدنيا وملذّاتها.

٢. التواصل مع الإمام من خلال التعريف بمشروعه

إنّما يكون التواصل غير المباشر مع الإمام المهدي عليه السلام من خلال التعريف بمشروعه الإلهي، والدفاع عنه، وهو المشروع المتمثّل بقيام دولة العدل الإلهي، وهذا التعريف يندرج ضمن الوصية النبوية لأمّته، وهي قوله صلّى الله عليه وآله: «**مَن مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية**»(١)، والجاهلية هي جاهلية الكفر والنفاق والضلال؛ فقد جاء في الخبر الصحيح عن الحارث بن المغيرة قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلّى الله عليه

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٣٧٨ ح٢؛ ص٣٩٧ ح١؛ ج٢ ص٢١ ح٩؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج٤ ص٩٦؛ فتح الباري، مصدر سابق: ج١٣ ص٥.

وآله: **من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية؟** قال: **نعم**، قلت: جاهلية جهلاء أو جاهلية لا يعرف إمامه؟ قال: **جاهلية كفر ونفاق وضلال**»[١].

٣. الدعاء له بتعجيل الفرج

وهنا يتعمّق التواصل معه عليه السلام، ولعلّ أفضل الأدعية له عليه السلام هو الدعاء بتعجيل الفرج والظهور، والمسمّى بدعاء الفرج، وهو: «**اللّٰهُمَّ كن لوليّك فلان بن فلان** ـ أي: الحجّة بن الحسن ـ **في هذه الساعة وفي كلّ ساعة، وليّاً وحافظاً، وقائداً وناصراً، ودليلاً وعيناً، حتى تسكنه أرضك طوعاً وتمكّنه** ـ وتمتّعه ـ **فيها طويلاً**»[٢].

وأيضاً الدعاء المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اللّهمَّ عرّفني نفسك فإنّك إن لم تُعرّفني نفسك لم أعرف نبيّك، اللّهمَّ عرّفني رسولك فإنّك إن لم تعرّفني رسولك لم أعرف حُجّتك، اللّهمَّ عرّفني حُجّتك فإنّك إن لم تعرّفني حجّتك ضللت عن ديني**»[٣]، وفي ذيل هذا الدعاء دلالة واضحة على

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٣٧٧ ح٣؛ وقريب منه في: الإمامة والتبصرة، مصدر سابق: ص٨٢ ح٦٩؛ كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق: ص٤١٢ ح١١.

(٢) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٤ ص١٦٢ ح٤؛ تهذيب الأحكام، مصدر سابق: ج٣ ص١٠٢ ح٣٧؛ مصباح المتهجد، مصدر سابق: ص٦٣٠ ح٨٥؛ مختصر بصائر الدرجات، مصدر سابق: ص١٩٣؛ المزار الكبير، للشيخ أبي عبد الله محمّد بن جعفر المشهدي: ص٦١٢، تحقيق: جواد الفيّومي، مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، قم المقدّسة؛ فلاح السائل ونجاح المسائل، للسيد رضي الدين علي بن موسى جعفر بن طاووس (ت: ٦٦٤هـ): ص٤٦، تحقيق: غلام حسن المجيدي، مؤسسة بوستان كتاب (مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ، قم.

(٣) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٣٣٧ ح٥؛ مصباح المتهجد، مصدر سابق: ص٤١١ ح١٤٦؛ كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق: ص٣٤٢.

أنّ عدم المعرفة بالإمام عليه السلام تعني الوقوع في الضلال، وفي ذلك تأييد لما تقدّم من جاهلية عدم معرفته.

أوّليات رصد علاقتنا بأهل البيت وبالإمام المهدي

هنالك أوّليات كثيرة يمكن من خلالها أن نكتشف واقعية علاقتنا بأهل البيت عليهم السلام عموماً وبالإمام المهدي خصوصاً بصفته إمام زماننا؛ منها:

أوّلاً: أن نقدّمهم على أنفسنا، فهم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، كما تقدّم.

ثانياً: أن نرضى لرضاهم ونسخط لسخطهم، ونوالي من والوا، ونُعادي ما عادوا، وهذا هو معنى التولّي والتبرّي، فولاؤهم ولاء لله ولرسوله صلّى الله عليه وآله، والبراءة من أعدائهم براءة من أعداء الله ورسوله، ولا انفكاك بين التولّي والتبرّي، فكما لا يجتمع في قلب المؤمن حبّ الله وحبّ الشيطان، فكذلك لا يجتمع في قلب المؤمن حبُّهم وحبُّ أعدائهم، ومَن اجتمع في قلبه حبّ الطرفين معاً فإمّا أن يكون جاهلاً بهما معاً أو جاهلاً بأحدهما، وإلّا فمع العلم بهما لا مجال لاجتماع حبّهما معاً، فأهل البيت عليهم السلام والإمام المهدي عليه السلام هم ورثة النبيّ صلّى الله عليه وآله في العلم والقيادة والسيادة، فكيف يجتمع مع حبّ النبي صلّى الله عليه وآله حبّ أعدائه؟!

ثالثاً: أن نعمل بوصاياهم، فتقديمُهم على أنفسنا، والرضا لرضاهم والسخط لسخطهم، لابدّ أن تكون له واقعية خارجية، وهذه الواقعية الخارجية تعني الالتزام بخطّهم الأصيل، المتمثّل بالعقيدة والشريعة والأخلاق، لا أن نرسم لأنفسنا خطّاً آخر مخالفاً أو موازياً لخطّهم بحجّة الحداثة أو التجديد، فذلك خروج صريح عن جادّتهم وصراطهم المستقيم صلوات الله عليهم أجمعين، وإنّما الحداثة والتجديد تكونان في ملاحظة عنصر الزمان والمكان في تطبيق النصوص التي صحّت عنهم عليهم السلام، لا أن نتنصّل عنها.

ارتباط علاقتنا بأهل البيت بعلاقتنا بالله تعالى ورسوله

إنّ علاقتنا بأهل البيت عليهم السلام هي الامتداد الحقيقي لعلاقتنا بـالله تعالى ولعلاقتنا برسوله صلّى الله عليه وآله، كما تقدّمت الإشارة لذلك، وبقدر ما نحمله من حبّ وولاء ونصرة ومتابعة لهم وارتباط بهم، نكـون قـد عبّرنـا عن حبّنا وولائنا ونصرتنا ومتابعتنا وارتباطنا بـالله تعـالى وبرسـوله صـلّى الله عليه وآله.

نظم علاقتنا مع أهل العلم والفضل والقيادة الدينية

وفي طول نظم علاقتنا مع العترة الطاهرة عليهم الـسلام يـأتي البحـث في نظم علاقتنا مع أهل العلم والفضل؛ لأنّهم يمثّلون الامتداد الطبيعـي لهـم في العلم والفضيلة، فكما أنّ العترة الطاهرة عليهم السلام ورثـة النبـي صـلّى الله عليه وآله فأهل العلم والفضل هم ورثة النبي والعترة عليهم السلام في العلم والفضيلة، وإنّما ركّزنا على هذا الارتباط لإثارة الجانب المعنوي الذي يجب أن يقع في خطٍّ موازٍ لخطّ العلم، فإذا ما توفّر أهـل العلـم والفـضل عـلى هـذين الخطّين المتوازيين فإنّهم يستحقّون منّا التقدير والاحترام، والمتابعـة والطاعـة، بل إنّ القدح بهم أو التشكيك في لزوم متابعتهم هو قدح وتشكيك في توجيـه الرسول صلّى الله عليه وآله والعترة الطاهرة عليهم السلام للرجوع إلى علـماء الأمّة وفضائلها، وتوصيفهم بأمناء الرسل وأمناء الأمّـة، وأنّهـم المنـار، حتـى قُورنوا بأنبياء بني إسرائيل[1].

---

(١) عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**العلماء أمناء ... العلماء منـار**». الأصـول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٣٣ ح٥. وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صـلّى الله عليه وآله: **الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا**، قيل يا رسول الله: ومـا دخـولهم

وفي ضوء ذلك، وبمنطق تصدّي العلماء للمواقع العليا في أمور القيادة الدينية ومسؤوليّتهم الكُبرى، التي يُصطلح عليها بالمرجعية الدينية الشاملة لأمور الدين والدنيا، لابدّ أن يكون للقيادة الدينية نصيب عظيم من الطاعة والمتابعة على الأمّة، ولابدّ للأمّة من تمكين قيادتها الدينية من تأدية دورها الخطير في حفظ الدين والترويج له والتصدّي بقوّة للشبهات التي يثيرها الأعداء، وأيضاً تمكينهم من أداء دورهم في قيادة الأمّة في مواجهة المخاطر

في الدنيا؟ قال: اتّباع السلطان، **فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم**». الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٤٦ ح٥؛ دعائم الإسلام، مصدر سابق: ج١ ص٨١؛ عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج٤ ص٥٩ ح٢؛ ج٤ ص٧٧ ح٦٥؛ الجامع الصغير، مصدر سابق: ج٢ ص١٩٠ ح٥٧٠١؛ تهذيب الكمال، مصدر سابق: ج٥ ص٨٨؛ سير أعلام النبلاء، مصدر سابق: ج٦ ص٢٦٢؛ الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، مصدر سابق: ج١ ص٦٠٧ ح٣؛ كشف الغمّة، مصدر سابق: ج٢ ص٣٩٩؛ العِدَد القويّة لدفع المخاوف اليوميّة، للفقيه الجليل رضي الدين علي بن يوسف المطهّر الحلّي (ت: ٧٢٦)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، الناشر: مكتبة آية الله المرعشي العامّة، مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ: ص١٥٠ ح٧٣.

وعنه صلّى الله عليه وآله: «**العلماء أمناء أمّتي**». (الجامع الصغير، مصدر سابق: ج٢ ص١٩١ ح٥٧٠٢). وقد عُبّر عنهم في بعض الروايات بأنّهم كعلماء بني إسرائيل؛ فعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل**»، وفي خبر آخر: «**أفضل من أنبياء بني إسرائيل**». أوائل المقالات، للشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي ، نشر: دار المفيد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ: ص١٧٨؛ الصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم، للشيخ زين الدين أبي محمد على بن يونس العاملي (ت: ٨٧٧هـ)، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، إيران، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ: ج١ ص١٣١؛ عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج٤ ص٧٧ ح٧٧؛ منية المريد، مصدر سابق: ص١٣٨؛ ص١٨٢.

التي تلمّ بها، وعدم السماح بالمساس بالقيادة الدينية؛ لأنّها تـؤدّي دوراً تعتمـد فيه على حفظ مكانتها وهيبتها وقوّة تأثيرهـا في وجـدان الأمّـة، ولأنّ القيـادة الدينية تؤدّي دور الإمام في الأمّة، ومن وظائف الإمام في الأمّة، ما جـاء عـن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**إنّه ليس على الإمام إلّا ما حُمّل مـن أمـر ربّـه، الإبلاغ في الموعظة، والاجتهـاد في النـصيحة، والإحيـاء للـسنّة ...**»[1]، وهـذه الأمور الثلاثة تحتاج إلى العلم والمكنة والقدرة على التأثير على أبناء الأمّة.

بعبارة أخرى: إنّ القيادة الدينية ليست وظيفة أو مهنة دنيوية تعتمد عـلى الكفاءة وحسب، وإنّما هي مهمّة ربّانية تشبه إلى حدٍّ كبير مهمّة الأنبياء عليهم السلام، ولذلك لابدّ للأمّة أن تعـي دورهـا الكبـير في حفـظ مكانـة القيـادة الدينية، وعدم السماح للمتصيّدين في المـاء العكـر مـن المـساس بهـا، فـإذا مـا حفظت القيادة الدينية في الأمّة حُفظ الدين وحُفظت الأمّة.

ومن نظم علاقتنا بالقيادة الدينية: الرجوع إليها في أمور ديننا مطلقاً، كـما هو الحال في رجوع غير العالم إلى العالم في مجال تخصّصه، والعمل عـلى إيـصال صوتهم إلى أبناء الأمّة، بل العمل على توجيه الأمّة لصوت قيادتها الدينية.

ومن نظم علاقتنا بالقيادة الدينية: تقديم النصح لها؛ فـإنّ القيـادة الدينيـة وإن كانـت موصـوفة بـالعلم والدرايـة والكفـاءة والحـرص والإخـلاص والاجتهاد في النصيحة للأمّة، إلّا أنّها ليست قيادة معصومة، وبالتالي لابدّ من تسديدها عند وقوع الخطأ، وهذا هـو النـصح الواجـب عـلى الأمّـة تجاههـا، وبالتناصح المتبادل بين القيادة الدينية ورعيّتها يتحقّق العدل والـصلاح، فـإنّ بين القيادة ورعيّتها نوعاً من التخادم المتبادل، وبحـسب تعبـير أمـير المـؤمنين علي عليه السلام: «**قد جعل الله لي عليكم حقّاً بولاية أمركم، ولكم عليّ من**

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص٢٠٢ خطبة (١٠٥).

الحقّ مثل الذي لي عليكم. فالحقّ أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف. لا يجري لأحد إلّا جرى عليه، ولا يجري عليه إلّا جرى له»[(١)].

ثمّ يُبيّن أهمّ الحقوق التي يفترضها منطق التخادم بين القادة ورعيّتها، حيث يقول عليه السلام: «**وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعيّة، وحقّ الرعيّة على الوالي. فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلٍّ، فجعلها نظاماً لألفتهم، وعزّاً لدينهم. فليست تصلح الرعيّة إلّا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلّا باستقامة الرعيّة. فإذا أدّت الرعيّة إلى الوالي حقّه، وأدّى الوالي إليها حقّها، عزّ الحقّ بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء»**[(٢)].

ثمّ ينتقل عليه السلام إلى أخطر الموارد التي يمكن أن تتعرّض له الأمّة، وهو الإجحاف المتبادل بين الولاة والرعيّة، حيث يقول عليه السلام: «**وإذا غلبت الرعيّة واليها، وأجحف الوالي برعيّته اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الأدغال في الدين، وتُركت محاجّ السنن. فعُمل بالهوى، وعُطّلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يُستوحَش لعظيم حقٍّ عُطّل، ولا لعظيم باطلٍ فُعل. فهنالك تذلّ الأبرار وتعزّ الأشرار، وتعظم تبعات الله عند العباد. فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه»**[(٣)].

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص١٩٨ خطبة (٢١٦). يقول الشيخ محمد عبده في معنى السعة في التواصف والضيق في التناصف: «يتّسع القول في وصفه حتى إذا وجب على الإنسان الواصف له فرّ من أدائه ولم ينتصف من نفسه كما ينتصف لها». المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص١٩٨ خطبة (٢١٦).

(٣) المصدر نفسه: ج٢ ص١٩٨ خطبة (٢١٦).

ثمّ يحثّ عليه السلام على التناصح ويبيّن فلسفته، وأنّ تأدية الحقوق لازمة على الجميع، فلا يُعفى منها أحد، وإن كان عظيماً في قومه، أو كان وضيعاً في قومه؛ يقول عليه السلام: «**من واجب حقوق الله على العباد: النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحقّ بينهم. وليس امرؤ وإن عظمت في الحقّ منزلته، وتقدّمت في الدين فضيلته، بفوق أن يعاوَن على ما حمّله الله من حقّه، ولا امرؤ وإن صغّرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه**»[1].

نظم العلاقة بين الأبناء والآباء

مرّت بنا أربعة موارد من نظم العلاقات، نظم علاقتنا مع الله تعالى، ومع رسوله صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، ومع أهل العلم والفضل، ومع الحكومات ومؤسسات الدولة، لننتقل بعدها إلى ساحة اجتماعية تدور في محطّات أربع، نبتدئها بنظم العلاقة مع الأبناء والآباء.

كيفية نظم علاقة الآباء بأبنائهم

لا شكّ أنّ هنالك مسؤوليةً شرعية وأخلاقية من قبل الآباء تجاه الأبناء، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «**كلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيّته**»[2]، وانطلاقاً من ذلك يُمكن نظم هذه العلاقة الأبويّة من أخلاقيّات

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص١٩٨ خطبة (٢١٦).

(٢) مسند أحمد، مصدر سابق: ج٢ ص٥٤؛ صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٢ ص٥٤ ح٢؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٦ ص٨؛ سنن أبي داود، مصدر سابق: ج٢ ص١٣ ح٢٩٢٨؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٣ ص١٢٤ ح١٧٥٧؛ منية المريد، مصدر سابق: ص٣٨١؛ عوالي اللآلئ، مصدر سابق: ج١ ص١٢٩ ح٣.

الأُبوّة نفسِها، وأهمّ أخلاقيّات الأُبوّة هي: أخلاقيّات بناء الثقة وتعزيزها، وأخلاقيّات المتابعة.

أوّلاً: أخلاقيّات بناء الثقة وتعزيزها

حيث تنطلق هذه الأخلاقيّات بزرع الثقة من قبل الآباء في نفوس أبنائهم، فلا يتّهمونهم بأمورٍ تُسيء إلى شخصيّاتهم، ولا يعيبونهم بصفات مُصغّرة لشأنهم كالحمق والجُبن وقصور الفهم وانعدام الشخصية، حتى في الموارد التي تحصل إخفاقات لهم تعكس شيئاً ممّا تقدّم؛ لأنّ هذه التوصيفات وأشباهها تفضي إلى اهتزاز شخصيّة الأبناء، كما أنّ تكرارها ستوجد قناعات خاطئة لديهم محصّلتها زوال الثقة بأنفسهم، وسيكون الآباء قد أنتجوا للمجتمع شخصيّات انهزامية متشائمة فاقدة للقدرة على التواصل مع الأسرة والمجتمع، بل ستكون فاقدة للقدرة على مواجهة الحياة؛ لأنّ الثقة بالنفس هي أرضية الانطلاق وأرضية البناء وأرضية التواصل وأرضية صنع الشخصية الإيجابية.

إنّ فقدان الابن ثقته بنفسه سيجعل منه مشروعاً إنسانياً فاشلاً، وهذه المشاريع الفاشلة غالباً ما تُشكّل خطراً شديداً على المجتمع؛ لأنّ الابن سيحاول أن يدافع عن نفسه، وسيحاول التعويض إزاء ذلك الركام من الهزائم التي أفضت إليها شخصيّته الانهزامية، وغالباً ما يكون التعويض سلبيّاً، فيكون منحرفاً أو مجرماً ومحطّماً للأشياء الجميلة في الحياة، ولذلك نجد رسول الله صلّى الله عليه وآله كثيراً ما كان يحرص على تعزيز الثقة بالنفس، للشباب وصغار السنّ، وبهذه الثقة العالية استطاع الرسول صلّى الله عليه وآله أن يصنع نماذج تاريخية فريدة، تحدّى بهم جبابرة الشرك والكفر في العالم، وقد كان صلّى الله عليه وآله يُسلّم على الصغير والكبير، وقد روي عن أنس بن مالك أنّه قال: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم مرّ على صبيان فسلّم

عليهم وهو مُغذٍ»(١)، أي: وهو مسرع(٢)، وما ذلك منه صلّى الله عليه وآلـه إلّا لحرصه الشديد على بناء الثقة وتعزيزها، وقد اعتبر علـماء الـنفس أنّ الـسلام على الطفل من وسائل الإشباع النفسي والعاطفي له، فضلاً عـن كونـه يزيـل الرهبة من قلبه تجاه الكبار.

من هنا لابدّ من العمل على توفير الظروف المناسبة التي تعزّز ثقـة الأبنـاء

(١) مكـارم الأخـلاق، مـصدر سـابق: ص١٦؛ مـستدرك الوسـائل، مـصدر سـابق: ج٨ ص٣٦٤ ح١، باب (استحباب التسليم على الصبيان)؛ صحيح البخاري، مصدر سـابق: ج٧ ص١٣١؛ المعجم الأوسط، مصدر سابق: ج٤ ص٢٠٤؛ عيون الأثر، مصدر سابق: ج٢ ص٤٢٦.

وعن جابر بن سمرة بن جُنادة السوائي (ت: ٧٤هـ)، قال: «صلّيت مع رسـول الله صـلّى الله عليه وآله وسلّم صلاة الأولى [الظهر] ثـم خـرج إلى أهلـه وخرجـت معـه فاسـتقبله وِلْدَان المدينة، فجعل يمسح خدَيّ أحدهم، واحداً واحداً، قال: وأمّا أنـا فمـسح خـدّي فوجدت ليده برداً وريحاً كأنّما أخرجها من جونة عطّار». مصنّف ابـن أبي شـيبة، مـصدر سابق: ج٧ ص٤٣٩ ح١٢٧؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٧ ص٨٠؛ المعجم الكبـير، مصدر سابق: ج٢ ص٢٢٨؛ نظـم درر الـسمطين، مـصدر سـابق: ص٥٨؛ تـاريخ ابـن معين، للإمام يحيى بن معين البغدادي (ت: ٢٣٣هـ)، برواية أبي الفضل العباس بن محمد الدوري (ت: ٢٧١هـ)، حقّقه وعلّق عليه وقدّم له ووضع فهارسه: عبد الله أحمد حسن، إشراف: مكتب الدراسات الإسلامية لتحقيق التراث، الناشر: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: ج١ ص٧٢ رقم (٣٨٢)؛ سبل الهدى والرشاد في سـيرة خـير العبـاد، للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليـق: الـشيخ عـادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معـوض، النـاشر: دار الكتـب العلميـة، بـيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ: ج٢ ص٨٦. والجونة بالـضمّ: الإنـاء التـي يُعـدّ فيهـا الطيـب ويحرز. انظر: لسان العرب، مصدر سابق: ج١٣ ص١٠٣.

(٢) انظر: لسان العرب، مصدر سابق: ج٣ ص٥٠١.

بأنفسهم، واستعمال الوسائل المؤثّرة في ذلك، والتي من أهمّها التشجيع، فإنّ للتشجيع أثراً كبيراً على نفوس الأبناء، حتى قيل بأنّ للتشجيع أثر السحر في نفس الطفل، لاسيّما إذا كان التشجيع يتجاوز الكلمات إلى الهدية وإن كانت يسيرة؛ فذلك ما يحفّزه أكثر نحو الأفضل.

ومن وسائل بناء الشخصية الواثقة: زرع الحماسة في نفوس الأبناء، وهذا ما يوجّهنا القرآن إليه، كما في تحفيزه للمؤمنين عند مواجهتهم الأعداء؛ قال تعالى: ﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ**﴾ (آل عمران: ١٦٠)، بل ينسب المؤمنين لنفسه، ويعتبرهم حزبه، وأنّهم هم الغالبون؛ قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ (المائدة: ٥٦)، ثمّ يخفّف من آلامهم وأحزانهم بطريقة تنمّ عن الحسّ التشجيعي، وذلك من خلال رفعه للمعنويات؛ قال تعالى: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ**﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ومن مواطن زرع الثقة وتعزيزها في أُفقها الاجتماعي: زرع ثقة الأبناء بمن سواهم من أفراد الأسرة والأصدقاء والجيران والآخرين، ففي ذلك نكون قد أسّسنا لأوّليات التعايش السلمي، بدلاً من التأسيس للشخصية المعتزلة والمتشائمة، فاقدة الارتباط بالمجتمع.

ومن مواطن بناء الثقة في نفوس الأبناء وتعزيزها: مشورتهم وتصويب ما يقع من أخطاء منهم، وقد كان إبراهيم الخليل عليه السلام يستشير ولده إسماعيل عليه السلام حتى فيما أمره الله تعالى به، كما هو المشهور في قصّة منام الذبح، فلم يُقدم على تنفيذ ما أمره تعالى به إلّا بعد أن استشاره؛ قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ (الصافّات: ١٠٢)، فيقول لولده: ﴿**فَانظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾، وإسماعيل عليه السلام كان غلاماً.

ثانياً: أخلاقيات متابعة الآباء لأبنائهم

لا شكّ أنّ جميع ما تقدّم في بناء الثقة وتعزيزها يحتاج منّا إلى رعاية وديمومة، وهي التي يمكن أن نطلق عليها عنوان أخلاقيّات المتابعة، وهي تقع مباشرة في طول أخلاقيّات بناء الثقة، فإنّها أشبه ما تكون بعملية السقي للزرع من قِبل المزارع، فلا يكفي غرس البذرة في الأرض الصالحة، وإنّما لابدّ من تعاهدها بالسقي والرعاية، وإلّا سيكون ما زرعناه على خطر كبير، بل سرعان ما يزول، فإذا ما غابت أخلاقيّات متابعة الآباء لأبنائهم فإنّهم سوف يعرّضون أبناءهم إلى مخاطر كبيرة، كسوء الأخلاق في القول والفعل، فإنّ ما يصدر من الأبناء من أقوال بذيئة وأفعال مشينة، ما هو إلّا بسبب غياب المتابعة لهم، ومن الواضح أنّ الأبناء بطبعهم قد يسيئون الأدب إذا تُركوا بلا متابعة ورقابة مستمرّتين، وعدم الشعور بوجود المتابع والرقيب عادة ما يفسح المجال أمام التجاوز حتى على المقرّبين.

وأمّا فيما يتعلّق بأخلاقيّات المتابعة فينبغي التركيز على نقاط القوّة في الأبناء، والعمل على تعزيزها، كما ينبغي التركيز على نقاط الضعف والعمل على إزالتها بالقدر الممكن، مع الحرص الشديد على إشراك الأبناء بشكل مباشر في إزالة نقاط ضعفهم، بصورة تربويّة وليس بصورة قسريّة.

ولأنّنا بصدد صناعة شخصيّة واثقة ذات بُعد اجتماعيّ فإنّه لابدّ من الحرص على نشر ثقافة الانتماء للمجتمع، فلا يرى الأبناء في أترابهم خصوماً، وإنّما هم رفقاء في المدرسة والمسجد ومرافق الحياة العامّة، وهنا لابدّ من غرس خُلُق إسلاميّ أصيل، وهو إبداء الاحترام للكبير، وإسباغ العطف على الصغير، فإنّنا بذلك سنُمكّن أبناءنا من تجاوز الاختلافات الكثيرة الوقوع بينهم وبين أترابهم.

ولا ريب أنّ أخلاقيات الاعتذار عن وقوع الخطأ، والعفو والصفح والتسامح إزاء إساءة الآخرين، لهي من الأخلاقيات الاجتماعية الأساسية في بُعد المتابعة، ولا يعني ذلك (الاعتذارُ والتسامحُ) غيابَ المحاسبة والعقوبة، بل لابدّ من تفعيل المحاسبة والعقوبة، ولكن لابدّ أن يكون لذلك منطلق تربويّ، كما لابدّ من تولّي الآباء أنفسهم إجراء العقوبة المناسبة في حقّ الابن المخطئ إذا كان المورد يستحقّ العقوبة ولا يُكتفى فيه بالاعتذار، والحذر الحذر من إلزام الابن المساء له بإجراء العقوبة على أخيه، وإن كان يصغره سنّاً؛ لأنّ العقوبات تولّد نوعاً من الأحقاد والضغائن، بخلاف ما لو أجرى الآباء العقوبة بأنفسهم، لاسيّما إذا تمّ تبيين وجه العقوبة للابن المسيء.

ومن أخلاقيّات متابعة الآباء لأبنائهم: تنبيههم بل منعهم من الذهاب إلى الأماكن المشبوهة والمجهولة؛ فإنّ مثل هذه الأماكن غالباً تقع فيها أفعال مشينة تترك أثراً عميقاً في نفوس الأبناء، وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ (التحريم: ٦)، فإنّ الأبناء أشبه ما يكونون بالأرض الخصبة التي تلتقط كلّ بذرة تُزرع فيها، وردةً كانت أو شوكاً، طيّبةً كانت أو نتنة، ولذلك يجب المبادرة لهم بالعناية والتربية قبل أن تمتدّ لهم أيادي السوء، وقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يوصي ولده الحسن عليه السلام بقوله: «**إنّما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لبّك؛ لتستقبل بجدّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته، فتكون قد كفيت مؤونة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة، فأتاك من ذلك ما قد كنّا نأتيه، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه**»[1].

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٣٧ رقم (٣١)، من وصيّة له لولده الحسن عليهما

وأخيراً ينبغي أن يكون واضحاً أنّ بناء الثقة وتعزيزها ومتابعتها، كلّ ذلك سيسهم إسهاماً مباشراً وكبيراً في تهيئة الظروف الموضوعية لصلاح نفوس الأبناء ونجاحهم في حياتهم المستقبلية؛ لأنّنا نكون بذلك قد عزّزناهم برصيد لا ينفد، وهو رصيد الثقة، والذي ينبغي أن لا ينفكّ عن الثقة بالله تعالى؛ لأنّ الإفراط في الثقة في النفس قد يفضي إلى الغرور، ولذلك لابدّ من إكمال دورة بناء الثقة، بالثقة بالله تعالى وبالقيم السامية، فإنّ مع الثقة بالله تعالى لا معنى لليأس والإحباط.

جدير بالذكر: أنّ بناء الثقة وتعزيزها في نفوس الأبناء سوف يخلق شعوراً إيجابياً عميقاً في نفوسهم، ونعني بذلك شعورهم باهتمام آبائهم بهم، ورعايتهم لهم، وأيضاً شعورهم العميق بالأمن والأمان والطمأنينة، فإنّ الأبناء مهما كان البعض منهم أقوياء فإنّهم بحاجة ماسّة إلى الطمأنة المستمرّة، وهذا ما يوفّره الآباء لهم، ولذلك نجد الأيتام قلقين مضطربين؛ لأنّهم قد فقدوا جهة الأمن والأمان لهم، وهم الآباء.

أهمّ خُلقٍ يفرضه القرآن على الأبناء تجاه الآباء

وهنا تكتمل حلقة نظم العلاقة بين الآباء والأبناء. ففي قبال المسؤولية الشرعية والأخلاقية الملقاة على عاتق الآباء في أخلاقيات بناء الثقة والمتابعة، تقع المسؤولية الشرعية والأخلاقية على الأبناء في نظم علاقتهم مع الآباء، ومن أهمّ موارد نظم العلاقة معهم: مورد الطاعة ومورد البرّ بهم، فطاعة الوالدين واجبة ما دامت في حدود ما شرّعه الله تعالى، فإن خرج الوالدان أو

السلام، كتبها إليه بحاضرين ـ اسم بلدة تقع في إحدى نواحي صفّين ـ وهو منصرف من صفّين. وهي وصيّة طويلة، مملوءة بالحكم والدرر التي لا غنى للآباء والأبناء عنها، ولذلك ننصح كثيراً بقراءتها ودراستها وحفظها.

أحدهما عن الحدّ الشرعي فلا طاعة لهما في مورد المخالفة حصراً؛ قال تعالى: ﴿**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا**﴾ (لقمان: ١٥)، أي: فلا تطعهما في مورد المخالفة، وعلى فرض إصرارهما على المخالفة فإنّ عدم طاعتهما في ذلك لا يعني قطع العلاقة والمعروف معهما، بل لابدّ من حُسن عشرتهما، وعدم تصغير شأنهما، كما جاء في ذيل الآية المتقدّمة: ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً**﴾ (لقمان: ١٥)، ولذلك فإنّ البرّ بهما يبقى هو الإستراتيجية القائمة في نظم علاقة الأبناء بآبائهم، غير مشروط بشيء، بخلاف الطاعة فإنّها مشروطة بعدم الخروج على الحدّ الشرعي، حيث تتوقّف الطاعة في مورد المخالفة.

وأمّا بالنسبة لخُلق البرّ، فلا شكّ أنّ برّ الوالدين هو الواقي والحافظ للعلاقة المقدّسة بين الأبناء وآبائهم، وقد قال تعالى: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾ (الإسراء: ٢٣). وفي الخبر عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**أدنى العقوق أفٍّ، ولو علم الله عزّ وجلّ شيئاً أهون منه لنهى عنه**»[١]، فيكون من البرّ مراقبة الأبناء لأقوالهم وأفعالهم تجاه آبائهم، فلا يصدر منهم شيء يُحزنهما أو يُسيء إليهما، فضلاً على الحرص الشديد على السعي الحثيث في قضاء حوائجهما، وعدم الكفّ عن تحصيل رضاهما.

وبرّ الوالدين واجب حتى مع وقوع الظلم منهما، فضلاً عن كونهما محسنين، ولعلّ من أروع مصاديق البرّ بهما: ما عبّر عنه القرآن الكريم بخفض

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٤٨ ح١ (باب العقوق)؛ تفسير العياشي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٨٥ ح٢٨.

جناح الذلّ لهما؛ قال تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾ (الإسراء: ٢٤)، ومن جناح الذلّ: أن لا ترمقهما بنظرة غضب أو ازدراء؛ فعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة**»[(١)].

هذا إذا كانا ظالمين: «فكيف إذا كانا بارّين محقّين؟! ... ولعلّ المراد بعدم قبول الصلاة: عدم الثواب عليها كاملاً، وعدم كونها وسيلة للقرب منه تبارك وتعالى، إلّا أن يرضيهما، لا عدم الخروج من التكليف»[(٢)]، فصلاته صحيحة ولكنّ الأجر والثواب مقرونان برضا الوالدين، لأنّ قبول الأعمال مقرون برضا الله تعالى، ورضا الله تعالى مقرون برضا الوالدين، ومنه يتّضح وجه الحديث النبويّ المشهور: «**رضا الله مع رضا الوالدين، وسخط الله مع سخط الوالدين**»[(٣)].

ومن نظم علاقة الأبناء بالوالدين: النظر إليهما برحمة ورقّة، فضلاً عن حرمة النظر إليهما بغضب أو نقمة، فإنّ الرحمة والرقّة من تجلّيات خفض جناح الذلّ لهما، وقد سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن معنى خفض الجناح لهما فقال: «**لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلّا برحمة ورقّة، ولا**

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٤٩ ح٥.

(٢) شرح أصول الكافي للمازندراني، مصدر سابق: ج٩ ص٤١٩.

(٣) سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٣ ص٢٠٧ ح١٩٦٢؛ المستدرك على الصحيحين، مصدر سابق: ج٤ ص١٥٢؛ صحيح ابن حبّان، مصدر سابق: ج٢ ص١٧٢؛ الجامع الصغير، مصدر سابق: ج٢ ص١٥ ح٤٤٥٧؛ الأدب المفرد، للإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ: ص١١ ح٢؛ روضة الواعظين، مصدر سابق: ص٣٦٨.

ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يدك فوق أيديهما، ولا تقدم قدامهما»[(١)].

نظم العلاقة بين المؤمنين

ما دام المؤمنون كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «**مَثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مَثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى**»[(٢)]، فلابدّ أن يكون نظم العلاقة بينهم بهذا المستوى من المسؤولية وقوّة الارتباط؛ لأنّ الرابطة رابطة إيمانية، بمعنى أنّ الإيمان ملاكها، والإيمان هو الرصيد الحقيقي للمسلم، وما دام الإيمان متحقّقاً فإنّه يفرض تحقيق مقتضياته، ومنها الأخوّة الإيمانية في قبال الأخوّة النسبيّة، ومع أنّ الأخوّة النسبيّة ظاهرة في قوّة الارتباط إلّا أنّها أدنى مستوى من الأخوّة الإيمانية، ولذلك كان أمير المؤمنين علي عليه السلام كثير الافتخار بأخوّته الإيمانية الخاصّة مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فيقول: «**أنا عبد الله، وأخو رسول الله صلّى الله عليه وآله**»[(٣)]، في إشارة منه عليه السلام إلى المؤاخاة بينه

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٥٧ ح١؛ تفسير العياشي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٨٥ ح٣٩.

(٢) تقدّم تخريج الحديث.

(٣) مختصر بصائر الدرجات، مصدر سابق: ص٣٣؛ الفصول المختارة، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)؛ ص٢٩٧، تحقيق: السيد علي مير شريفي، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ: ص١٦٨؛ الإرشاد، مصدر سابق: ج١ ص٣٥٣؛ أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٨٥ ح٣٨؛ شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢٠ ص٢٨٦ كلمة (٢٧٣)؛ شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، للشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، تصحيح وتعليق: مير جلال الدين الحسيني الآرموي، منشورات

وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله[(١)].

طبيعة العلاقة بين المؤمنين وفق العرض القرآني

العلاقة بين المؤمنين قائمة على أصلين من الأصول القرآنية، وهما:

الأصل الأوّل: الأخوّة الإيمانية؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (الحجرات: ١٠)، وهذه الأخوّة تقع في قبال الأخوّة النسبيّة، فالمؤمنون فيما بينهم ليسوا غرباء وإنّما هم إخوة، وأخوّتهم روحيّة، وقد تجتمع الأخوّة الإيمانية والنسبيّة معاً، كما في أبناء الأسرة الواحدة.

الأصل الثاني: الأخوّة الولائية؛ قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ**

جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية في قم المقدّسة، الطبعة الأولى: ص٢٥٨؛ تهذيب الكمال، مصدر سابق: ج٢٢ ص٥١٤؛ البداية والنهاية، مصدر سابق: ج٣ ص٣٣٤.

(١) لمّا كان يوم المؤاخاة في المدينة المنورة آخى رسول الله صلّى الله عليه وآله بين المهاجرين والأنصار، والإمام علي عليه السلام واقف يراه ويعرف مكانه، ولم يؤاخِ بينه وبين أحد، فانصرف علي عليه السلام باكي العين، ثمّ افتقده النبي صلّى الله عليه وآله فقال: «**ما فعل أبو الحسن؟** فقيل له: انصرف باكي العين يا رسول الله. قال صلّى الله عليه وآله: **يا بلال اذهب فَائتني به**. فمضى بلال إلى علي عليه السلام وقد دخل منزله باكي العين، فقالت فاطمة: **ما يبكيك لا أبكى الله لك عيناً**. قال: **يا فاطمة آخى النبي بين المهاجرين والأنصار وأنا واقف يراني ويعرف مكاني ولم يؤاخ بيني وبين أحد**. قالت فاطمة عليها السلام: **لا يحزنك الله، لعلّه إنّما ادّخرك لنفسه**. فقال بلال: يا علي أجب النبي صلّى الله عليه وآله. فأتى علي عليه السلام إلى النبي صلّى الله عليه وآله، فقال له: **ما يبكيك يا أبا الحسن؟** قال: واخيت بين المهاجرين والأنصار يا رسول الله وأنا واقف تراني وتعرف مكاني لم تؤاخ بيني وبين أحد. قال: إنّما ادّخرتك لنفسي، أما يسرّك أن تكون أخا نبيّك؟ قال: بلى يا رسول الله، أنّى لي بذلك. ثمّ أخذ بيده وأرقاه المنبر وقال: **اللّهُمَّ إنَّ هذا أخي منّي وأنا منه، ألا أنّه بمنزلة هارون من موسى**». تقدّم تخريج الحديث.

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، أي: المؤمنون والمؤمنات بعضهم أنصار بعض.

إنّ هذه الأخوّة الإيمانية والولائية من أعظم نعم الله تعالى على المسلمين بعدما كان الناس في الجاهلية يقتل بعضهم بعضاً، ولا يأمن بعضهم للآخر، كما قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا...**﴾ (آل عمران: ١٠٣).

والتعبير عن الأخوّة الإيمانية والولائية بالنعمة يكشف عن كون الإنسان ليس بمقدوره تحويل القلوب من النفرة والإدبار إلى الأُلفة والإقبال، وإنّما ذلك هو فعل الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿**لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (الأنفال:٦٣).

ولأجل إدامة هذه النعمة الإلهية أُمرنا بالتحابب وعدم التباغض، وجُعل الحبّ بيننا شرطاً لدخول الجنة، كما جاء على لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**لن تدخلوا الجنة حتى تحابّوا**»، أمّا كيف نتحابب؟ هذا ما جاء في ذيل الحديث نفسه: «**ألا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[1]، وإفشاء السلام رسالة عالمية لجميع بني الإنسان، تنصّ على وسطية الإسلام والقرآن والنبوّة الخاتمة، ففي السلام رفع جذور الخلاف

---

(١) مسند أحمد، مصدر سابق: ج١ ص١٦٥؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج١ ص٥٣؛ سنن ابن ماجة، مصدر سابق: ج١ ص٢٦ ح٦٨؛ سنن أبي داود، مصدر سابق: ج٢ ص٥١٧ ح٥١٩٣؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٤ ص٧٣ ح٢٦٢٨؛ مصنّف الصنعاني، مصدر سابق: ج١٠ ص٣٨٦ ح١٩٤٤٠؛ مصنّف ابن أبي شيبة، مصدر سابق: ج٦ ص١٤٠ ح٦.

والاختلاف، وطمأنة الإنسان في كلّ زمان ومكان من التجاوز على نفسه وعرضه وماله.

السرّ في ربط الأخوّة بالإيمان والولاء

الإنسان مدنيّ واجتماعيّ بطبعه وجبلّته، ولذلك فهو لا تستقطبه العزلة والانفراد بقدر ما يستقطبه الاختلاط مع الناس والعيش بين صفوفهم، وفي ذلك يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إنّه لابدّ لكم من الناس، إنَّ أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لابدّ لبعضهم من بعض**»[1]، أي: مخالطتهم ومعاشرتهم والتعاطي معهم، وما دام الأمر كذلك فلابدّ من إيجاد الأواصر القويّة والحقيقية من قبل الشارع المقدّس بما ينسجم مع ذلك التوجّه الطبعي والفطري نحو الاختلاط والارتباط، وهنا تدخل الأخوّة الإيمانية والأخوّة الولائية كعنصر أساس مستجيب لهذه الحاجة الفطرية، فإنَّ الشعور بالأخوّة شعور فطريّ تفرضه طبيعة الإنسان، وحيث إنّ الأخوّة النسبيّة هي الظاهرة في الموقف، وحيث إنّها من الممكن عدم وجودها، كما لو كان الإنسان فرداً في أسرته، وحيث إنّها ممكنة الزوال بالموت والافتراق، وحيث إنّها مع وجودها لا تكون بالضرورة مستجيبة لتلك الحاجة الفطرية، من أجل ذلك كلّه، كان لابدّ من وجود أخوّة تتّصف بأمرين مطلوبين فطريّاً؛ الأوّل: الديمومة والبقاء، والثاني: الاستجابة لمقتضيات التآخي، من الحضور في الأزمات والتآزر والتناصح، وغير ذلك، وهذا ما تقوم به الأخوّة الإيمانية والأخوّة الولائية.

إنّ الأخوّة الإيمانية ـ على أهمّيتها وقدرتها على الاستجابة للمتطلّبات الإنسانية ـ كثيرة المصاديق، وسهلة التعويض، فإنّنا نعيش تفاصيلها في كلّ

---

(١) الأصول من الكافي: مصدر سابق: ج٢ ص٦٣٥ ح١.

مكان، في المدرسة والمسجد والشارع والعمل، بخلاف الأخوّة النسبيّة فإنّها قليلة المصاديق، وعسيرة التعويض إن لم تكن محالة.

إنّ عظمة الأخوّة الإيمانية والولائية تكمن في أمرين عظيمين، هما:

الأوّل: أنّها تجعل المؤمن ينظر إلى ما هو أبعد من مصالحه الشخصية.

الثاني: أنّها تربط بين الناس على اختلاف أشكالهم وألوانهم ودمائهم، وأحوالهم وبلادهم وعاداتهم، وتحوّل المجتمع الإنساني إلى أمّة واحدة: ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ (المؤمنون: ٥٢).

كما أنّها الأخوّة الوحيدة التي تقع تحت اختيار الإنسان، بشكلٍ ما، بخلاف الأخوّة النسبيّة فإنّها خارجة تماماً عن اختياره، والإنسان بطبعه يميل إلى ما يختاره لا إلى ما يُفرض عليه، كما أنّ الأخوّة الإيمانية والولائية تفرضان أخلاقيّات كثيرة وعظيمة، من قبيل التكاتف والتعاضد والتزاور وغضّ الطرف عن الأذى الواقع، والتحمّل والتسامح، والحمل على الحُسنى؛ فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنّن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً**»(١)، أي: أن تضع ما صدر من أخيك ممّا يسوءك على أحسن محتملاته حتى يأتيك ما تقطع به فلا تجد له عذراً، وعندئذٍ تبدأ بالمعاتبة، وإن اضطرّك الموقف إلى المحاسبة فلا بأس بذلك مع تغليب المصلحة العامّة في الحفاظ على عنوان الأخوّة الإيمانية بينكما، لاسيّما إذا كان ما وقع منه ليس عمديّاً، وغير مسبوق بأخطاء، فهو أولى بالصفح والمسامحة، فيكون الصفح عنه أدرأ للخطأ

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٦٢ ح٣؛ عدّة الداعي ونجاح الساعي، للشيخ أحمد بن فهد الحلّي، تحقيق: أحمد الموحدّي القمّي، الناشر: مكتبة الوجداني، قم: ص٢٠٦ ح٤.

من العقوبة عليه، بمعنى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصّلت: ٣٤)، وذلك مع وجود العداوة والخصومة فكيف فيمن تربطك به أخوّة إيمانية وولائية، ولذلك يقال بحمل أفعال المؤمنين على الصحّة لا على الشبهة.

جدير بالذكر: أنّ الأخوّة الإيمانية لا تلغي مقتضيات الأخوّة النسبية، بل تؤكّدها، وتقوّي عُراها. وإذا ما تعجز الأخوّة النسبية عن محو الهنات التي تقع بينهم، من تحاسد وتباغض وتباعد وقطيعة، فإنّ الأخوّة الإيمانية قادرة على تجاوز كلّ هذه الهنات؛ لأنّها تتطلّب ما هو أبعد من ذلك، كالتضحية والإيثار والافتداء، فضلاً عن أصل الحبّ والمودّة والتناصح، وعن الاستجابة في السرّاء والضرّاء، وفضلاً عن الدعاء بالخير والصلاح في الدنيا، والعفو والمغفرة لهم في الآخرة، كما يُعلّمنا القرآن في الأدب النبوي؛ قال تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (نوح: ٢٨)، والدعاء لهم بحسن العاقبة والرفقة معهم في الجنّة، حيث لا غلّ ولا أحقاد؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: ٤٧).

التواصل بين المؤمنين وعدم صحّة هجران بعضهم لبعض

من نظم العلاقة بين المؤمنين: ديمومة التواصل وعدم الهجران، ومن أجل حفظ ذلك فلابدّ من التعايش السلمي بين المؤمنين، ومنه عدم التنافس على الدنيا فإنّها مهلكة، وعدم التحاسد والتباغض، فذلك من نفثات الشيطان، وذلك منافٍ لمقتضيات الأخوّة، وقد ورد في وصايا رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**فلا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، وكونوا إخواناً كما أمركم الله**»[1]،

---

(١) الخصال، مصدر سابق: ص١٨٣ ح٢٥٠؛ أمالي الشيخ المفيد، مصدر سابق: ص٤٥

وفي خبر آخر عنه صلّى الله عليه وآله: «**لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلّ لمسلّم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[1]، أي: لا تقطعوا العلاقة بينكم، ولا يشيح أحدكم بوجهه عن الآخر، ولا تفعلوا شيئاً يورث التباغض بينكم، ولا يتمنّى أحدكم زوال نعمة أخيه، وكونوا أمّة واحدة تجمعكم عبادة الواحد الأحد، والأمّة الواحدة متواصلة لا هجرة فيها.

إنّ القطيعة بين المؤمنين تؤدّي إلى التمزّق ونشوء الفُرقة، وظهور الأحزاب المتقاتلة فيما بينها؛ قال تعالى: ﴿**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ (المؤمنون: ٥٣)، أي: فتفرَّق أتباع الدين الواحد إلى أحزاب وفِرق، حتى صار الدين الواحد أدياناً، فتفرّقوا بعدما أُمروا بالاجتماع، وصار من الصعب اجتماعهم وتوافقهم؛ لأنّ كلّ حزب منهم لا يقبل إلّا قوله، ولا يرى إلّا رأيه؛ لأنّه يرى نفسه على الحقّ المطلق، ويرى الآخرين على الباطل، ولذلك ينبغي الحذر ثمّ الحذر من التحزّب والتشرذم، فإنّ الفرقة والقطيعة والتباغض والتقاتل من صفات حزب الشيطان.

صلتنا بالمؤمنين شاملة للأرحام

قد يُظنّ أنّ الأخوّة الإيمانية والولائية إنّما تربط بين المسلمين الأغراب، فلا تكون لها علاقة بين المؤمنين الذين يرتبطون بصلة رحم، ولكنّ الصحيح هو أنّ الأب هو أب لأبنائه نسباً، وهو أخ لهم في الإيمان، وهكذا الإخوة في النسب فهم إخوة في الإيمان والولاء، وبحسب الظاهر أنّ الحقوق والواجبات

ح٦؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج١ ص٣؛ سنن النسائي الكبرى، مصدر سابق: ج٦ ص٢٢٠ ح١٠٧١٨؛ المعجم الأوسط، مصدر سابق: ج٧ ص١١٧.

(١) الخصال، مصدر سابق: ص١٨٣ ح٢٥٠؛ صحيح مسلم، مصدر سابق: ج٨ ص١٠.

ستكثر وتشتدّ بين الإخوة في النسب؛ لأنّهم يرتبطون بثلاثة أنواع من الأخوّة، وهي: الأخوّة النسبية، والأخوّة الإيمانية، والأخوّة الولائية.

وهكذا الحال بالنسبة للزوجة، فهي زوجة وأخت لزوجها في الإيمان، وقد روي أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام لمّا ذهب مع زوجته سارة إلى مصر، سأله ملك مصر عن قرابة سارة له، فقال له: «هي أختي»[1]، وكان يقصد بأنّها أخته في الدين والإيمان والولاء.

نظم العلاقة مع الناس أجمعين

كنّا قد عنينا بالمؤمنين في (نظم العلاقة بين المؤمنين) خصوص المسلمين، وإن كان الإيمان بمعناه العامّ ووفق الاستعمال القرآن، أعمّ من ذلك، وقد تقدّم بيانه[2]. وتتميماً لحلقات نظم علاقات الإنسان نختمها بحلقة (نظم

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٤ ص١١٢؛ تفسير القمّي، مصدر سابق: ج١ ص٣٣٣؛ المعجم الأوسط، مصدر سابق: ج١ ص٢٩١؛ الطبقات الكبرى، مصدر سابق: ج١ ص٤٩. وفي خبر آخر: «بينما هو يسير في أرض جبّار من الجبابرة إذ نزل منزلاً فأتى الجبّار رجل فقال: إنّه قد نزلها هنا في أرضك رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: اذهب فأرسل لها. قال: فانطلق إلى سارة فقال لها: إنّ هذا الجبّار سألني عنك فأخبرته أنّك أختي، فلا تكذّبيني عنده، فإنّك أختي في كتاب الله عزّ وجلّ، وإنّه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك». فضائل الصحابة، مصدر سابق: ص٨٠؛ سنن النسائي، مصدر سابق: ج٥ ص٩٨؛ تاريخ الطبري، مصدر سابق: ج١ ص١٧٢. قال الطبري في توجيه قول إبراهيم الخليل عليه السلام عن زوجته سارة بأنّها أخته: «وتخوّف إبراهيم إن قال: (هي امرأتي) أن يقتله عنها». تاريخ الطبري، مصدر سابق: ج١ ص١٧١.

(٢) راجع: بحث (مراتب الإيمان في القرآن).

العلاقة مع الناس أجمعين)، ونعني بهم غير المسلمين بشكل عامّ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من أصحاب الديانات الوضعية، فإنّ هنالك مساحات مهمّة من العلاقة معهم، سواء ما تواجد منهم في بلداننا العربية والإسلامية، أو فيما تواجدنا نحن في بلدانهم، وهنا نودّ أن ننطلق في بيان نظم علاقتنا معهم من ثلاثة أمور.

الأمر الأوّل: مسؤوليّتنا الشرعية في بيان سماحة الإسلام وقيَمه العظيمة.

الأمر الثاني: مسؤوليّتنا الأخلاقية في الارتقاء بالآخر وإن لم يكن مسلماً.

الأمر الثالث: مسؤوليّتنا الإنسانية تجاه أخينا الإنسان، بقطع النظر عن دينه ولونه وعمله وبلده.

أمّا الأمر الأوّل: فإنّ الدخول في الإسلام موجب على المسلم الكينونة في القيَم الإسلامية الرفيعة، والحرص الشديد على عكس الصورة الناصعة عنه، مع الناس أجمعين، فإنّ صفتك الإسلامية ـ أيّها المسلم ـ هي مسؤوليّتك الأولى، وقد قال تعالى: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ**﴾ (الصافّات: ٢٤)، فيُسألون عن أقوالهم وأعمالهم التي صدرت منهم في الدنيا، ومن تلك الأقوال والأعمال ما يتعلّق منها بمسؤوليّتنا تجاه صفتنا الإسلامية، فهل كنّا لائقين بها؟ أم كنّا غير ذلك؟ كما أنّ صفتك الإسلامية هي رعيّتك، وقد جاء في الخبر: «**كلّكم راعٍ وكلّهم مسؤول عن رعيّته**»[1]، ولذلك علينا أن نتوجّه بعناية فائقة إلى هذه المسؤولية والرعيّة، التي يجب أن تنعكس بصورة ناصعة في تعاطينا مع الآخرين.

وأمّا بالنسبة للأمر الثاني: فإنّ الإسلام إنّما جاء متمّماً للأخلاق، كما جاء في بيان علّة بعثة النبوّة الخاتمة، وعلى لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله في

(١) تقدّم تخريج هذا الحديث النبوي الشريف.

قوله: «**إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»[1]، واللام في قوله (لأُتمّم) تفيد التعليل، ولا ريب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد تمّمها قولاً وعملاً، فاستحقّ أن يُوصف بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤)[2].

وأمّا مكارم الأخلاق فقد ورد بيان جملة من مصاديقها في بعض الأخبار، من قبيل ما روي أنّه جاء رجل إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام «فقال: يا ابن رسول الله أخبرني بمكارم الأخلاق، فقال: **العفو عمّن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك، وقول الحقّ ولو على نفسك**»[3]، وهي أمور عظيمة تحتاج إلى نفوس عظيمة قد تجاوزت الأنا والهوى، ونظرت إلى كمال الأخلاق والسموّ المعنوي، فإنّ كلّ فقرة في الحديث هي مقام أخلاقيّ رفيع، ونظراً لصعوبة الارتقاء إلى هذه المقامات الرفيعة فقد اندرجت ضمن قائمة مكارم الأخلاق، فالأخلاق عالم فسيح، وفي هذا العالم معالم جامعة، وهي مكارم الأخلاق.

وفي خبر آخر عن جرّاح المدائني: أنَّ الإمام الصادق عليه السلام بيّن مصاديق أخرى لمكارم الأخلاق، حيث يقول للمدائني: «**ألا أحدّثك بمكارم الأخلاق؟** قلت: بلى. قال: **الصفح عن الناس، ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً**»[4]، فمَن حمل من مكارم الأخلاق ما يجعله قادراً على النهوض بمسؤوليّته الأخلاقية في نظم علاقته مع الآخر ـ بمعنى استقطاب الآخر

---

(١) مكارم الأخلاق، مصدر سابق: ص٨؛ سنن البيهقي، مصدر سابق: ج١٠ ص١٩٢.

(٢) نقل العلّامة المجلسي قولاً في تفسير الآية، وهو: «سُمِّي خُلُقُه عظيماً لاجتماع مكارمِ الأخلاق فيه». بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٦٨ ص٣٨٢.

(٣) معاني الأخبار، مصدر سابق: ص١٩١ ح١، باب (معنى مكارم الأخلاق).

(٤) المصدر نفسه: ص١٩١ ح٢.

الآخر للأخلاق الكريمة ومكارمها ـ فإنّه يكون قد أدّى وظيفته، والتي توافق بل تنطبق مع الوظيفة الشرعية تجاه الدين والإسلام.

وأمّا الأمر الثالث: فإنّه يمثّل المسؤولية الأوسع مساحة، وهي المسؤولية الإنسانية تجاه الآخرين، فالإنسان أخو الإنسان، مهما اختلف شكله ولونه ولغته وعاداته وتقاليده وانتماءاته واعتقاداته، وقد أدبّنا القرآن الكريم على لغة الخطاب الإنساني، وجعل المقياس بين أمّة الإنسان هو عنصر التقوى، مهما كان دينه ومعتقده؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣)، وهو خطاب صريح بضرورة تقارب الشعوب والقبائل، وتلاقح الأفكار والرؤى لخدمة الإنسان في كلّ زمان ومكان، وبذلك تكون مهمّتنا نحن كمسلمين ومؤمنين تجاه أخينا الإنسان، فليس من حقّ أحد ـ مهما بلغت مراتبه، وعلا سلطانه، وارتفع مقامه ـ أن يقوم باضطهاد أخيه الإنسان، بل المسؤولية الإنسانية تقتضي العمل الدؤوب على إنقاذ الإنسان، وهذا هو خلاصة رسالة الأنبياء والأئمّة والأولياء والصالحين، على مرّ العصور، وأكّدته من قبل النبوّة الخاتمة؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (سبأ: ٢٨)، ومِنْ هؤلاء الذين لا يعلمون شطرٌ كبيرٌ من المسلمين، الذين خنقوا صوت الإسلام، وخندقوه وأطّروه في مساحات ضيّقة لا تليق بدعوة إصلاحية صغيرة تشاطرها عشرات بل مئات الدعوات، فكيف بالإسلام العظيم الذي حمل لواء النبوّة الخاتمة والريادة في حفظ كرامة الإنسان؟

إنّ التعاطي مع الآخر على أساس الخصومة والاختلاف، لا يمتّ للإسلام بصلة، بل لا يمتّ للأديان السماوية الصحيحة بصلة، فضلاً عن

كونه لا يمتّ للإنسانية بصلة، ولـذلك لابـدّ مـن انتـشار الثقافـة الإسـلامية الصحيحة، المنسجمة مع التطلّعات الإسلامية، والقائمة على أصـل التقـارب والتعارف والتبادل في المعارف والخبرات والخدمات، ولعلّ من أروع الـنماذج التاريخية في الإسلام بعد رسول الله صـلّى الله عليـه وآلـه في بيـان هـذا الأفـق الإسلامي الإنساني الرحب: ما جاء في المدوّنة الإسلامية والإنـسانية الخالـدة لأمير المؤمنين علي عليه السلام في عهده التـاريخي إلى مالـك الأشـتر، حيـث يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصـف الرعيّـة الواقعـة تحـت حكـم الإسلام، وما ينبغي للحاكم المسلم العادل رعايته فيهم: «**فـإنّهم صـنفان، إمّـا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم مـن عفـوك وصـفحك مثـل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه...**»[1]، فهذا الـنصّ الإنـساني العميـق، الذي يستحقّ أن يكون وثيقة يُعمل بها في الأمم المتّحدة، يقدّم لنا درساً بليغـاً في احترام الآخر، والعمل على حفظ حقوقه والارتقاء به.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٨٢ رقم (٥٣)، من عهد لـه عليـه الـسلام كتبـه إلى مالك الأشتر لّما ولّاه على مصر؛ شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١٧ ص٣٢ رقم ٥٣.

الخاتمة والنتائج والتوصيات

- الخاتمة
- النتائج
- التوصيات

الخاتمة

في خاتمة مطاف الأبحاث الأربعة نـودّ التوجّـه إلى أمـور تتعلّـق بـالمعطى القرآني والسنّة الشريفة، وبما ينـسجم مـع مـسؤوليتنا في النهـوض بالمـشروع الإصلاحي في قراءة النصّ الـديني وتراثنـا الفكـري والفقهـي والأخلاقـي، وغير ذلك من فقرات المشروع، الذي ظهرت منه عدّة حلقات كفيلة بإعطـاء صورة طيّبة عن مساحة المشروع ومجال حركته.

أمّا الأمور التي نريد بيانها فهي:

الأمر الأوّل: إنّ المعطى القرآني يـستوعب مـشكلات الإنـسان، الفكريـة والعقدية والفقهية والأخلاقية، فلا معنى للتغرّب في الأماكن البعيدة إلّا مـن باب التوسعة والتأكيد، وبالتالي فإنّ تقصّي الحلول بعيداً عن القـرآن لا يعـدو عن كونه محاولة تفريطية سرعان ما تقوّض نفسها، وتجد نفـسها أمـام مفـترق طرق، إمّا العودة إلى المعطى القرآني، أو الإيغال في التمرّد على هذه الحقيقة.

الأمر الثاني: لابدّ من الانفتاح على أصحاب القراءات الأخرى، سواء مـا اعتمد منها على أفهام خاصّة للنصّ القرآني أو مـا اعتمـد منهـا عـلى مـصادر أخرى؛ لأنّ القراءات الأخرى تسهم كثيراً في إعطـاء مـساحات جديـدة مـن المفردات والمعاني والأفكار والتحليل والتصوير، فتكون عاملاً مـساعداً عـلى صقل النتائج الصحيحة، لاسيّما عند اكتشاف الأخطاء.

الأمر الثالث: لابدّ من التفريق بين النصّ الديني وبين قراءتـه، فالقداسـة للنصّ وليس لقراءته، وعليه فلابدّ من التعاطي مـع جميـع القـراءات النـصّية ضمن حدودها وأفقها، حيث لا يمكن أن تشكّل حقيقـة مطلقـة، أو حقيقـة غير قابلة للنقد؛ لأنّ تعطيل الرصد والنقد عن القراءات النصّية سوف يحوّلها

من قراءات للنصّ إلى نصّ مقروء، وما نطالعه من الاشتغال الكبير في شرح المتون التفسيرية والعقائدية والفقهية والفلسفية والعرفانية، وغير ذلك من متون علمية، يكشف عن التعاطي العملي مع تلك القراءات ـ المطروحة على شكل متون ـ على أنّها نصوص مقروءة، وبهذا التحوّل الخطير وُجدت عندنا عشرات المتون القراءتية في عرض المتون النصّية التي لا تنطبق في الأصل إلّا على القرآن والسنّة الشريفة.

الأمر الرابع: لابدّ من التخلّص من خندقة النصّ في الزوايا الضيّقة، بمعنى التعاطي مع آيات القرآن الكريم على أنّ شطراً كبيراً منها يحكي وقائع تاريخية، والصحيح هو أنّ هذه النصوص تعكس تجارب إنسانية يُراد من الإنسان أن يعيها ضمن واقعه الجديد، فهي ليست نصوصاً تاريخية قد سيقت للتسلية أو للموعظة بمعناها الأخلاقي الصرف، وإنّما هي نصوص للحياة، مفعمة بالحيوية والعطاء.

الأمر الخامس: ينبغي أن يُلاحظ في القراءات النصّية مساحات التطابق مع الواقع الخارجي، بمعنى: ملاحظة البعد الميداني؛ لأنّ ميدانية النصّ ملحوظة فيه بالقدر الذي لوحظت فيه مساحته النظرية.

النتائج

بعد تلك الجولة بين دور القرآن في حياة الإنسان والوسطية القرآنية ومراتب الإيمان ونظم علاقات الإنسان، نكون قد انتهينا من بيانات هذه الحلقة الفكرية القرآنية التربوية، وبغية تركيز الأفكار الرئيسة الواردة في هذه الحلقة فقد ارتأينها عرض نتائج البحث بصورة طولية مترابطة.

أوّلاً: دور القرآن في حياة الإنسان

- حاجات الإنسان حسّية مادّية، ومعنوية غيبية، فلابدّ لمنقذه (وهو

القرآن الكريم) أن يكون مستجيباً له في تحقيق ذلك.

• تبليغ الرسالة القرآنية مسؤولية حَمَلَة القرآن، ولتحقيق هدفها لابدّ من مراعاة شروط إيصال الرسالة، وأهمّها: (ملاحظة التوقيت المناسب، وأن لا يكون المخاطب منفصلاً في فكره وتوجّهه عن المتكلّم، وعدم التعاطي مع المخاطب بمنطق الفوقية، والتركيز على لغة الترغيب أكثر من التركيز على لغة الترهيب، وإشراك المخاطبين في المادّة الرسالية).

• رغم أنّ الإنسان محاصر بالوجود المادّي إلّا أنّه لا ينفكّ عن التطلّع إلى العوالم غير المرئية، بداعي الحاجة الصميمية المنبثقة من أعماقه، فالإنسان قبل أن يكون جسداً فهو روح وقلب وعقل.

• الغيب حقيقة واقعية تستجيب له وفق رسومها الروحية والمعنوية، ولذلك من الخطأ ربط حاجتنا المادّية بالسقف المعنوي، إذ لابدّ مع توجيه حاجتنا المادّية وفق مقتضيات السببية، فليس منطقياً أن يتوجّه الجائع للسطح المعنوي المجرّد فيطلب طعامه وشرابه، ومن يفعل ذلك فهو صريع لأحلام اليقظة.

• طلب المدد من الغيب طلب واقعيّ ولابدّ له من التوجّه إليه، وإلّا فالإنسان ليس حيواناً بوهيمياً، مادّي الحركة والسلوك.

• وظيفة الإنسان هي التعرّف على خصائص العالم وتفصيلاته بالقدر الممكن، وهو غير مقتصر على الوجود المادّي.

• من صفات الله سبحانه الإطلاقية في الوجود والعلم، ولهذه الإطلاقية انعكاسات عظيمة على النصّ القرآني، حيث تجعل من النصّ مادّة منفتحة على طبيعة المتكلِّم وكمالاته، ومن ثمّ ستكون لها انعكاسات على كلّ من يقرأ ذلك النصّ قاصداً فهمه.

• النصّ المقروء هو تعبير آخر عن قراءة شخصية المتكلِّم، فيكون فهمنا من القرآن بقدر فهمنا من شخصية المتكلّم الموصوف بالإطلاقية، وعليه فإنَّ

غاية ما نصل إليه من فهم لا يعدو عن كونه مرتبة من مراتب الفهم في ذلك السلّم الطولي المراتب، الذي قد تُلحظ له نقطة انطلاق ما، ولكنّها لا تنتهي عند حدٍّ؛ تبعاً لمقتضيات الحقيقة الإطلاقية.

• الحقيقة الإطلاقية العلمية والكمالية لشخصية المتكلّم تفرض علينا واقعية مراتبية فهم القرآن، وليس لأحد أن يدّعي امتلاك ناصية القراءة التامّة له، إلّا إذا ادّعى لنفسه الإطلاقية في الوجود والعلم والكمال.

• إنَّ الفهم الصحيح للقارئ ليس إلّا قبساً ومرتبة من تلك الحقيقة الإطلاقية التي تمثّل حقيقة واحدة جامعة بسيطة مجرّدة، تحكي التجلّي الأعظم لله تعالى، ومنه يتّضح قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.

• إنَّ الخطاب القرآني قد لاحظ أعلى مستويات الكمال التي يُمكن أن يصل إليها الإنسان، وإنّه في كلّ ذلك سوف يبقى غضّاً، مما يعني بالضرورة وقوع التجدّد في معانيه.

• العالم الآفاقي يُمثّل الوجود التفصيلي، والعالم الأنفسي يمثّل الوجود الإجمالي، وأمّا القرآن فهو صورة ما في هذين العالمين إجمالاً وتفصيلاً.

• القرآن منظومة وجودية جامعة للكمالات الوجودية المنبسطة في عالم الإمكان، فهو ليس مجرّد ألفاظ أو معانٍ ذهنية، وإنّما هو الحبل الممدود بين السماء والأرض.

• إذا ما كان (المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ)، فمن باب أولى أن يكون موجّهاً لحركة الإنسان؛ لأنّه مزيج من الفكر والإرادة، وهذان الأمران يشكّلان المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان.

• للقرآن دور تأصيلي وتدعيمي في بناء المحتوى الداخلي للإنسان، حيث يوجّهه إلى تحصيل العلم والمعرفة والرقي المعنوي، بل يمنحه الشيء الكثير من ذلك، كما يحذّره من حطام الدنيا الزائف وركامها.

• محال أن يلتفت الإنسان إلى مقام خلافته الإلهية والتعرّف على كمالاتها وهو خلو من المحتوى الداخلي، الإلهي الصنعة، البشري التوظيف.

• من أهمّ أدوار الإمام المهدي عليه السلام: الكشف عن الزيف التاريخي الذي اكتسب صبغة الشرعية من إسلام محورية الحديث، واستنباط سننٍ من القرآن بقدر ما تحتاجه الإنسانية إلى يوم القيامة، أو بيان طريق استلال السنّة المتبقية أو المطلوبة من القرآن الكريم.

• لم تأخذ المعطيات القرآنية اتجاهاً فرديّاً خالصاً، كما أنّها لم تأخذ اتجاهاً اجتماعياً خالصاً، وإنّما مازجت بين الفردية والاجتماعية معاً، والأحكام الشرعية أوضح شاهد على ذلك.

• إنّ الإنسان بذاتيته لا يستطيع أن يتخلّى عن فرديته وخصوصيته، وبطبيعته ومدنيته لا يستطيع التخلّي عن اجتماعياته، والقرآن مستجيب لذاتيته ومدنيته؛ لأنّه أطروحة السماء المحقّقة للنموذج الأمثل للإنسان والمجتمع، والمحقّقة للسعادة والكمال.

• القرآن ليس مجرّد نصّ دينيّ ملاكه التعبّد ولزوم المتابعة، وإنّما هو منظومة وجوديّة جامعة لما يحتاجه الإنسان في بعديه الأنفسي والآفاقي.

• لابدّ من اجتماع العلم والطاعة لينتجا تقوى حقيقية، غير صورية؛ لأنّ التقوى أصلٌ قوامه العلم والطاعة، فلا العلم وحده ينتج تقوى، ولا الطاعة والتنسّك وحدهما ينتجان تقوى.

• الإفراط في العبادة والتفريط بالعلم ينتجان تقوى مزيّفة، ولذلك ورد التنديد بالرهبانية المفرطة، والتنديد بالعلم المصحوب بالجحود.

• سُمّي القرآن الكريم بالذكر لأنّ فيه ذكر الله تعالى وذكر الآخرة، وذكر الإنسان وبيان سبيل شرفه وعزّته، وأيضاً لأنّه جاء بالموعظة والتذكرة، ولأنّ دعوته إنسانية موجّهة للجميع، ولكونه موفّراً لأرضية الطمأنينة المطلوبة، فهو

ذكر في قبال الغفلة عن كلّ ذلك.

● القرآن يحقّق التوازن والاستقرار للإنسان المضطرب الذي تعصف به الابتلاءات المتكرّرة، ومن دونه ستلتهمه صرعة البأساء وسطوات البلاء.

● الإنسان النوعي لا يمتلك صورة واقعية عن طبيعة الابتلاءات، ولا يدرك واقعية الخير والشرّ، بل هو كثير الخلط في ذلك؛ نتيجة اعتماده على الظواهر، مع أنّها ليست مقياساً حقيقياً للكشف عن الخير والشر.

● الابتلاءات في فلسفة الكمالات الإلهية كلّها خير؛ لأنّ المنظور هو جهة الارتقاء فيها، فالخير الظاهر مطلوب معه الشكر، والشرّ الظاهر مطلوب معه الصبر، والشكر والصبر جناحان معنويان للارتقاء، والارتقاء خير.

● الخير ما بقي خيراً للإنسان في الدنيا والآخرة، لا كلّ ما تنتفع في الظاهر منه، والشرّ ما بقي شرّاً له في الدنيا والآخرة، لا كلّ ما تتضرّر في الظاهر منه.

● لا قُرب من دون القرآن، ولا بُعد إلّا بهجره، وهجره واقع على مراتب، فكلّما عظمت الهجرة عظم البُعد، والعكس بالعكس.

● النصيب الدنيوي كمال وليس نقصاً، بخلاف المتصوّر، فالطعام ضرورة حياتية، وفيه كمال مطلوب عقلاً وشرعاً وعرفاً، ولذلك لا ينبغي الاغترار بكلمات تفيد الانقطاع عن الدنيا، فذلك هدم للحياة وهدم لقوام الإنسان.

● أعطى القرآن للسعادة مساحات أغفلتها الرؤية الفلسفية والعرفانية معاً، لأنّه لم يقتصر على السعادة العقلية والروحية، فجمع معها السعادة الحسيّة، ممّا يعني أنّه قد لاحظ فطرة الإنسان وقدَّر لها احتياجاتها.

● خُلقت الحياة للعمل الصالح فيها، ولتكون مزرعة للآخرة، وإنّما وُصفت باللهو واللعب والزينة للإشارة إلى تصرّمها وسرعة زوالها، ولتحذير الإنسان من الانسياق إليها وترك هدفه الأعظم في لوحة الوجود.

ثانياً: الوسطية في القرآن الكريم

• لو فتّشنا في كلمات الكثير من أدعياء الوسطية نجدهم أصحاب فتن، وطائفيين وتكفيريين وإقصائيّين، لأنّهم يرون في أنفسهم الحقّ المطلق وما عداهم على الباطل.

• ليس وسطياً ولا قرآنياً من لا يرى للآخر فرصة سانحة أن يكون فيها على الحقّ، ولو في بعض ما هو عليه، بمعنى: أن تحتمل الحقّ في الآخر، وأن ترى الخير في الآخر ما تراه في نفسك، وأن تنظر للحقّ من غير إسقاطات مسبقة، وأن يقوم تعاطيك مع الآخر على مبدأ الاحترام والتقدير وحسن الظنّ به.

• الوسطية هي الطريقة الأمثل في العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك، فلا إفراط متطرّف، ولا تفريط مُضلّل، وما وقع من الأمّة في الأمّة وفي غيرها من الأمم نتاج طبيعيّ للخروج من حيّز الوسطية القرآنية والدخول في الإفراط أو التفريط.

• من معاني الوسطية: الوسطية في التعاطي مع مقتضيات تركيبة الإنسان، والوسطية بين الشدّة المفرطة والضعف المفرط، والوسطية بين الشيوع في الملكية وبين التفرّد في كلّ شيء، والوسطية في التعاطي مع الأنبياء عليهم السلام؛ الوسطية بمعنى العدل والفضل والرفعة.

• شهادة أمّة الإسلام على الأمم ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ في الآخرة، ليست شاملة لجميع المسلمين؛ ففيهم فاسقون ومنافقون ومراءون وقتلة ومجرمون، فيكون المقصود أئمّة الحقّ والأولياء والأتقياء والصالحين.

• الوسطية المثلى هي الصراط المستقيم، فيكون من معاني ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾: الهداية إلى الطريقة الوسطى والمثلى.

• استعمل القرآن الكريم ألفاظاً أخرى غير الوسطية وأراد بها معنى الوسطية والاعتدال، منها: القصد والتوسّط في المشي ورفع الصوت، والوسطية في الطعام، والوسطية في الإنفاق على النفس والأسرة والمعارف.

• الوسطية في عقيدة فعل الإنسان: أن يكون الإنسان في الأصل مخيّراً في أفعاله، ولكن ليس مأخوذاً على إطلاقه، بمعنى أنّه مقترن بالإذن الإلهي (الإذن التكويني)، ومقترن بالتوفيق الإلهي، وهذا من المعاني الميسّرة لنظرية الأمر بين أمرين.

• الاقتصاد في العبادة لا يعني ضرورة التقليل منها، وإنّما المراد هو عدم الإجهاد ولحوق الأذى جرَّاء ذلك، فالإكثار من النوافل دون تأثّر الفرائض كمالٌ مطلوب.

الوسطية في أخلاقيات الحبّ والبغض: هي أن لا يبالغ الإنسان في حبّه فيكون مغالياً، ولا يبالغ في بغضه فيكون قالياً.

• العدل من القواعد القرآنية الممكنة التحصيل للجميع: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾، ومن قواعده الممكنة ـ عادة ـ للأخيار من هذه الأمّة: الدفع بالتي هي أحسن، والتعاطي مع العدوّ بحميمية؛ ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾؛ لأنّهم جمعوا بين فضيلة الصبر ونعمة الحظّ المقرون بمقدّماتهم الحسنة، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾.

• كلّما بلغ الإنسان في سيره وسلوكه مرتبة معرفية أو معنوية جديدة فإنّ مسؤولية البقاء على وسطيّته ستكون أصعب وأعقد، وبهذا تتّضح مدى صعوبة مهامّ المصلحين في حفظ وسطيتهم وسط هذا الركام من التطرّف.

• **الوسطية الفردية**: أن لا يهمل الإنسان مصالحه الشخصية، ولا أن تكون هي هدفه الأساسي في هذه الحياة، وأن ينهض بمسؤولياته، فيتحمّل ما يقع منه من الأخطاء ولا يُحمّلها لغيره.

• **الوسطية الاجتماعية**: أن يكون الإنسان نافعاً في وسطه الاجتماعي من غير أن يلحق بنفسه الضرر المعتدّ، وأن لا يلحق الضرر بمجتمعه.

• إنّما يراد بالعلم العمل، والعمل غير المسبوق بعلم لا يكون صحيحاً، فالعلم الذي لا ينتفع منه الناس إسراف وهدر للوقت والطاقة وتفريط في الوظيفة، والعزوف عن تحصيل العلم هو الآخر إسراف.

• الوسطية في العلم تحصيل للعلم النافع، المقتضي للعمل به، والوسطية في العمل تكون بين الترك وبين كونه غير مسبوق بعلم، فترك العمل تفريط، كما أنّ العمل بلا علم إفراط.

• الوسطية لا ترى الصراع مذموماً في كلّ موارده، ولا الحوار ممدوحاً في كلّ موارده، وإنّما منطقها قائم على أساس الأولويات، مع تقديم الحوار قدر الإمكان.

• من أوّليات رسوم الحوار المنتج: أن لا يكون الهدف الحقيقي منه هو العمل على تضعيف الآخر، وأن يقوم الحوار على حسن الظنِّ، وأن يعتمد على الأخوّة الإيمانية، وأن يعتمد على العقل بمعيّة النصوص الدينية، والحرص على التعاطي الجدّي في طلب الحقيقة، والابتعاد عن المنفّرات التي تفيد التضليل والتفسيق والتكفير، وأن تعتمد لغة الإصغاء للآخر وعدم مقاطعته عند عرض وجهات نظره، مع إعطاء النفس فرصة العود عمّا بنت عليه مسبقاً، في صورة ظهور بطلانه، ولابدّ من معرفة سبب الحوار، وعدم الغياب عنه، فيما إذا كان السبب إيجابياً، وأخيراً: الخروج الآمن من الحوار فيما إذا احتدم الحوار وانتفت فرصة الخروج بالنتائج المرجوّة.

• للإيمان صلة وثيقة بالوسطية؛ لأنّ الوسطية في صورها ومواردها إنّما تدور حول الحقّ والعمل بها، ولذلك فالإفراط والتفريط تعبيران عن مخالفة الحقّ، فيكون الحقّ هو الملتقى الواقعي بين الوسطية والإيمان.

• هنالك طريق عظيم للدخول إلى واحة الإيمان، أو لتعميقه، وهو طريق الوسطية، فالوسطية طريق أمثل لتحقيق الإيمان الحقيقي، فيكون المعيار الجديد في تشخيص واقعية الإيمان هو الوسطية.

• إنّ الوسطية هي طريقة تفكير قبل أن تكون سلوكاً، بمعنى: أنّ السلوك الوسطي لا يجد له حيّزاً في الخارج ما لم تسبقه الوسطية في التفكير، ولذلك فإنّ الغالب في السلوك غير الوسطي غياب التفكير الوسطي.

• لقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾، مفهوم لا يقتصر على أهل الكتاب، فهو شامل لكلّ دين ومذهب وحزب.

ثالثاً: الوسطية في التشيّع

• التشيّع اصطلاحاً يُطلق على أتباع مدرسة أهل البيت، الذين يعتقدون بالزعامة الدينية والسياسية لأهل البيت عليهم السلام على الأمّة.

أهل البيت أوّلهم رسول الله وآخرهم الإمام المهدي عليهم السلام.

• اصطلاح الشيعة قرآنيّ؛ قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ**﴾.

• وسطية التشيّع في الفكر والعقيدة تعني: التعاطي مع سائر المسلمين الذين لا يعتقدون بخصوصيّات التشيّع، بسلمية عالية، فلا يُكفّرون مسلماً، ولا يخرجونه عن ربقة الإيمان العامّ، فكلّ المسلمين عندهم مؤمنون بالمعنى العامّ للإيمان، بل بالإيمان الخاصّ.

• الضابط الذي في ضوئه يكون الشيعي شيعياً إمامياً اثنا عشرياً يتشكّل من الإقرار بإمامة وعصمة الأئمّة الاثني عشر، والعصمة شرط أساسيّ

للملتفت، فمن لم يكن ملتفتاً لأصل العصمة فلا يشترط فيه ذلك ليكون شيعياً، والإقرار بكونهم مفترضي الطاعة، وهو أمر لابدّ منه، والالتزام بالتولّي لهم والتبرّي من أعدائهم.

• الالتزام بالتولّي واجب، وواجب إظهاره أيضاً إلّا في بعض الحالات المتعلّقة بالتقيّة، وأمّا التبرّي فواجب الاعتقاد حتماً، ولكنّ إظهاره ليس شرطاً حتى في صورة عدم وجود التقيّة، فضلاً عن وجودها.

• الوسطية في التشيّع على مستوى الفكر تتّصف بالانفتاح الكبير على دوائر الرصد والنقد، فالمقدّسات التي لا تقبل النقد معلومة ومحصورة عندنا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وآله وبأهل البيت عليهم السلام، وما دون ذلك فكلٌّ قابل للرصد والنقد.

• التجاوز على رموز الآخرين من المسلمين وغير المسلمين من غير أمّة الكفر ممنوع شرعاً وعرفاً وقانوناً، وكلّ من تطاول عليهم بتحقير رموزهم أو النيل منهم فهو متطرّف، ولا يُعتدّ بقوله، كائناً من كان.

• التشيّع الوسطي على مستوى الفكر والعقيدة يُلزم أتباعه بعدم ركوب موجات التقديس أو الانغماس في ظلماتها، فإنّما انطفاء الفكر وتخدير العقل يكون بهالات التقديس الباطلة.

• منع التقديس للأشخاص يسري إلى عدم التقديس لنظرياتهم وأفكارهم ونتاجاتهم.

• كلّ حكم شرعيّ لا ينسجم مع وسطية الفكر والعقيدة، مردودٌ على صاحبه، سواء كان حكماً إفراطياً أو تفريطياً، بل هو كاشف عن خلوّ المُفتي بذلك عن الرؤية العقدية الصحيحة.

• وسطية التشيّع في الفقه والأحكام ترتكز على أصل عظيم القدر، وهو الاجتهاد، ولذا فهي تقتضي مراعاة الزمان والمكان في استنباط الأحكام،

فليس صحيحاً تسرية الأحكام بكلّ حيثياتها إلى كلّ زمان ومكان.

● ليس من المنطقي ولا من الوسطية القرآنية: أن نحاكم المسلم الأوربي بفقهٍ يعسر حتى على المسلم الذي يعيش في بلد عربي أو إسلامي.

● إذا ما وجدنا تطرّفاً في أخلاقنا وسلوكياتنا فلابدّ أن نعلم بأنّنا لسنا وسطيين في المراتب السابقة، في العقيدة والأحكام الشرعية.

● في الأخلاق والسلوك: لابدّ من مراعاة تأثير الزمان والمكان على طبيعة الأخلاق والسلوك.

● الوسطية في الحكم والإدارة تعني تغليب المصلحة الوطنية على المصلحة القومية والعرقية والفئوية والحزبية، وتغليب المصلحة الإسلامية الجامعة على المصلحة المذهبية الضيّقة، وهذا ما يحتاجه أتباع مدرسة أهل البيت بشدّة؛ لأنّهم في طور التحوّل من المعارضة والمقاومة إلى الدولة والحكم والإدارة في مساحات غير قليلة من العالم العربي والإسلامي.

● لابدّ لأتباع مدرسة أهل البيت أن يتدارسوا واقعية الدولة المدنيّة بصفتها جامعة للأديان والمذاهب والأعراق المختلفة، وأن لا يسمحوا للرؤى المذهبية الضيّقة أن تعصف بهم، حتى في صورة مقابلتهم بمعارضات شديدة من قبل الآخرين.

● على من تسنّموا موقع القيادة والحكم والإدارة من أتباع مدرسة أهل البيت أن يقدّموا تضحيات كثيرة وعظيمة، وأن يعضّوا على الجراح العميقة، وأن يُغلّبوا لغة العفو والتسامح على لغة العقوبة والانتقام.

● لابدّ أن يكون النظر إلى إنسانية الإنسان هو أصل التعاطي معه، وليس إلى الانتماء والولاء، وهذا الأمر ضروري جدّاً بالنسبة لأهل الحكم وإدارة شؤون الدولة.

● على أتباع أهل البيت أن يتخلّصوا من الرؤية السوداوية للحياة؛ قال الله

تعالى: ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، وأمّا الترابية فليست الانقطاع عن الحياة أو النظر لها نظرة سوداوية متشائمة، فذلك ليس من الدين بشيء، وإنّما المراد هو التعاطي بطريقة الأسياد عليها لا العبيد لها.

● إنّ الدنيا دار ممرّ، والآخرة دار مقرّ، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، والأخذ لا يكون بالانقطاع عن دار الممرّ، وإنّما بالتعاطي معها وفق مقاييس الوسطية القرآنية.

رابعاً: مراتبية الإيمان في القرآن

● جرت العادة على تقسيم الإيمان إلى قسمين: العامّ والخاصّ، وهما حاكيان عن واقع الأُمَّة الإسلامية، أي: (السنّة والشيعة)، فكان الإيمان العامّ صفة السنّة، والإيمان الخاصّ صفة الشيعة، والنتيجة الحتمية هي اتّصافهما بالإيمان، ولذلك فالإيمان ليس حكراً على فئة مسلمة دون الأُخرى، فالكلّ مسلمون مؤمنون.

● للإيمان خصائص كثيرة، منها: أنّه توجُّه وانسياق قلبيّ، وأنّه لابدّ أن يكون متعلّقاً بموضوعات عينية خارجية، وأنّه اختياريّ النشأة، وقابل للإيجاد وللزوال، وقابل للزيادة والنقصان، ولذلك فهو مراتبيّ، وأنّه لابدّ أن يكون مسبوقاً بالعلم والمعرفة.

● الإيمان مقولة مراتبيّة تشكيكيّة، فهو مفهوم مُشكّك وليس متواطئاً، وتشكيكيّته تعني الاختلاف بين مصاديقه من حيث الشدّة والضعف، فهو ليس على درجة واحدة، بل لكلّ مؤمن درجته الإيمانية، وبالتالي ليس لأحد أن يحصر الإيمان بفئة دون أخرى.

● وردت في القرآن الكريم عدّة نماذج للمراتبيّة العامّة، من قبيل: العمل وفق الطاقة والوسع، والاختلاف بالجُهْد، والاختلاف في الاستعداد والكمال

والقـوّة، ومراتبيّـة العلـم والمعرفـة، و مراتبيّـة التفـضيل في الـرزق والعمـل والأحوال في الدنيا، ومراتبيّة الأجر والثواب في الآخـرة، ومراتبيّـة المقامـات المختلفة في الخُلق، ومراتبيّة أداء الأعمال بين الواجبات والمستحبّات، ومراتبيّة القراءة في الصلاة.

● مـن مراتبيّـة الإيـمان في القـرآن الكـريم: الـصبر والمـصابرة والمرابطـة، الصالحون وما دون ذلك، والإخلاص والاستخلاص (المخلِصية والمخلَصية)، والزيادة في المراتب الإيمانية، وقد أيّدت الـسنّة الـشريفة هـذه المراتبيّـة القرآنيـة وذكرت لها تطبيقات ومصاديق كثيرة.

● الإيمان العامّ على ثلاث مراتـب: مرتبـة الإيـمان بحـدّه الأدنـى، وهـو الإيمان بالله تعالى، ومرتبة الإيـمان بحـدّه الأوسـط، وهـو الإيـمان بـالله تعـالى واليوم الآخر حصراً، ومرتبة الإيمان بحدّه الأعلى، وهو مرتبة الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا عملاً صالحاً.

● الإيمان الخاصّ على أربع مراتب؛ الأولى: هي الإيمان بالله تعالى ورسُـله بشكل عامّ، والثانية: هي الإيمان بالله تعالى والنبي الخاتم صلّى الله عليـه وآلـه، والثالثة: هي الجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله والعمل الصالح، والرابعة: هي الإيمان بالله تعالى والنبي الخاتم والقرآن الكريم

● الإيمان الأخصّ عـلى ثـلاث مراتـب؛ الأولى: مرتبـة الإيـمان الأخـصّ بحدّها الأدنى، وهي مرتبة الإيمان بإمامـة أمـير المـؤمنين عـلي عليـه الـسلام، والثانية: مرتبة الإيمان الأخصّ بحدّها المتوسّط، وهـي مرتبـة الإيـمان بإمامـة الأئمّة من أهل البيت عليهم الـسلام، مـع الاخـتلاف في عـددهم، والثالثـة: مرتبة الإيمان الأخصّ بحدّها الأعلى، وهي مرتبة الإيمان بإمامة الأئمّة الاثنـي عشر من أهل البيت عليهم السلام حصراً، وكـأنّهم جميعـاً إمـام واحـد، فـلا يكفي الاعتقاد ببعضهم.

• ليس لأحد أن يسلب الإيمان عمّن يؤمن بالله تعالى وباليوم الآخر وقد عمل صالحاً، فسلبه اجتهاد في مقابل نصّ.

• من لوازم مراتبية الإيمان: الإقرار بإيمان المراتب الأخرى، فلا توصف أطرافها بغير الإيمان، والتعاطي الإيجابي المنطلق من واقعية الإيمان المحرز، وضرورة تبادل الحرص على المصالح المشتركة بين أطراف المراتب الإيمانية المتفاوتة.

• لابدّ من تأسيس جهة رقابية إسلامية أو دولية تحاسب كلّ جهة متطرّفة تسلب الإيمان عن أيّ جهة مؤمنة وتحصر الإيمان بها، أو تسلب الإسلام عن أيّ فئة مسلمة، فإنّ ذلك يعدّ تعدّياً يجب ردعه.

• ليس من المنطق والدين أن يُزايد أحد على القرآن الكريم في رسم المراتب الإيمانية: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾ (يونس: ٣٢)؟.

• لابدّ من إعادة النظر في معظم المناهج الدينية التدريسية، وفي جميع المراحل الدراسية، الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية، فضلاً عن الدراسات الدينية التقليدية، ولاسيما في الفصول والمواضع التي تثير الفتن، وتعمّق المحن، وتصلي الواقع بنيران الطائفية والفرقة.

• دعوة أصحاب الإيمان العامّ إلى الإيمان الخاصّ المتمثّل بالرسالة المحمدية، لابدّ أن تكون ـ دعوتهم ـ وفقاً للقاعدة القرآنية: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.

• الأعراب كاصطلاح يراد بهم: الذين يعيشون في البوادي ولا يختلطون كثيراً بالمدن والحواضر المدنية والعلمية، ومنهم كافرون لا يرعون حدود الله، ولا يبالون بها إذا ما علموا بها، ومنهم مسلمون لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ومنهم مؤمنون يتّخذون ما ينفقون قربات إلى الله.

• الأُصول الملحقة ـ العدل والإمامة ـ لو كانت من أُصول الدين وأركانه أو من الأُصول الإيمانية للزم أن يكون سائر الصحابة الأوائل الذين جاهدوا ونافحوا عن بيضة الإسلام واستشهدوا بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله ليسوا من المؤمنين.

• كلّ من لم يبلغه الدليل القطعي، العقلي أو النقلي، على التوحيد والنبوّة والمعاد، فضلاً عن أيّ عقيدة فرعيّة أخرى، من عدل وإمامة وعصمة، وما شابه ذلك، فهو غير مؤاخذ على ذلك، ولا معنى لاتّهامه بالكفر والتفسيق والتضليل، والحكم بهدر دمه وسلب ماله.

• حرَص القرآن الكريم كثيراً على التعريف بثنائية (الإيمان والعمل الصالح)؛ لأنّ العمل الصالح مُفضٍ إلى حفظ مرتبة الإيمان وعدم الدخول في الزيغ، وإلى تنمية هذه المرتبة الإيمانية وجعلها موجبة للارتقاء إلى مرتبة أعلى منها.

خامساً: نظم علاقات الإنسان

• إجمال التنوّع في علاقات الإنسان يكمن في ثمانية موارد، وهي: نظم علاقتنا مع أنفسنا، ومع الله تعالى، ومع الرسول صلّى الله عليه وآله، ومع أهل البيت عليهم السلام، ومع أهل العلم والفضل والقيادة الدينية، ومع الأبناء والآباء، ومع سائر المؤمنين، ومع الناس أجمعين.

• إنّ التصالح مع النفس لا يستقيم مع عدم الالتزام بالأحكام الشرعية، من واجبات ومحرّمات، كما أنّه يحتاج إلى متممّ نفسيّ وعمليّ، هو التحلّي بالأخلاق الكريمة والمزايا الحميدة، وعندئذٍ تحصل المصالحة الحقيقية.

• العلاقة بين الإنسان وربّه هي علاقة وجودية، لا انفكاك لها، سواء كان الإنسان عبداً صالحاً أو غير صالح، وقوام هذه العلاقة يتحدّد من خلال

بعض المفاهيم المتقابلة، من قبيل الألوهية التي تقابلها العبودية.

• مراعاة الأوامر والنواهي الإلهية هي مناط العلاقة العملية بيننا وبين الله تعالى، فالعلاقة الوجودية باقية على أيّ حال، وأمّا المعنوية فمرتبطة بحدود الطاعة والمتابعة لأوامره ونواهيه سبحانه.

• من أخطر الأسباب المفضية إلى ضعف علاقتنا بالله تعالى: الغفلة عنه سبحانه، وهذه الغفلة غالباً ما يكون وراءها حبّ الدنيا أو الاشتغال في طلب الدنيا على حساب طلب الآخرة.

• تنطلق الرؤية القرآنية في تصوير علاقتنا بالله تعالى من أصل العبودية ولزوم الطاعة، ومن التذكير بالفقرية الذاتية للإنسان والغنى الذاتي لله تعالى، ومن التزوّد بالتقوى والعلم والمعرفة، ومن العمل في سبيل الله، ومن أصل العود والرجوع إليه.

• علاقة الله تعالى بنا قائمة على الرحمة المطلقة، وقبول التوبة، والجزاء بالحسنى، والتعليم الإلهي.

• نظم العلاقة بالرسول صلّى الله عليه وآله يتحقّق بالإيمان بنبوّته، والاتّباع لرسالته، والطاعة لإمامته، وبالحبّ والولاء له صلّى الله عليه وآله، وبالصلاة عليه والتسليم إليه.

• الرؤية القرآنية في تقييم علاقتنا برسول الله صلّى الله عليه وآله قائمة على أساس فروض الحبّ والولاء والطاعة والمتابعة له، وأمّا من عصاه وخالفه فيما آتاه فهو ضالّ، ومصيره هو النار والعذاب، بنصّ القرآن.

• علاقة الرسول صلّى الله عليه وآله بأمّته والناس أجمعين قائمة على أصل إلهيّ جامع، وهو الرحمة، وعلى كونه الشاهد البشير النذير، والشفاعة لأمّته في الآخرة.

• مناشئ علاقتنا بأهل البيت عليهم السلام فكرية عقدية، وفقهية شرعية،

وتربوية أخلاقية، ومن أهمّ الموارد التي تقوى بها علاقتنا المعنوية بهم: صلتهم عليهم السلام، وصلة أرحامهم؛ فهم رحم رسول الله صلّى الله عليه وآله.

• لعلاقتنا بالإمام المهدي عليه السلام خصوصيّات فرضتها طبيعة المهمّة العظيمة الموكولة إليه، منها: السعي الحثيث للتمهيد له، والتواصل مع الإمام من خلال التعريف بمشروعه، والدعاء له بتعجيل الفرج.

• للقيادة الدينية نصيب عظيم من الطاعة والمتابعة على الأمّة، وعلى الأمّة تمكينها من تأدية دورها الخطير في حفظ الدين والترويج له والتصدّي للشبهات التي يثيرها الأعداء.

• القيادة الدينية ليست وظيفة أو مهنة دنيوية تعتمد على الكفاءة وحسب، وإنّما هي مهمّة ربّانية تشبه إلى حدٍّ كبير مهمّة الأنبياء عليهم السلام، ولذلك لابدّ للأمّة أن تعي دورها الكبير في حفظ مكانة القيادة الدينية.

• أهمّ أخلاقيات الأُبوّة: أخلاقيات بناء الثقة وتعزيزها، وأخلاقيات المتابعة، وأهمّ خُلقٍ يفرضه القرآن على الأبناء تجاه الآباء هو البرّ بهم.

• العلاقة بين المؤمنين قائمة على أصلين من الأصول القرآنية، هما: الأخوّة الإيمانية، والأخوّة الولائية.

• إنّ الأخوّة الإيمانية ـ على أهمّيتها وقدرتها على الاستجابة للمتطلّبات الإنسانية ـ كثيرة المصاديق، وسهلة التعويض، بخلاف الأخوّة النسبية فإنّها قليلة المصاديق، وعسيرة التعويض إن لم تكن محالة.

• الأخوّة الإيمانية تجعل المؤمن ينظر إلى ما هو أبعد من مصالحه الشخصية، وتربط بين الناس على اختلاف أشكالهم وألوانهم ودمائهم، وأحوالهم وبلادهم وعاداتهم، وتحوّل المجتمع الإنساني إلى أمّة واحدة.

• نظم علاقتنا مع عموم الناس تنطلق من مسؤوليتنا الشرعية في بيان سماحة الإسلام وقيَمه العظيمة، ومن مسؤوليتنا الأخلاقية في الارتقاء بالآخر

وإن لم يكن مسلماً، ومن مسؤوليتنا الإنسانية تجاه أخينا الإنسان، بقطع النظر عن دينه ولونه وعمله وبلده.

• بخس الحقوق والتهاون في إيصالها إلى أهلها موجب للخروج عن الوسطية القرآنية.

• الحقّ: هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وقد يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، وللاعتقاد بالشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، وللفعل والقول الواقع بحسب وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب.

التوصيات

• تكثيف المراجعات القرآنية، والالتزام بالعمل التنقيبي عن النظريات القرآنية، لاسيّما فيما يتعلّق بالمجال الاجتماعي.

• الاحتكام إلى نصّية النصّ مع الاستعانة بقراءات النصّ المعروضة، وليس الاحتكام إلى القراءات والاستعانة بالنصّ، والفرق واضح وجليل.

• ملاحظة الظروف الموضوعية (الفكرية والاجتماعية) التي نعيشها في عصرنا، وعدم تجاوزها في قراءتنا للنصوص الدينية؛ لأنّ النصوص الدينية حيادية، والقراءات عصرية، أي: زمكانية.

المصادر

القرآن الكريم.

١. الاحتجاج، للشيخ أحمد بن علي الطبرسي، تحقيق: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف، طبعة ١٩٦٦ م.

٢. أحكام القرآن، للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصّاص (ت: ٣٧٠هـ)، ضبط نصّه وخرّج آياته: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٣. إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، صحَّحه واعتنى به: محمد بن مسعود الأحمدي، نشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦هـ.

٤. الاختصاص، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن النعمان العكبرى البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، رتّب فهارسه: السيد محمود الزرندي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة.

٥. أخلاقنا ... عرض للأخلاق التعليمية والواقعية، للمرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، العراق، الكاظمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ.

٦. الأربعون حديثاً، للسيّد الإمام روح الله الخميني، تعريب: السيد محمد الغروي، الناشر: مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى.

٧. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد (سلسلة مؤلّفات الشيخ

المفيد)، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، الناشر: دار المفيد للطباعة، قم المقدّسة.

٨. أُسُد الغابة في معرفة الصحابة؛ لابن الأثير أبي الحسن عزّ الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشافعي، انتشارات إسماعيليان، طهران.

٩. الإصابة في تمييز الصحابة، للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، تقديم وتقريظ: الدكتور محمد عبد المنعم البري والدكتور عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ.

١٠. أصل الشيعة وأصولها، للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، تحقيق: علاء آل جعفر، الناشر: مؤسسة الإمام علي عليه السلام، قم المقدَّسة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١١. أصول الفقه، للشيخ محمد رضا المظفر، نشر: مركز انتشارات التبليغ الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠ م.

١٢. الأُصول من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، قم، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

١٣. أضواء على السنّة المحمدية، للشيخ محمود أبو ريه، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الخامسة، مزيدة ومنقّحة.

١٤. أعلام النبوّة، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١٥. الإفصاح في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ، للفقيه المتكلّم أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي المعروف بـ (الشيخ المفيد)، نشر: مؤسسة البعثة، قسم الدراسات الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
١٦. إقبال الأعمال، للسيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ.
١٧. الأمالي، لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، نشر: دار الثقافة، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى.
١٨. الأمالي، للسيد المرتضى أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين (ت: ٤٣٦هـ)، صحّحه وضبط ألفاظه وعلّق حواشيه: الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي، منشورات: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، إيران، ١٤٠٣هـ.
١٩. الأمالي، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٢٠. الإمامة والتبصرة من الحيرة، علي بن الحسين بن بابويه القمّي (والد الصدوق)، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة.
٢١. أوائل المقالات، للشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، نشر: دار المفيد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٢٢. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، للعلّامة الشيخ محمد باقر المجلسي، نشر: مؤسّسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢٣. البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٨هـ.

٢٤. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت: ٧٩٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ.

٢٥. بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفّار، تحقيق: ميرزا محسن باغي، الناشر: مؤسسة الأعلمي، طهران، ١٤١٤هـ.

٢٦. تاريخ ابن معين، للإمام يحيى بن معين بن عون المري البغدادي (ت: ٢٣٣هـ)، برواية أبي الفضل العباس بن محمد بن حاتم الدوري (ت: ٢٧١هـ)، حقّقه وعلّق عليه وقدّم له ووضع فهارسه: عبد الله أحمد حسن، إشراف: مكتب الدراسات الإسلامية لتحقيق التراث، بيروت، الناشر: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٧. تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: نخبة من العلماء، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٢٨. التاريخ الكبير، للشيخ المحدّث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، الناشر: المكتبة الإسلامية، ديار بكر، بإشراف الدكتور محمد عبد المُعيد خان.

٢٩. تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ.

٣٠. تاريخ مدينة دمشق، للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي

المعروف بابن عساكر، دراسة وتحقيق: علي شيري، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ.

٣١. تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، للفقيه المفسر السيد شرف الدين على الحسيني الاسترابادي النجفي، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٢. التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٣٣. تحف العقول عن آل الرسول، للشيخ الثقة الأقدم أبي محمد الحسن بن علي بن شعبة الحرَّاني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٣٤. تذكرة الفقهاء (طبعة جديدة)، للعلامة الحلّي الحسن بن يوسف بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٥. تفسير الإمام العسكري (التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى المحقّقة، ١٤٠٩هـ.

٣٦. تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلّي وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، نشر: دار المعرفة، بيروت.

٣٧. تفسير الصافي، للشيخ محسن الفيض الكاشاني، الناشر: مكتبة الصدر، بطهران، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.

٣٨. تفسير العياشي، لأبي النضر محمد بن مسعود العياشي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٩. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
٤٠. تفسير القرآن العظيم، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦ ـ ٢١١هـ)، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٤١. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، نشر: مؤسسة التأريخ العربي،١٤٠٥هـ، بيروت.
٤٢. تفسير القمّي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمّي، تصحيح: السيد طيّب الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، قم المقدّسة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
٤٣. تفسير الكشَّاف، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، رتّبه وضبطه وصحَّحه: محمد عبد السلام شاهين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦م.
٤٤. تفسير غريب القرآن، للشيخ فخر الدين الطريحي، تحقيق وتعليق: محمد كاظم الطريحي، نشر: انتشارات الزاهدي، قم المقدّسة.
٤٥. تفسير نور الثقلين، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، تحقيق: السيد هاشم المحلاتي، نشر: مؤسسة إسماعليان، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ.
٤٦. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورَّام)، للورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري، نشر: مكتبة الفقيه.
٤٧. تهذيب الأحكام، لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: السيد حسن الخرسان، نشر: دار الكتب الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة

الرابعة، ١٩٩٥م.
٤٨. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، المقالة الأُولى، تحت عنوان: (الفضائل التي تحت العدالة)، تحقيق: قسطنطين زريق، نشر: الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٦م.
٤٩. تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجّاج المزّي، تحقيق: الدكتور بشّار عوّاد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
٥٠. الثقات، محمد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.
٥١. ثواب الأعمال، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، منشورات الرضي، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٣٦٨ش.
٥٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، نشر: دار الفكر، بيروت ، الطبعة ١٤١٥هـ.
٥٣. جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر، تقديم الشيخ محمد رضا المظفر، منشورات مطبعة النعمان، النجف الأشرف.
٥٤. الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠١هـ.
٥٥. حديث الثقلين سنداً ودلالة ... قراءة في أبحاث سماحة المرجع الديني السيد كمال الحيدري، رسالة ماجستير للطالب: أسعد حسين علي الشمري، الناشر: مؤسسة الهدى للطباعة والنشر، العراق، الطبعة

الأُولى، ١٤٣٥هـ.
٥٦. حقائق الإيمان مع رسالتي الاقتصاد والعدالة، للشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد العاملي (ت: ٩٦٥هـ)، إشراف: السيد محمود المرعشي، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامّة، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٥٧. الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، للحكيم الإلهي والفيلسوف الربّاني صدر الدين الشيرازي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٩م.
٥٨. حياة الإمام الحسن عليه السلام، للشيخ باقر شريف القرشي، الناشر: دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٩هـ.
٥٩. الحياة السياسية للإمام الحسن (عليه السلام) في عهد الرسول (صلّى الله عليه وآله) والخلفاء الثلاثة بعده (دراسة وتحليل)، تأليف: السيد جعفر مرتضى الحسيني العاملي، من سلسلة الكتب المؤلّفة في أهل البيت عليهم السلام، رقم (١٠٩)، إعداد: مركز الأبحاث العقائدية، منشور في المكتبة الشاملة.
٦٠. الخصال، للشيخ الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جامعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة.
٦١. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، للحافظ جلال الدين السيوطي، نشر: دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٦٥هـ.
٦٢. دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام، للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، نشر: دار المعارف، الطبعة الثانية، مصر، ١٣٧٩هـ.

٦٣. الدعوات، قطب الدين الراوندي (ت: ٥٧٢هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، مطبعة أمير، قم.
٦٤. الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المُفَضَّل الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، مراجعة وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكلّيات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأُولى، ١٣٩٣هـ.
٦٥. ربيع الأبرار، محمود بن عمر الزمخشري، منشورت الرضي، قم المقدّسة، طبعة ١٤١٠هـ.
٦٦. الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية (للشهيد الأوّل)، تأليف: الشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر، منشورات جامعة النجف الدينية، النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.
٦٧. روضة الواعظين، للشيخ العلّامة محمد بن الفتال النيسابوري (ت: ٥٠٨هـ)، تقديم: العلّامة السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الرضي، قم.
٦٨. الروضة من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.
٦٩. زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: الدكتور محمد عبد الرحمن عبد الله، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
٧٠. زبدة البيان في أحكام القرآن، تأليف: العالم الرباني الشيخ أحمد بن محمد (الشهير بالمقدّس الأردبيلي)، حقّقه وعلّق عليه: محمد الباقر البهبودي،

نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران.

٧١. سبل السلام (شرح بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني)، تأليف: السيد محمد بن إسماعيل الكحلاني (ت:١١٨٢هـ)، المراجعة والتعليق: محمد عبد العزيز الخولي، طبع ونشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٠م.

٧٢. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٤هـ.

٧٣. سرّ الصلاة (معراج السالكين وصلاة العارفين)، للسيد الإمام روح الله الخميني، الناشر: مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، قسم الشؤون الدولية، طهران، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٧٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض ـ السعودية.

٧٥. السلطة وصناعة الوضع والتأويل، دراسة تحليلية تطبيقية في حياة معاوية بن أبي سفيان، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: علي المدن، الناشر: دار مشعر للنشر والتوزيع، طهران، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

٧٦. سنن ابن ماجة، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق وتعليق: الأُستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٧٧. سنن أبي داود، للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر

والتوزيع، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م.

٧٨. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٧٩. سنن الدارمي، للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت: ٢٥٥هـ)، نشر: مطبعة الاعتدال، دمشق.

٨٠. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي الشافعي (ت: ٣٠٣)، تحقيق: الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٨١. السنن الكبرى، للمحدّث الحافظ أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، نشر: دار الفكر، بيروت.

٨٢. سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، بإشراف: شعيب الارنؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ.

٨٣. السيرة النبوية، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٥هـ.

٨٤. شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، تعليق: الميرزا أبي الحسن الشعراني، نشر: مؤسسة التأريخ العربي، بيروت، الطبعة الثانية المصحَّحة، ١٤٢٩هـ.

٨٥. شرح الأسماء الحسنى، للحكيم ملّا هادي السبزوارى، تحقيق: د. نجف قلي حبيبي، مؤسسة انتشارات جامعة طهران، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ش.

٨٦. شرح دفتر دل (شرح كتاب القلب) لآية الله العلامة الشيخ حسن

حسن زاده آملي، بقلم: الشيخ داوود صمدي آملي.
٨٧. شرح صحيح مسلم، محيي الدين يحيى بن شرف النـووي، النـاشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
٨٨. شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليـه الـسلام، للـشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، تصحيح وتعليق: مير جلال الدين الحسيني الآرموي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدّسة، الطبعة الأولى.
٨٩. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتـزلي، نـشر: دار إحيـاء الكتـب العربية، بيروت.
٩٠. الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، محمد بن عيسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيـق: سـيد عبـاس الجليمـي، النـاشر: مؤسـسة الكتـب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٩١. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، للحـافظ الكبـير عبيـد الله بـن أحمـد المعروف بالحاكم الحسكاني الحنفي النيسابوري، تحقيق وتعليق: الـشيخ محمد باقر المحمودي، نشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية التابع لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، الطبعة الأُولى، ١٤١١هـ.
٩٢. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيـة، إسـماعيل بـن حمّـاد الجـوهري، تحقيـق: أحمـد بـن عبـد الغفـور عطّـار، نـشر: دار العلـم للملايـين، ١٤٠٧هـ، بيروت، الطبعة الرابعة.
٩٣. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
٩٤. صحيح مسلم، أبو الحـسين مـسلم بـن الحجّـاج بـن مـسلم القـشيري النيسابوري، دار الفكر، بيروت.
٩٥. الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلّى الله عليه وآلـه (مـدخل لدراسـة

السيرة والتاريخ)، للعلّامة المحقق السيد جعفر مرتضي العاملي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ.
٩٦. صحيفة الإمام الحسين عليه السلام، تأليف: جواد القيّومي الأصفهاني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المشرّفة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
٩٧. الصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم، للشيخ زين الدين أبي محمد على بن يونس العاملي (ت: ٨٧٧هـ)، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، إيران، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ.
٩٨. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، نشر: دار صادر، بيروت.
٩٩. الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، لرضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن طاووس الحلّي (ت: ٦٦٤هـ)، مطبعة الخيّام، قم، ١٣٩٩ هـ.
١٠٠. عدّة الداعي ونجاح الساعي، للشيخ أحمد بن فهد الحلّي، تحقيق: أحمد الموحّدي القمّي، الناشر: مكتبة الوجداني، قم.
١٠١. العِدَد القويّة لدفع المخاوف اليومية، للفقيه الجليل رضي الدين علي بن يوسف المطهر الحلّي (ت: ٧٢٦)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، الناشر: مكتبة آية الله المرعشي العامّة، مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٠٢. العلاقة مع الآخر في ضوء الوسطية في الإسلام، وفقاً لروايات وسيرة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام الأطهار، (بحث مقدّم إلى مؤتمر وسطية الإسلام بين الفكر والممارسة الذي عقده منتدى الوسطية للفكر والثقافة في الأردن ـ عمان/ من ٢٦ إلى ٢٨ حزيران ٢٠٠٤ م)، تأليف: الشيخ فارس الحسّون، منشور ضمن سلسلة الكتب العقائدية، رقم: (١٧٤)، إعداد: مركز

الأبحاث العقائدية، قم.
١٠٣. علل الشرائع، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه، نشر: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٠٤. العلل ومعرفة الرجال، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتخريج: الدكتور وصيّ الله بن محمد عباس، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ودار الخاني للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٠٥. عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب أمام الأبرار، للحافظ ابن بطريق يحيى بن الحسن الأسدي الحلّي المعروف (ت: ٦٠٠هـ)، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في قم المشرّفة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
١٠٦. عوالي اللآلي، لابن أبي جمهور الأحسائي، تحقيق: البحّاثة الشيخ مجتبى العراقي، نشر: مطبعة سيد الشهداء، قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٣هـ.
١٠٧. عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: حسين الأعلمي، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ.
١٠٨. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (السيرة النبوية)، تأليف: محمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس (ت: ٧٣٤هـ)، الناشر: مؤسسة عزّ الدين، بيروت، ١٤٠٦هـ.
١٠٩. عيون الحكم والمواعظ ، علي بن محمّد الليثي الواسطي، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، نشر: دار الحديث، قم، الطبعة الأُولى، ١٩٩٧م.
١١٠. الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، للشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م.
١١١. غرر الحكم ودرر الكلم، جمع عبد الواحد الآمدي، تحقيق: السيد

جلال الدين الآرموري، نشر: جامعة طهران، الطبعة الثالثة.
١١٢. الفائق في غريب الحديث، للعلّامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
١١٣. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، نشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية.
١١٤. فرائد الأصول، للشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري (ت: ١٢٨١هـ)، إعداد وتحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم الأنصاري، الناشر: مجمع الفكر الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤١٩هـ.
١١٥. الفروع من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.
١١٦. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، تحقيق ونشر: مؤسسّة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، قم.
١١٧. الفصول المختارة، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، تحقيق: السيد علي مير شريفي، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
١١٨. الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، تحقيق: محمد بن محمد حسين القائيني، الناشر: مؤسسة الإمام الرضا عليه السلام للمعارف الإسلامية، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١١٩. فقه العقيدة (بحوث في أصول الإيمان وفروعه)، من أبحاث سماحة

المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، العراق، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

١٢٠. فلاح السائل ونجاح المسائل، للسيد رضي الدين علي بن موسى جعفر بن طاووس (ت: ٦٦٤هـ)، تحقيق: غلام حسن المجيدي، الناشر: مؤسسة بوستان كتاب (مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)، قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ.

١٢١. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، نعمة الله بن محمود النخجواني الأذربيجاني (ت: ٩٢٠هـ)، الناشر: دار ركابي للنشر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٢٢. في القوّة والسلطة والنفوذ (دراسة في علم الاجتماع السياسي)، للدكتور حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الناشر: مركز الإسكندرية للكتاب، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

١٢٣. في ظلال القرآن، للسيد قطب بن إبراهيم الشاذلي، نشر: دار التراث العربي، بيروت، طبعة ١٩٦٧م.

١٢٤. فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤف المناوي، تحقيق: أحمد عبد السلام، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ.

١٢٥. القاموس المحيط ، للشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، نشر: دار العلم، بيروت.

١٢٦. كامل الزيارات، للشيخ الجليل جعفر بن محمد بن قولويه القمّي (ت: ٣٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القيّومي، الناشر: مؤسسة نشر الفقاهة، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧.

١٢٧. الكامل، للحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، ويحيى مختار غزاوي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

١٢٨. كتاب الإيمان، محمد بن يحيى العدني (ت: ٢٤٣هـ)، تحقيق: حمد بن حمدي الجابري الحربي، الناشر: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٢٩. كتاب العقل وفضله، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا البغدادي (ت: ٢٨١هـ)، تحقيق: لطفي محمد الصغير، الناشر: دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٣٠. كتاب العين، خليل بن أحمد الفراهيدي، انتشارات هجرت، قم المقدّسة، ١٤١٠هـ، الطبعة الثانية.

١٣١. كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، علي بن عيسى بن أبي الفتح الاربلي (ت: ٦٩٣هـ)، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

١٣٢. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، للخواجة نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٦٧٢هـ)، شرح: العلّامة الحلّي جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ)، حواشي وتعليقات: آية الله السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني، الناشر: منشورات الشكوري، مطبعة إسماعيليان، قم، الطبعة الرابعة، ١٣٩٣م.

١٣٣. كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، للعلّامة الحلّي الحسن بن يوسف بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ)، تحقيق: حسين درگاهي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، طهران.

١٣٤. كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق أبي جعفر بن علي بن الحسين بن بابويه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم المقدّسة، نشر:

مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥هـ.
١٣٥. كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا المشهدي، التحقيق: حسين درگاهي، الناشر: مؤسسة الطبع و النشر في وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
١٣٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
١٣٧. المجازات النبوية، للشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ)، تحقيق وشرح: فضيلة الدكتور طه محمد الزيني، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.
١٣٨. مجمع البيان في تفسير القرآن، لأمين الإسلام أبي الفضل بن الحسن الطبرسي، نشر: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، بيروت.
١٣٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
١٤٠. المجموع (شرح المهذّب)، للإمام أبي زكريا محيى الدين بن شرف النووي (ت: ٦٧٦ هـ)، نشر: دار الفكر، بيروت.
١٤١. المحاسن، تأليف: الشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، نشر: مؤسسة الأعلمي، طهران، ١٤٢٩هـ.
١٤٢. المحتضر، للشيخ عزّ الدين أبي محمد الحسن بن سليمان الحلّي، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف، العراق، الطبعة الأولى، ١٣٧٠هـ.
١٤٣. المحلّى، للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ)، تحقيق: الأستاذ أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الفكر، بيروت.
١٤٤. مختصر بصائر الدرجات، للشيخ حسن بن سليمان الحلّي، منشورات

المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، الطبعة الأُولى، ١٩٥٠م.
١٤٥. مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.
١٤٦. المدرسة القرآنية، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سرّه، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، نشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر قدس سرّه، قم المقدّسة، الطبعة الثانية المحقّقة، ١٤٢٤هـ.
١٤٧. مراتب السير والسلوك إلى الله، من أبحاث المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة، الكاظمية، العراق.
١٤٨. المزار الكبير، للشيخ أبي عبد الله محمّد بن جعفر المشهدي، تحقيق: جواد الفيّومي، نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
١٤٩. مستدرك الوسائل، للمحقِّق الميرزا حسين النوري الطبرسي، الناشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم المقدّسة، ١٤٠٨هـ.
١٥٠. مستدرك سفينة البحار، للشيخ العلّامة البحّاثة علي النمازي الشاهرودي، تحقيق وتصحيح: الشيخ حسن بن علي النمازي، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم، طبعة ١٤١٩هـ.
١٥١. المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي.
١٥٢. مسكن الفؤاد عند فقد الأحبّة والأولاد، الشهيد الثاني الشيخ زين

الدين علي بن أحمد الجبعي العاملي (ت: ٩٦٥هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
١٥٣. مسند أحمد بن حنبل، للإمام أحمد بن حنبل، نشر: دار الفكر، بيروت.
١٥٤. مسند الإمام الرضا أبي الحسن علي بن موسى عليهما السلام، جمعه ورتّبه: الشيخ عزيز الله العطاردي الخبوشاني، الناشر: المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، مشهد، ١٤٠٦هـ.
١٥٥. مسند الشاميين، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
١٥٦. مسند الشهاب، للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت: ٤٥٤هـ)، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
١٥٧. مصباح الشريعة، المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٠م.
١٥٨. مصباح المتهجّد، للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
١٥٩. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، نشر: مؤسسة دار الهجرة، قم المقدّسة، ١٤١٤هـ.
١٦٠. مصنّف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار، للحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، ضبطه وعلّق عليه: الأستاذ سعيد محمد اللحام، نشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.
١٦١. المصنّف، لأبي بكر عبد الرزّاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي،

بيروت.
١٦٢. معالم الإسلام الأموي (من القدح في العترة النبوية الطاهرة إلى استباحتها)، محاضرات آية الله السيد كمال الحيدري، بقلم: إبراهيم البصري، دار مشعر للنشر والتوزيع، طهران، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ.
١٦٣. معاني الأخبار، للشيخ الأقدم أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي الصدوق، صحّحه: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدّسة، طبعة الرابعة، ١٤١٨هـ.
١٦٤. المعجم الأوسط، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، الناشر: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة: ١٤١٥هـ.
١٦٥. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، طبع دار إحياء التراث العربي، نشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.
١٦٦. معجم لغة الفقهاء، تصنيف: الدكتور محمد قلعجي والدكتور حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
١٦٧. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، ١٤٠٤هـ، الناشر: اتحاد الكتّاب العرب، الطبعة: ٢٠٠٢م.
١٦٨. معرفة الله، للمرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: طلال الحسن، نشر: دار فراقد، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤٢٨هـ.
١٦٩. معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق وتعليق: الدكتور السيد معظم حسين، منشورات دار الأفاق الحديث، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

١٧٠. المعيار والموازنة في فضائل الإمام علي بن أبي طالب، للشيخ الأقدم أبي جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي المعتزلي، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي.
١٧١. المغني، لموفّق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت: ٦٢٠هـ)، نشر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت.
١٧٢. مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين محمد الرازي، منشورات محمد علي بيضون، الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٧٣. مفتاح الفلاح، تأليف: الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين العاملي (الشيخ البهائي)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.
١٧٤. مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، انتشارات ذوي القربى، قم المقدَّسة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.
١٧٥. المُفهم لما أُشكل من تلخيص مسلم، تأليف: الإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق وتعليق ونشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ.
١٧٦. مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني (ت: ٣٥٦هـ)، قدّم له وأشرف على طبعه: كاظم المظفّر، الناشر: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم، ومنشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.
١٧٧. مكارم الأخلاق، للشيخ الجليل رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، منشورات الشريف الرضي، قم المقدّسة، الطبعة السادسة، ١٩٧٢م.
١٧٨. من الحقّ إلى الخلق، من أبحاث المرجع الديني السيد كمال الحيدري،

بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: دار فراقد، قم المقدّسة.
١٧٩. من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جامعة المدرسين، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
١٨٠. منتهى المطلب في تحقيق المذهب، للعلّامة جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي المطهر الحلّي، تحقيق: قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية، تقديم بقلم: الدكتور محمود البستاني، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، إيران مشهد، الطبعة الأُولى، ١٤١٢هـ.
١٨١. المنطق، للشيخ محمّد رضا المظفر، نشر: دار التفسير، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
١٨٢. منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، للشهيد الثاني الشيخ زين الدين بن علي العاملي (ت: ١٠١١هـ)، تحقيق: رضا المُختاري، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩هـ.
١٨٣. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٣٨٢هـ.
١٨٤. ميزان تصحيح الموروث الروائي (معالم نظرية عرض الروايات على القرآن الكريم)، من أبحاث المرجع الديني السيد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، العراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ.
١٨٥. الميزان في تفسير القرآن، للسيد العلّامة محمد حسين الطباطبائي، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدَّسة.
١٨٦. نظم درر السمطين، جمال الدين محمد بن يوسف الزرندي الحنفي،

المطبعة (من مخطوطات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامّة، النجف الأشرف، ١٩٥٨ م.

١٨٧. النفحات الإلهية، لصدر الدين محمد بن إسحاق القونوي، صحّحه وقدّم له: محمد خواجوي، الناشر: انتشارات المولى، إيران، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.

١٨٨. النهاية في غريب الحديث، للإمام مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناجي، نشر: مؤسسة إسماعليان، قم المقدّسة، الطبعة الرابعة، ١٣٦٤ ش.

١٨٩. نهج الإيمان، زين الدين علي بن يوسف بن جبر، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، نشر: مجمع الإمام الهادي عليه السلام، مشهد، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٩٠. نهج البلاغة، للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، جمع الشريف الرضي، تحقيق: الشيخ محمد عبده، نشر: دار المعرفة، بيروت.

١٩١. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للشيخ الفقيه المحدّث محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت: ١١٠٤هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٩٢. ينابيع المودّة لذوي القربى، للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، تحقيق: السيد علي جمال أشرف الحسيني، قم المقدّسة، نشر: دار الأُسوة، الطبعة الأُولى، ١٤١٦هـ.

الفهرس

الوسطية في التشيّع

مراتب الإيمان في القرآن

الخاتمة والنتائج والتوصيات